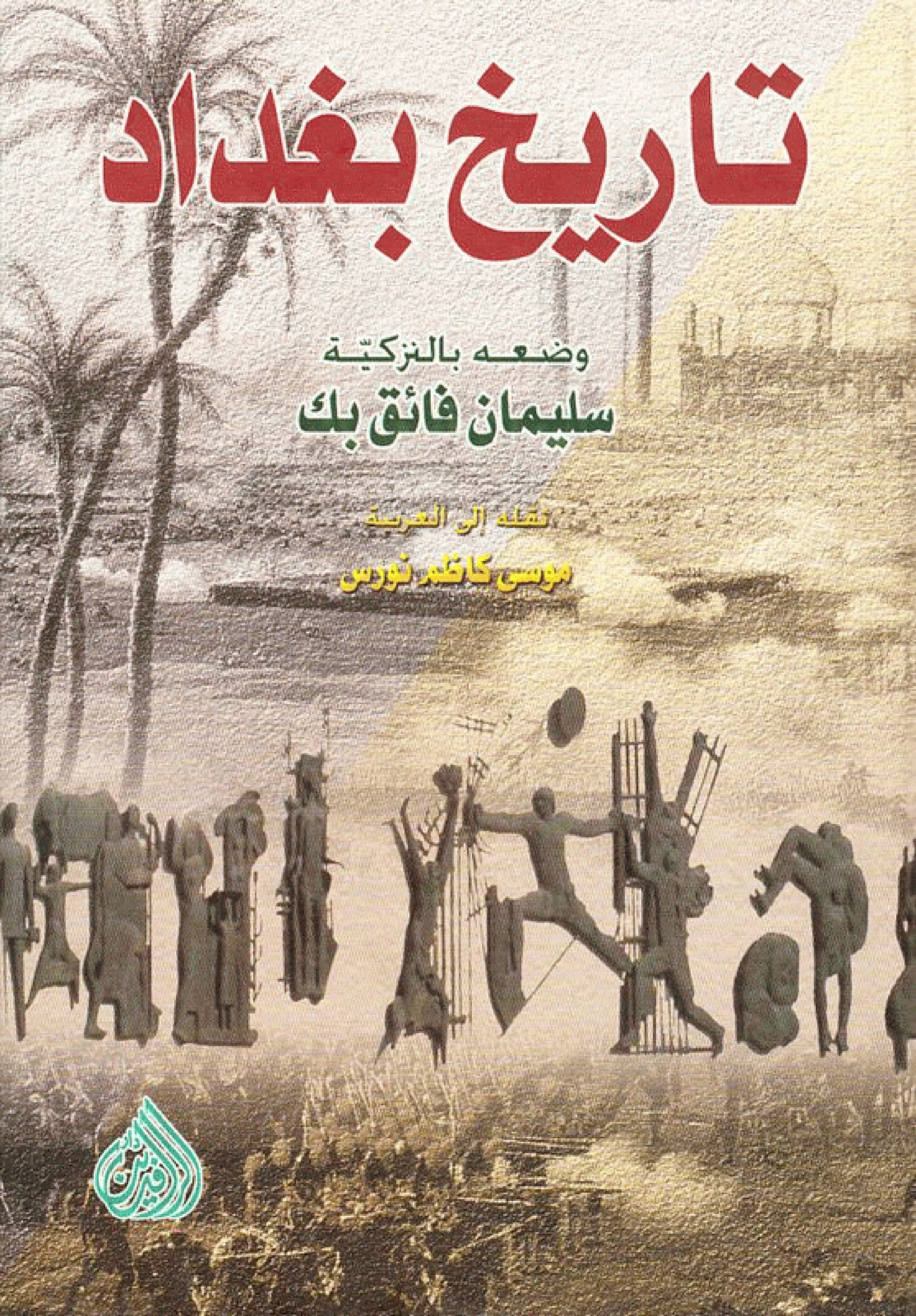
تاريخ بغداد

وضعه بالتركيّة

سليمان فائق بك

نقله إلى العربية

موسى كاظم نورس



الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

توزيع
الفرات للنشر والتوزيع
شارع الحمراء ـ بناية رسامني
ص.ب: ٦٤٣٥/١١٣
بيروت ـ لبنان
هاتف: ٩٦١١٧٥٠٠٥٤
فاكس: ٩٦١١٧٥٠٠٥٣
www.alfurat.com
e-mail: info@alfurat.com

دار الرافدين
للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت ص.ب 25/309 الغبيري
تلفاكس: 961 1 541980+ خليوي، 03/445510
e-mail، daralrafidain@yahoo.com

تاريخ بغداد

وضع هذا الكتاب باللغة التركية

سليمان فائق بك

نقله إلى اللغة العربية

موسى كاظم نورس



صورة المؤلف

سليمان فائق بك

ترجمة المؤلف

بقلم الأستاذ الكبير المحامي: عباس العزاوي

المؤرخ العراقي (الأستاذ سليمان فائق)

في عصور العراق المختلفة ظهر مؤرخون أكابر كانت صلتهم بالتاريخ مكينة، أبدوا تتبعاً مهماً فمنهم من حاول بيان المشاكل اليومية، أو تثبيت آراء الأمة، ومنهم من دوّن ما جرى من عمل ضار أو صالح، أو سجل الانحراف في السياسة والإدارة. ويصعب تحديد ذلك في تحليل الوقائع القريبة، أو ما كان أقدم، متصلة بالوقائع شأن العارف بمجاري الأمور. . . فالوقائع تنبىء عما وراءها. والمشاكل تتجلى فندرك مغزاها.

ومن هؤلاء المؤرخين من نعتز بمكانته التأريخية لما خلّد من مؤلفات نافعة مهمة وهو (مؤرخ العراق) في عصره غير منازع، أعني الأستاذ (سليمان فائق) مؤرخ عصر المماليك المعروفين بـ (الكولات) والعصر التالي لهم. وتبدو مكانته في مؤلفاته بما خلّده في تاريخ العراق. وكان يملك سمعة طيبة في نظر معاصريه لا سيما الأستاذ الكبير أبي الثناء شهاب الدين الآلوسي. وهو حجة لا يرد له قول مع الإشارة إلى أنه عاصره وعاش بعده نحو خمسين عاماً. فكيف لو أرّخه في آخر أيامه؟

ولا شك أن والده كان من رجالات بغداد المعروفين، وهو الحاج طالب (كهبة بغداد) أيام داود باشا وكان بمقتضى منصبه يعد مرشحاً للوزارة لولا أن داود باشا كان يخاف من ظلّه، فلا يبقى أحداً في هذا المنصب طويلاً حذر أن يزاحمه فيحدث غائلة خصوصاً أنه عارضه في وضع ضرائب جديدة مما دعا أن ينحيه من منصبه، وأن ابنه (سليمان فائق) ورث علو الهمة عن والده فولي مناصب عديدة منها «محاسبة لواء المنتفق» و«متصرفية لواء البصرة» و«رئاسة الديوان في بغداد» فصار مكتوبياً إلى آخر مناصبه الحكومية.

وهذه لا تكبره، وإنما تزيد في رفعته وعلو شأنه وقدرته العلمية والتأريخية، وأدبه الجم وسلوكه المرضي. وقد ذاع صيته في حياته فلم يخف أمره. قال الأستاذ أبو الثناء في غرائب الاغتراب:

«سليمان فائق بن ليث الوغى كدخدا بغداد سابقاً الحاج طالب أغا. ارتضع دَرّ الفضل صغيراً، وتقلّد در الأفضال كبيراً. عانى فن الكتابة، فمهر في الإنشاء، فهو اليوم ينظم الكواكب الدرية في سلك تحريراته التركية إن شاء.

عباراته في النظم والنثر كلها غرائب تصطاد القلوب بدائع
فهن لأجياد المعالي قلائد وهن لأجناد المعاني طلائع

أقرّت له بالرق كتّاب الروم، وقالت أنّى لنا أن نقرّ بالرق سواري النجوم، فيا له من كاتب جمع العجائب والغرائب:

إن هز أقلامه يوماً ليعملها أنساك كل كمّي هز عامله
وإن أقر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له

قد سخرت له جن المعاني المتعاصية على الأذهان، ولا بدع إذا ما

سخرت الجن لسليمان، ولعمري لو صعد الذهن النظر في بلقيس كتبه وصوّب، لظهر له من معانيها وألفاظها غاية العجب:

معانٍ كالعيون ملئن سحراً وألفاظ مورّدة الخدود

ومع ذا إذا نظم أبدع، وإذا تفتّق نور شعره فالحسن بين مرصع ومصرع، وينضم إلى ذلك لين جانب، ورعاية صاحب، وكرم أخلاق، وحسن وفاق.

ولو أن المكارم صرن نفساً لكان لها الضمائر والعيونا

فهو الذي اجتهد في طلب الكمال ففاق، وقلّد بدور الأفضال سائر الأعناق. فيا له من مجتهد مقلّد، ومسدّد مسدّد. ما صحب ذا عقل من الوزراء إلا كان مقدم حزبه والمستولي على سمعه وبصره وقلبه. كل ذلك لعلو همته ومزيد صدقه في خدمته. وله محبة قوية للسادة الصوفية، ونسبة سنية للطريقة العلية النقشبندية، لا يترك وإن ضاقت لسعة غائلته الأوقات، الاشتغال بما عين له من النفي والإثبات. ويميل في الاعتقاد إلى مذهب الخلف، وكم له في ذلك الميل من سلف، ولا يرى في العمليات غير تقليد الإمام الأعظم، وتعظيم سائر أئمة الدين عنده أمر ملتزم، فكلهم درر مستجادة، إلا أن الإمام الأعظم واسطة القلادة... (إلى أن يقول) وبالجملة ما أدرك ذو حسّ مثل هذا الأب والابن وروح القدس. غير أن هذا الابن فاق أباه، وغدا أعرف في أمور أخراه ومولاه. وهو في الدهاء بين كتاب الزمان، أشبه بكاتب الوحي معاوية بن أبي سفيان. وبين الأمراء من ذوي الاختصاص يحكي داهية العرب عمرو بن العاص، فلعمري وعمره هو معاوية هذا الزمان وعَمْروه، جعله الله عليّ المقام، وأناله من حسن الآمال غاية المرام.» اهـ. وفي هذا بيان أدبه الجمّ، وتحريره العظيم وأوصافه الشخصية،

وحياته السياسية ما يغني عن مؤلفات. وقال الأستاذ أبو الثناء في نشوة الشمول:

«وأعظم الناس إيناساً لي في الطريق واحد، وها أنا له دون سائرهم شاكر حامد، من هو كروحي عندي أبو المحاسن سليمان بك أفندي. ولعمري إني لو لا أن منّ الله تعالى به علي لقتلني همي، ولألحقني نصب السفر بأبي وأمي، فإنه كان أسرع من الريح في طاعتي، وأقوى من عفريت الجن في خدمتي ولا بدع فهو الحائز من صفات الفضل فنوناً شتى، والسالك الطريقة التي لا عوج فيها ولا أمنا.

وهو الذي نفق الثناء بسوقه   وجرى الهدى بعروقه قبل الدم

بل أعود فأقول غير مبال بحسود أو جهول:

لا أبصرت مقلتي محاسنه   إن كنت أبصرت مثله حسنا

(إلى أن يقول): ولم أقل ما قلته مداهنة له، أو طلباً لأستزيد بذلك فضله، بل رأيت نجابة ذاتٍ فذكرتها، ودرر صفاتٍ فنشرتها. ولو أني كنت أحسست منه بمعاملة معي وخيمة، لم يرد عني ما عودته مع الأخلاء، وأن أخلّوا بحقي من رعاية الحقوق القديمة، لسلقته بلسان قلم أسود ينضنض كما ينضنض لسان الأفعى، ويتقاطر منه سمّ تتهرى منه أبدان الأسود وهي حية تسعى:

فإني إن لم أذكر المرء بالذي   يعاملني إن جيداً أو مذمما

ففيم عرفت الخير والشر باسمه   وشق لي الله المسامع والفما

ولله تعالى الحمد على أن لم يقع من ذلك الأخ، ما يتوقع منه أن أقول بلساني أو قلمي أخ» اهـ.

وأعتقد أن هذا كاف في بيان خصاله وأدبه وعلمه، فأبدع الأستاذ فيما دوّن ويغني عن إيراد ما قال غيره..

ويهمنا أن نذكر مؤلفاته التاريخية ومن أجلها:

١ ـ **مرآة الزوراء**: وهذا التاريخ[١] جاء ذيلاً على كتاب «دوحة الوزراء» فكان خير تحفة للعراق. ومن المؤسف أنه لم تبق منه إلا أوراق مبعثرة تنبىء عن قدرة. أوردت نصوصها المهمة في تاريخ العراق. وفيها كشف صفحة غامضة من تاريخ قطرنا المحبوب. ونقد ما جاء في «الدوحة» ولا يخلو من مطالعات انتصار للمماليك. ولو كانت وقائعه متسلسلة مطردة لأدى أكبر خدمة لتاريخ العراق. ولا شك أنه احتفظ بلقب مؤرخ العراق لعهد المماليك وما بعده إلى انتهاء وقائعه. وفيه معارضات لتاريخ لطفي وآراء محمد أمين الزندي، مفتي بغداد سابقاً، وهو المعروف بـ (أمين الكهية). حكى الوقائع ونقد ومحّص..

وتهمنا وقائعه في المماليك وفي الوقائع التي بعدهم. وكلها مهمة جداً.

٢ ـ تاريخ الكولات أو تاريخ (الموالى) وهو (كوله من حكومتنك تشكليله انقراضي) أي تاريخ تكوّن المماليك وانقراضهم: وفي هذا ما يصحح بعض الخلل في (مرآة الزوراء) وجاء مختصراً مفيداً طبع باستنبول سنة ١٢٩٢هـ باسم (ثابت) المستعار. وهو ابن الأستاذ سليمان فائق[٢].

٣ ـ **حروب الإيرانيين**: توسع فيها وأفردها في مؤلف خاص وهو مهم ومن مراجع تاريخنا. ومخطوطته عندي كسابقاته[٣].

---

(١) هو «تاريخ بغداد» الذي بين يدي القارئ الكريم.

(٢) نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد نجيب الأرمنازي (السوري) وتم طبعه في «مطبعة المعارف» ببغداد سنة ١٩٦١.

(٣) يقوم أحد الأساتذة بنقله إلى اللغة العربية الآن، وسيقدم للطبع في وقت قريب إن شاء الله.

٤ ـ **المكاتيب المقدسة**: وهذه ترجمها إلى اللغة التركية رداً على المبشرين ذكر فيها الكتابات السياسية والدينية والمخابرات والوثائق الرسمية في عهد ظهور الإسلام والخلفاء الراشدين والتابعين فرد على تقولات أولئك المبشرين.

٥ ـ **رسالتان في المنتفق**: والمهم فيهما ما ذكره من الوقائع المعاصرة مما لم نعثر عليه في كتاب آخر[١].

وله مؤلفات أخرى لا علاقة لها بتاريخ العراق.

هذا وقال الأستاذ السيد أحمد شاكر الآلوسي:

«كان من أكابر رجال عصره ومصره، وله آثار حسنة (وعدد بعضها)... عاش نحو ٩٥ سنة وتوفي في ٧ جمادى الثانية سنة ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٦م ودفن في المسجد الذي عمّره والده بجانب الرصافة من بغداد[٢] وأرّخ وفاته الشيخ محمد سعيد التميمي بقوله من أبيات:

ذاك الذي فلق إيماناً ومعرفة   حتى تشوقه في الخلد رضوان
مذ غاب واحدها نادى مؤرخه   قد حل في رحمة الباري سليمان

هذا ولو لم تكن له الشهرة الذائعة في التاريخ والسياسة والآداب لكفاه فخراً أنه أنجب عدة أنجال قال الأستاذ أحمد شاكر الآلوسي: كل منهم يعد من أكمل الرجال. ومنهم، وهو أوسطهم (محمود شوكت باشا) بطل الحرية، ومحارب المستبدين، وخصم المفسدين...» اهـ.

---

(١) عرب هذه الرسالة الأستاذ محمد خلوصي الناصري وتم طبعها في «مطبعة المعارف» ببغداد سنة ١٩٦١ باسم «تاريخ المنتفق».

(٢) يقع هذا المسجد الصغير خلف بناية(متصرفية لواء بغداد) وقد جدد بناءه السيد حكمة سليمان نجل المؤلف في عام ١٩٥٦ واتخذ طابقه العلوي ديواناً له ومجمعاً لمعارفه وأصدقائه.

وأقول أنه نال الصدارة في الدولة العثمانية ومن أنجال الأستاذ السادة: مراد وخالد وهما من الفضل بمكانة. وصفوتهم وبقيتهم الباقية سيادة الأستاذ الجليل «حكمت سليمان» وهو وارث أخلاق أبيه ومثالها في الفضل والنبل والشهامة، ونجيب الخصال دامت حياته الغالية النافعة للثقافة ولخير الأمة.

بغداد ٩ تشرين الأول ١٩٦٢

عباس العزاوي

عضو المجمع العلمي العراقي



حكمة سليمان

ثامن أنجال صاحب الكتاب سليمان فائق بك
وإليه يرجع الفضل في الإنفاق على ترجمة الكتاب

بغداد تحت الاحتلال الإيراني

بعدما كانت بغداد عاصمة للخلافة العباسية ومركزاً لحكمهم إذا بها تصبح مصداقاً للآية الكريمة: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ وتتدانى منزلتها بعد هجوم المغول عليها وبعد تدميرها من قبلهم. وبسطهم يد الظلم والعدوان في ربوعها.

ومما زاد في خرابها استيلاء طائفة من الأتراك الذين سلب الله منهم الإدراك عليها ثم وقوعها بعد ذلك تحت النير الإيراني.

كل ذلك جعلها تنحط عن تلك المنزلة الرفيعة إلى مستوى المدن السائرة الاعتيادية، وبقيت على هذه الحالة مدة تتراوح بين الستة والسبعة قرون.

السكان يترقبون الفرص:

لقد ظل البغداديون وسكان المدن التي كانت تابعة لبغداد من المسلمين يتململون تحت طائلة هذا البلاء الذي لا قبل لهم بصده، صابرين على ما أصابهم ومنتظرين سنوح الفرص التي يستطيعون أن يكشفوا بها عنهم هذه الغمة ويفصحون عما يجول في صدورهم من الغيظ المكتوم والخنق المكبوت.

وفي حدود سنة ثلاثين وتسعمائة هجم أحد أمراء قبيلة أوصلوا المسمى ذو الفقار خان على بغداد فاحتلها وقتل حاكمها إبراهيم خان واستولى عليها وبذلك أزاح عن أهلها كابوس الإيرانيين الثقيل وضرب النقود باسم السلطان سليمان القانوني، وأمر بأن يذكر اسمه في خطب أئمة المساجد وجعل البلاد العراقية تابعة للسلطان المشار إليه وحماها من عدوان الإيرانيين.

وقد وافق عمله هذا هوى من السلطان إذ كان يتمنى أن ينقذ هذه البلاد وأهلها الذين هم من الأمة المرحومة أمة سيد المرسلين وأن يبسط عليها جناح حمايته ورعايته.

هجوم طهماسب على بغداد واستردادها

ولما كانت الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن فإن الأحداث التي وقعت في العراق وطرقت مسامع الشاه طهماسب بن إسماعيل شاه قد أقضّت مضجعه وراح يترقب الفرص لاسترجاع هذه البلاد، وقد واتته الفرصة فعلاً بانشغال الدولة العثمانية مع دول أوروبا واتجه بقواته نحو بغداد فاحتلها ودمرها بعدما بذل الأموال الطائلة التي استمال بها حتى خدم ذي الفقار إذ انقلبوا عليه وقتلوه.

وحيث قيل ما ثني إلا وقد يثلث فهذا ثالث مدمّر بعد هولاكو وتيمورلنك.

ولما بلغت أخبار هذا الاحتلال مسامع السلطان تولاه الغضب على شاه إيران وما فعله وقرر الهجوم على إيران لضربه وتأديبه كما ضرب أبوه السلطان سليم الأول أبا هذا الشاه المعتدي إسماعيل شاه ضربة قاصمة وألجأه إلى الفرار وإلى أن يلوذ بأطراف الجبال هرباً من السلطان

سليم. كل ذلك قد صمم عليه بعدما تذكر ما حدث على عهد الآباء وراح يستعد لذلك.

فرار الإيرانيين بوجه قوات السلطان

لقد عزم السلطان كما بينا سابقاً على السفر بنفسه نحو البلاد الإيرانية، وقد غادر القسطنطينية فعلاً واتجه عن طريق أذربيجان، وظل يتقدم ويستولي على الديار الإيرانية التي يمر بها بلدة بلدة حتى وصلت قواته إلى دللي عباس[١].

ولما علم الإيرانيون بزحف قوات السلطان وتقدمها أخلوا بغداد وولوا هاربين لا يلوون على شيء وعلى أثرهم دخلت القوات العثمانية بغداد سلماً وبذلك أصبحت من جملة الممالك السلطانية يتولى الحكم فيها وزراء الدولة العلية وأمراؤها.

اندحار حاكم بغداد بوجه الإيرانيين ثم استعادتها على عهد السلطان مراد

لقد أصابت بغداد انتكاسة جديدة على عهد حاكمها بكر صوباشي[٢] إذ اندحر بوجه الإيرانيين الذين هجموا على بغداد مرة أخرى، ولم يقو على الصمود وعادت البلاد مرة أخرى إلى حكم الإيرانيين، وبعد مضي ثماني عشرة سنة استردها السلطان مراد خان ثم تجدد القتال في سبيلها بين الروم[٣] وبين الإيرانيين ووقعت حروب قاسية فيما بينهما سفكت فيها دماء غزيرة وكانت سبباً لخراب البلاد داخلاً وخارجاً، وعمت

---

(١) دللي عباس تسمى اليوم المنصورية وتقع في لواء ديالى. المترجم.

(٢) صوباشي أمر الشرطة. المترجم

(٣) يقصد بالروم الدولة العثمانية. «المترجم»

الفوضى والاضطرابات بين السكان مضافاً إلى هذا تطرق الوهن والضعف إلى الأنظمة والقوانين السلطانية، وانصراف الحكام والأمراء نحو التفكير بأنفسهم والسعي لإطالة مدة بقائهم في الوظيفة وتجنب ما يوجب عزلهم بكل الوسائل. وقد أدت أنانيتهم إلى الغفلة عما يجري من المخالفات، وعدم الاهتمام بشؤون البلاد وترك الأمور تجري على علاتها وإبقاء الحال على ما هو عليه.

كل ذلك دعا إلى قيام رؤساء العشائر وبعض الصعاليك بشق عصا الطاعة وتولى الحكم كيفما يريدون وكل واحد منهم قد اتخذ له منطقة نفوذ حتى أصبحت بغداد وما حولها قطعة من الجحيم.

ثم قيض الله لهذه البلاد من يعيد إليها اطمئنانها وهدوئها ويقيلها من عثرتها، ذلك هو الوالي صاحب الذكر الجميل الذي يحترمه الصغير والكبير فاتح همدان حسن باشا ثم نجله من بعده أحمد باشا إذ توليا إدارة البلاد تحت النفوذ العثماني وحكماها حكماً عادلاً مدة طويلة، اكتسبا خلالها حب السكان وزادا في عمرانها وسعياً في ازدهارها، وبذلك تحسنت حالتها الاقتصادية والعسكرية وانتعشت مصالحها وانتظمت أمورها وانصاع العشائر إلى النظام وتوفرت الواردات في خزانتها، وقد بذل المشار إليهما كل ما يمكن بذله من الجهود المشكورة لإسعاد البلاد والعباد.

وبعد وفاتهما تولى إدارة الحكم ولاة عظماء ساروا على سنة من تقدمهم، وقد وقع اختيار الدولة العثمانية على أحد مماليك أحمد باشا وصهره وهو سليمان باشا فأصدرت أمرها بتعيينه لمنصب الولاية وبرتبة وزير وذلك سنة ١١٦٣هـ وقد كان المشار إليه قبل ذلك يتولى منصب الكتخدا ويتقلّد رتبة الميرميران، وبالنظر لخبرته وتجاربه السابقة فقد بذل

خلت الرقاع من الرخاخ   وتفرزنت فيها البيادق[1]

وقد فقدت البلاد النخبة الصالحة من ذوي الرأي والتدبير، لا سيما أولئك الذين لهم إلمام وإطلاع في تمشية الإدارة والحكم والسيطرة على الأحوال داخلاً وخارجاً، وقد تولى المصالح إرهاط من العرب والأكراد الذين لا خبرة لهم ولا معلومات الأمر الذي زادها هرجاً ومرجاً.

عزل عمر باشا وتعيين مصطفى باشا

بالنظر لما وصلت إليه الحالة من الاضطراب والفوضى داخل بغداد وخارجها فقد مد الإيرانيون أنوفهم وحاولوا انتهاز هذه الفرصة السانحة، وتقدموا نحو محمد باشا وهو أحد المشهورين من أمراء آل بابان وحاكم المقاطعة التي تسمى في زماننا هذا بالسليمانية تقدموا نحوه لجذبه وبذل الوعود المعسولة له والاتفاق معه على احتلال العراق.

ولما علم عمر باشا بهذه المؤامرة وبما يبيته الإيرانيون من النوايا السيئة ضد هذه البلاد، كتب إلى الدولة العثمانية بعلمها بخطورة الأوضاع ويستنجد بها ويستحثها على أن تمده وتشد من أزره بما تتمكن على تجهيزه من الجنود والمعدات العسكرية مالاً ورجالاً، والحف عليها في الطلب ولكنها كانت في واد وهو في واد آخر، ذلك أنها كانت تستريب من تصرفاته وتصرفات بقية المماليك وكانت تفكر في تنحية كل مملوك ـ وهو واحد منهم ـ عن الحكم، وبناء على ما كانت تقوم به من

---

(١) هذا بيت شعر يصف البلاد برقعة الشطرنج وآلاته. (الرقاع) جمع رقعة وهي رقعة الشطرنج. و(الرخاخ) جمع رخ وهو القلعة. و(تفرزنت) صار واحد من البيادق القليل الأهمية فرزناً وهو الذي يعول عليه في اللعب ويضحي بالبيادق في سبيل الحفاظ عليه والمعنى واضح. (المترجم)

مخابرات ومشاورات مع نخبة من رجالها بهذا الموضوع منذ عهد سليمان باشا، فقد أصدرت فرماناً بتنحية عمر باشا وتعيين مصطفى باشا الأسبيناقجي والياً على بغداد بدلاً عنه، وفعلاً وصل المشار إليه إلى هذه الديار، وكانت باكورة أعماله قيامه بقتل عمر باشا غدراً بحجة أنه تردد في تنفيذ ما ورد في الفرمان من وجوب التنحي عن الحكم.

خيانة مصطفى باشا الأسبيناقجي

لم يكن لهذا الرجل أي إلمام بأحوال البلاد العراقية وليست له تلك المقدرة التي تؤهله لإدارتها وقد استولت الأنانية المفرطة عليه فانصرف إلى مصالحه الخاصة ومنافعه الشخصية، وفي الوقت الذي تزايد فيه خطر الإيرانيين على البلاد وأحاطت جيوشهم بمدينة البصرة وحاصروها من جميع أطرافها، أصدر المشار إليه أمراً يقضي بوجوب ترخيص القوات والضباط والأمراء الذين كانوا تحت إدارته وإعادتهم إلى الأمكنة والمحلات التي جلبهم منها، كل ذلك خشية من أن يراقبوه ويطلعوا على سوء إدارته وتصرفاته، وقد كتب إلى المقامات العليا في الدولة يعلمها بأنه لم يعد بحاجة إلى هذه القوات لأن الإيرانيين قد انسحبوا من الحدود ومن البصرة وما حولها وأن الأمور قد عادت إلى مجاريها الطبيعية، وكان هذا خلافاً للواقع.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه شدد النكير على أصحاب عمر باشا وأتباعه وراح يهينهم ويحقرهم بمناسبة وبدون مناسبة الأمر الذي جعل هؤلاء في وضع حرج ولم يعودوا يطمأنون على حياتهم، وقد فر الكتخدا عبد الله آغا نحو العشائر العربية تخلصاً من عنته وجوره ومن مسؤولية الحالة السيئة التي تردت إليها البلاد.

البصرة تنتظر المدد

ظلت البصرة تقارع الحصار ببسالة فائقة، وظل متسلمها سليمان آغا ينتظر المدد والعون من حكومة بغداد ويقاوم ضغط الأعداء الذين يشددون عليه الخناق يوماً بعد يوم منذ أربعة عشر شهراً، ولكنه خارت قواه أخيراً وعجز عن الصمود بوجه الإيرانيين، ولما بلغت الحالة منتهاها وتولاه اليأس من مجيء المدد المطلوب اضطر إلى تسليم البلدة في سبيل إنقاذ أهلها الذين أشرفوا على الهلاك، وقد كتب بذلك إلى أولياء الأمور يعلمهم بهذه النتيجة المؤسفة، وعندئذ فقط انتبه المسؤولون وفزعوا لهذه الأخبار الموحشة وظهر لهم سوء أفعال الوالي وعجزه وعدم لياقته لإدارة دفة الحكم وصدر الفرمان البادشاهي[1] يعزله أولاً ثم نقله إلى ديار بكر وهناك أدين وحكم عليه بالإعدام، ولما كان الجزاء من جنس العمل فقد لقي جزائه بما كسبت يداه وشرب من الكأس التي سقاها لسلفه.

وهكذا يكون مصير الخونة والذين يبتليهم الله بحب الجاه والرئاسة.

هذا وبالنظر لقيام روسيا وأوستراليا باقتحام القرم وسائر الممالك الإسلامية وانشغال الأفكار بهذه الأخبار والملابسات فقد أرجيء النظر في أمر تنحية المماليك عن تولي الإدارة في العراق، وجرى تعيين الكنخدا عبد الله آغا وحسن آغا على التعاقب. ولكن الوضع ازداد حراجة في عهدهما ولم يكونا موفقين في حكمهما وأخذ الناس يتوجسون خيفة من قرب زوال أشعة شمس الدولة العثمانية عن هذه الديار وراحوا يرفعون أكف الضراعة إلى الباري سبحانه وتعالى أن يلطف بهم وينتشلهم من الكوارث التي بدت علاماتها تلوح في الآفاق.

---

(١) البادشاه بمعنى السلطان الأعظم. (المترجم)

انحسار ظل الإيرانيين عن البصرة

كان يحكم إيران خلال تلك الفترة المدعو كريم خان زندي، وكان الأكراد القاطنين على الحدود يتمايلون تارة إلى جانبه وتارة إلى جانب الدولة العثمانية فكان هذا الحال مضافاً إليه الحوادث التي تقع في العراق وتردي الأحوال بصورة عامة كل ذلك قد سوّل لكريم خان وشجعه على المسير قدماً نحو هدفه المقصود، ولذا فقد أخذ يتقدم رويداً رويداً ويستولي على ما حول البصرة من الأمكنة، ثم ازداد طمعه وحرصه وعزم على احتلال بغداد وشهرزور، ومعنى هذا احتلال العراق برمته، ولكن المنية عاجلته واضطربت الأحوال في إيران أكثر مما في العراق الأمر الذي حمل الإيرانيين على سحب قواتهم من البصرة وتخليتها مضطرين لا مختارين وبذلك نجت هذه المدينة من مخالب العدو بدون حرب. كما وأن متسلم البصرة الذي بقي أسيراً في إيران يعاني الآلام كل هذه المدة قد أطلق سراحه وسمح له بالعودة إلى مقر وظيفته في البصرة كما كان سابقاً وقد شفع له القنصل البريطاني المقيم في شيراز لدى الجهتين الإيرانية والعثمانية وحصل على لقب وزير وحاكم على البصرة وما جاورها. وذلك تقديراً لخدماته السابقة وإخلاصه واحتماله الحصار وثباته في البصرة ثم للسلوك الطيب الذي سلكه مع الإيرانيين.

أما بغداد فقد ارتفعت أصوات الشكوى والاستغاثة من سكانها بسبب الفوضى التي سادتها والفساد الذي انتشر فيها والحالة المحزنة التي وصلت إليها بعد هروب حسن باشا منها.

وبالنظر لهذه الحالة فقد أصدرت الدولة العثمانية أمرها بأن يتقلد متسلم البصرة منصب الولاية في بغداد وشهرزور أيضاً وأوصته بوجوب السعي للقضاء على الفتن والفوضى والضرب على أيدي الأشقياء

والمفسدين وأن يعيد الأمور إلى نصابها، وكان تعيينه لهذا المنصب سنة ثلاث وتسعين ومائة بعد الألف.

سليمان باشا يضرب على أيدي المفسدين ويعيد الأمور إلى نصابها

سافر سليمان باشا من البصرة بموكب كبير وظل يقطع المراحل واحدة بعد أخرى حتى اقترب من بغداد فخرج لاستقباله جمع غفير على رأسه إسماعيل آغا وهو أحد الكنخدائية على عهد أبي ليلة سليمان باشا. وكان يمني نفسه بنوال كرسي الوزارة، وكان بصحبة المنوما إليه عدد من الأغوات والمزاحمين الذين لمعت أسماؤهم أيام الفتن والاضطرابات، فلم يكن من الوالي الجديد إلا وأصدر أمره بإعدام الكتخدا الموما إليه في تلك المرحلة قبل وصوله إلى بغداد ثم قبض على الخزنه دار وعلى صاري محمد آغا وصوفي إسماعيل آغا وقره يوسف وستة آخرين من أمثالهم فكانوا بذلك تسعة رهط من الذين كانوا يعيثون في الأرض فساداً ونفاهم إلى البصرة وبعد هذه الإجراءات الفورية قابل القادمين لاستقباله وصافحهم ورحب بهم وأكرم مثواهم وسمح لهم بالسير في ركابه وسار بهم نحو بغداد.

وكان الأمل أن يدخل حاضرة العراق بهذا الموكب غير أن محمد آغا العجمي الذي كان كتخدا للوالي الأسبق عبد الله باشا قد رفع لواء العصيان وجمع له قوة تقدر بعشرة آلاف شقي وقاد حملة العصيان والتمرد بالاتفاق مع الشقي المعروف الذي أذاق البلاد وأهلها صنوف الإيذاء وهو المدعو أحمد آغا بن محمد الخليل، وبالنظر لشبوب هذه الفتنة أقسم الوالي أن لا يدخل مدينة بغداد حتى يقضي على هذه الزمرة

المجرمة، وعبر من جانب (المنطقة)[1] نحو الضفة الثانية ولم يكن في معيته حينئذ سوى أربعة آلاف جندي تقريباً، وقد هجم بهم على ذلك الحشد الكبير المتمرد فكان النصر حليفه وانكسر الخونة المارقون شر انكسار، وقد قتل في المعركة أحمد آغا بن محمد الخليل وبذلك لقي جزائه.

أما محمد آغا فإنه تمكن من الإفلات والنجاة بنفسه واتجه فاراً نحو إيران وقد تبعه عدد ضئيل من أتباعه وتمزق شمل الباقين شذر مذر ولسان حالهم يقول:

وبدلت والدهر ذو تبدل　　　هيفا دبوراً بالصبا والشمال

ولما لم يعد بالإمكان تجمعهم وعودتهم مرة أخرى بعدما تشردوا من مساكنهم وفارقوا أهليهم وأوطانهم فقد هدأت ثائرة الأهليين الذين كانوا قد غادروا مساكنهم وفروا إلى خارج بغداد خوفاً من بطش المتمردين وعادوا إلى ديارهم مطمئنين وعاد الهدوء أيضاً إلى البلاد. وقد شمر الوالي الجديد عن ساعديه واتخذ الترتيبات المقتضية لإصلاح ما أفسدته يد الإهمال، وبعدما زار مواطن عشيرة بني لام متفقداً ومتخذاً ما يقتضي من الإجراءات في تلك الديار وكذلك فعل في خانقين وخراسان[2] توجه عندئذ إلى بغداد فدخلها بموكب حافل وبكل إجلال وإكرام ثم راح يسعى من غير كلل أو ملل لإصلاح الأوضاع وإعادة الأمور إلى مجاريها.

---

(١) المنطقة تقع فوق محلة الجعيفر من الجانب الغربي وهي ما تزال تسمى بهذا الاسم. (المترجم)

(٢) يقصد بخراسان لواء ديالى ومركزه بعقوبة. (المترجم)

وبالنظر للفساد الذي استشرى بين الضباط والجنود المتطوعين والعشائر من جراء أعمال ابن محمد الخليل واعتياد هؤلاء على الخروج عن النظام والطاعة حتى أصبح الأخذ بقيادهم نحو جادة الصواب أصعب من خرط القتاد، فقد رأى الوزير بثاقب بصره أن يعامل هؤلاء بالرفق واللين وأن يتسامح معهم ويعالج عالمهم بالتي هي أحسن، وليمن طالعه كان له ما أراد وانصاعوا إليه صاغرين، لا سيما بعد أن استمال إليه رئيس أقوى قبيلة في ذلك الوقت وهو سليمان بك الشاوي رئيس قبيلة العبيد الذي له نفوذ واسع بين بقية العشائر في الداخل والخارج.

ثم أناط بعض الأعمال والأشغال بكل من يخشى منه إيقاظ الفتنة، وأبدى عطفه على عيال الكتخدا إسماعيل وواساهم بلطفه وكرمه معزياً ومسلياً، وأعاد من المنفى سليمان بك وبذلك أعاد لكل فرد كرامته وارتفعت منزلته في أعين الناس وهابه الصغير والكبير وتركهم بين الخوف والرجاء.

وأخيراً التفت إلى جهاز الحكم فرآه يدار بأيدي جماعة من مماليك سليمان باشا وبقية من منتسبي وأتباع الوزراء وتبين له صعوبة إقصاء هؤلاء أو حملهم على تبديل الخطة التي يسيرون عليها مرة واحدة، ولذلك تريث في أمرهم واشترى ما يزيد على الألف مملوك من الكرج وغيرهم وسعى سعياً حثيثاً في أمر تعليمهم وتثقيفهم وتدريبهم على أساليب وأصول إنجاز المعاملات الرسمية وهيأهم لإدارة مناصب الدولة التي تناط بهم.

ثم طلب من الأستانة عدداً من الانكشارية لتعيينهم بدلاً من الانكشارية المقيمين في العراق إذ أصدر أمره بنقلهم إلى مختلف الأمكنة

في أنحاء العراق مثل الديوانية والسماوة بحجة المحافظة على الأمن ومقاومة القبائل والأفراد الذين يشقون عصا الطاعة.

وهكذا شتت شملهم بلطيف الحيل وعين بأمكنتهم أولئك الذين جلبهم من استانبول ثم اختلق للآخرين مختلف الأسباب التي تبرر معاقبتهم فأعدم بعضهم وشرد البعض الآخر ففروا نحو الشام والحجاز.

ولما أكمل المماليك الجدد تدريبهم قام عندئذ بإخراج القدماء والعجزة من الدوائر الرسمية وعينهم بأمكنتهم ثم أبعد غير المرغوب فيه عن بغداد.

والتفت أيضاً إلى الأعراب والأكراد وحملهم على الخضوع والطاعة ترغيباً وترهيباً، وأقطع بعضهم الأراضي والمقاطعات الزراعية وبذلك استتب الأمن في بغداد وحواليها وانتظمت الأحوال وساد الأمن والنظام.

أحمد آغا والشاوي

كان للوزير المشار إليه سكرتير يقربه إليه ويطلعه على أسرار الدولة ويستشيره في سائر الأمور ويعتمد عليه ويتخذه محل ثقته منذ أن شب وترعرع وهو المهردار[1] أحمد آغا، فأراد الوالي ذات يوم أن يرفع من منزلته ويعينه بوظيفة الكتخدا الشاغرة وقد استشار في ذلك بعض المقربين منه وذكر ما ينوي عمله أمام سليمان بك الشاوي وسأله رأيه، ولكن الشاوي تملكه الحسد ولم يوافق على هذه الفكرة، لأن المهردار الموما إليه لا ينتمي بزعمه إلى أسرة معروفة بالرغم مما يتمتع به من صفات جميلة ومقدرة فائقة وقد حباه الله فوق هذا وذاك شخصية محببة

(١) المهردار بمعنى حامل الأختام لأن الولاة والأمراء كانوا يتخذون لهم أختاماً يذيلون بها كتبهم ورسائلهم ولم يكن التوقيع معروفاً في ذلك الوقت. (المترجم)

إلى النفوس وصورة حسنة وصوتاً رخيماً، وبالرغم من أنه كان يمارس فعلاً وظيفة الكتخدا أيام المماليك وكان مرجعاً لموظفي الدولة كافة. لقد عارض الشاوي تنفيذ هذه الفكرة حسداً منه أولاً ولئلا يكون في يوم من الأيام والياً ويكون الشاوي تحت يده ومن جملة معيته ثانياً.

وهكذا دبت عقارب الغيرة والنفرة بين الشاوي وبين أعداء أحمد آغا، وراحت تتأصل بينهما العداوة وتزداد وتتسع يوماً بعد يوم.

ولما كان كل منهما مقرباً من الوالي فقد حاول المشار إليه أن يزيل ما بين الاثنين من تنافر وجفاء وتوسل بكل الوسائل إلا أنه لم يفلح.

وأخيراً لم يتمكن الشاوي من ضبط نفسه وأخذت تبدر منه بعض البوادر غير المستحسنة حتى في مجلس الوالي وبحضوره لم يراع فيها حرمة المقام، وعندئذ نفر منه وأبعده عن مجلسه، ونظراً لسابق صحبته وصداقته لم يشأ أن يكون قاسياً في معاملته وإنما طلب إليه أن يختار الإقامة في أي مكان يرغب فيه ما عدا بغداد.

فلما خرج من بغداد لم يركن الموما إليه إلى الهدوء والراحة بل قام بتأليب الناس ضد الحكومة، وجمع له جماعة أخذت تقوم بحركات وأعمال تستوجب التأديب وعليه فقد أوعز إلى أحمد آغا أن يذهب على رأس قوة عسكرية لتأديبه وإيقافه عند حده غير أن الشاوي لم يثبت أمام هذه القوة التي كادت تفتك به وبجماعته وتشبث في طلب الصفح عما بدر منه فنال طلبته.

ثم أوعز إليه بالإقامة في «قره أورمان» وأسدلت الحكومة ستاراً على سوء تصرفاته السابقة وجرائمه وأفعاله وأعيدت إليه مقاطعاته وأملاكه

ولكنه هنا أيضاً لم يركن إلى السكينة والهدوء وإنما راح يبث الفتنة والفساد ويحرض الناس على التمرد والعصيان، وأخيراً لقي حتفه على أيدي الأعراب وكان ذلك سنة تسع ومائتين وألف.

أما المهردار أحمد آغا فقد أسندت إليه رتبة الكتخدا وأضيفت إليها رتبة الميرميران تقديراً وترفيعاً وكان ذلك مدعاة لسروره وابتهاجه.

إن هذه المسألة تستدعي النظر والانتباه لأنها تضمنت ثلاث نقاط ينبغي أخذها عظة وعبرة.

النقطة الأولى: أن الإنسان مهما بلغ من علو المنزلة لدى الملوك والوزراء ومهما تفانى في صداقتهم وخدمتهم ينبغي عليه عندما يستشار في أمر أن يتريث في الجواب وأن يجعل البت فيه منوط بهم وأن يكون كلامه على جانب عظيم من الأدب وحسن المجاملة، وأن لا يظهر عليه أي انفعال إن كان ذلك الأمر يمسه من قريب أو بعيد وليعلم أن وقوفه ضد رغباتهم ومحاولته فرض إرادته عليهم يجعله بنظرهم كالغريم أو الشريك في الحكم وهذا من أبغض الأشياء إلى نفوسهم.

والنقطة الثانية: ينبغي على الإنسان العاقل أن لا يحط من قيمة غيره وأن لا يغتر ويشمخ بنسبه وحسبه ويدل بهما على سواه من الناس لكي يتفوق ويرجح عليهم فإن هذه الخصلة بعينها هي التي جعلت الشيطان يتكبر على آدم عليه السلام، فكانت النتيجة هبوطه من مقامه ومنزلته الرفيعة وحرمانه وطرده من رحمة الله.

والنقطة الثالثة: ينبغي على الإنسان أن يراعي واجبات الصداقة وحقوقها وأن يكون وفياً للعهد وأن لا يميل في مثل هذه الأحوال إلى رغبات نفسه الأمارة بالسوء وأن يتجنب هواها ورغائبها وإلا كان الشؤم

حليفه والحرمان مصيره وأخيراً تؤدي به إلى زوال النعمة ووقوعه تحت طائلة الملام والنقمة وهذه هي سنة الله في خلقه.

إن هذا الرجل ونعني به سليمان بك الشاوي قد ارتكب الحالات الثلاث، فلأجل أن لا يكون تحت إمرة وإدارة هذا المهردار الخسيس النسب والأصل بزعمه، أبدى للوالي عدم موافقته وارتياحه من تعيينه لهذا المنصب، ولأجل أن يكون كلامه نافذاً جعله بصيغة الأمر والحكم المشدد ثم مخالفته للعهد والإيمان والصداقة بتحركاته ضد الحكومة فلم يوفق في تصرفاته كلها وكان عاقبة أمره اليأس والحرمان والهلاك.

على أن تقديم سواد الناس وأدنيائهم بسبب ما يتحلون به من صفات حميدة وبسبب ما اكتسبوا من فضل وعرفان وترجيحهم على من يماثلهم أو يتفوق عليهم في الصفات والأخلاق الطيبة من أبناء الأسر المعروفة عمل يعتبر من الأخطاء وفي غير محله.

كما وأن إعهاد الأمور إلى من لا يملك الفضل والخصال الحميدة ولا تأخذه الحمية على وطنه وأمته، وإفساح المجال أمام هذا النوع من الناس بسبب انتمائهم إلى أسر معروفة وتقلدهم أزمة الأمور والمصالح يعد من أكبر العيوب ومن الخيانة للأمة والوطن.

أحمد باشا يقتله المماليك

لقد أصبح أحمد باشا بعد ما نال رتبة الكتخدا وبعدما تقلد وشاح الميرميران من ذوي العز والرفعة والجاه العريض، ومما زاده بسطة وفرحاً وفاة غريمه سليمان بك، ولم يدر بخلد هذا المسكين أن القدر يضمر له ما ليس بالحسبان، ذلك أن الموما إليه بعدما تقلد هذه الرتبة وارتفع إلى ذلك المقام الرفيع استولى على مختلف المصالح والأعمال

وجعلها كلها تحت يده وإدارته، وبذل منتهى جهده لكسب رضاء سيده مما جعله يزداد به ثقة وتعلقاً واعتماداً، إلا أنه بالنظر لتباين الطباع والميول لم يتمكن من كسب رضاء الآخرين، فإن المماليك الجدد التابعين للوالي قد تقدموا في الوظائف واستولى عليهم حب الرئاسة وراحوا ينظرون شزراً إلى أحمد آغا أو أحمد باشا الذي أصبح حجر عثرة أمام تقدمهم، وقد زادهم حسداً ونفوراً منه قيام الوالي باستشارته في أمر تزويج أولى كريماته «خديجة خان» من الخزينة دار علي آغا إذ بين للوالي ما يترتب على هذا الزواج من المحاذير وقد حمله على الانصياع لرأيه وجعله ينصرف عن فكرة تزويج ابنته من علي آغا.

ولما علم علي آغا بأمر الاستشارة وما كان من أحمد باشا؛ ذهب وأخبر رفقائه واستنجد بهم فأضمروا له الشر وأخذوا يتربصون به الدوائر واتفقوا على إزالته من أمامهم.

وذات يوم حضر الكتخدار إلى السراي وأثناء صعوده السلم في طريقه إلى غرفته كالعادة تصدى له علي آغا ورفقاؤه ولا سيما رئيس بائعي التبغ المنسوب للوالي حيث استل سيفه وهجم على الكتخدا فانتهرهم هذا بصوت جهوري لكي يكفوا عن مهاجمته وكان غرضه من رفع صوته أن يسمع الوالي بما وقع له فيسرع لنجدته ولكنهم عاجلوه بالضرب والطعن وقضوا عليه غدراً وظلماً.

أما الوالي فلما سمع صوت كتخداه نهض من مكانه وأسرع في الخروج لمعرفة الخبر ولكن بعض الأصدقاء الذين كانوا في مجلسه حالوا دون خروجه وأعلموه بأن ما وقع وقع ولا فائدة من خروجه في هذا الوقت الحرج وخير له أن يبقى في مكانه. وقد تأثر كثيراً لمصرع

مساعده ومعينه وأمر بإجراء التحقيق وأخيراً عقد مجلساً جمع فيه الانكشارية والضباط على اختلاف رتبهم وعلماء ووجوه البلد للمداولة فيما ينبغي اتخاذه من الإجراءات، وبعد الأخذ والرد قرروا إعدام الخزينة دار المسؤول عن هذه الحادثة. غير أن الظروف لم تكن مؤاتية لتنفيذ هذا القرار لأن المماليك كلهم وقفوا صفاً واحداً يعارضون في تنفيذ العقوبة، وتجمعوا واتفقوا على القيام بالثورة. ولما كان التصدي لتفريق جموعهم يؤدي إلى حصول محذورين الأول أن تقدم البلاد منذ عدة سنوات كان نتيجة جهود هؤلاء المماليك فإذا أبيدوا بسبب هذه الحركة فإن البلاد عندئذ تعود إلى نكستها وتزول منها آثار التقدم والعمران والازدهار، والمحذور الثاني أن هذه الواقعة تنعكس عنها آثار سيئة لدى المقامات العليا في الدولة إذ سوف يعللون وقوعها بضعف الإدارة والعجز عن معالجة الأمور بما يحول دون وقوع أمثالها.

هذا وبالنظر لنفوذ المماليك فإنهم يستطيعون ما لا نهاية له من الاضطرابات في البلد ويستطيعون أيضاً التأثير على رجال الدولة بإسناد منصب الولاية إلى شخص آخر وبذلك تعود الفوضى كما كانت عليه الحال سابقاً.

ولأجل عدم فسح المجال لفتح هذا الباب مال الوالي إلى صرف النظر عن إنزال العقاب بالخزينة دار ثم صدرت الأوامر بتعيين الموما إليه بوظيفة الكتخدا القتيل وفي الوقت نفسه عقد له على خديجة خانم وبذلك أزال الوالي آثار الجفوة التي حصلت بينه وبين المماليك وعادوا إلى حالتهم الطبيعية، كما وأن هذه الترتيبات قد جلبت استحسان محمد بك الشاوي وغيره من الناس وانطفأت بذلك نار الفتنة.

لدى الرجوع إلى كتاب «دوحة الوزراء» لمؤلفه المرحوم رسول أفندي[١] رأيناه يؤكد بأن مقتل أحمد باشا الكتخدا إنما كان بإيعاز من الوالي وبأمره، وأنه لكي يبرر هذا الفعل أسند إلى القتيل بعض المخالفات والأعمال السيئة والنوايا الخبيثة.

والذي نميل إليه إن هذا الرأي لا يستند على الواقع وإنه من تأويلات صاحب الكتاب المذكور لئلا تترتب مسؤولية بعد ذلك على أبناء المماليك، وقد فعل هذا إرضاءاً لداود باشا وتقرباً منه.

إن ما نميل إليه في هذا الصدد قد حققناه من وجوه شتى وقد ثبت ذلك لدينا شخصياً من مختلف الروايات الموثوقة. وإن هذه الحادثة أصبحت بين الناس أشهر من قفا نبك[٢] لدى البغداديين، كما وأن المرحوم الوالد الحاج طالب آغا كان قد سمع بها على الوجه الذي نذهب إليه من أفواه المماليك المقربين من الوالي، وسمعته يروي هذه الحادثة أكثر من مرة، ومما يرويه الثقات أن الوالي لم يبعث إلى الخزينة دار أمر تعيينه بوظيفة الكتخدا على العادة الجارية، وعند أول التقائه به خاطبه بكلام مؤثر يدل على التأنيب وعدم الرضا من عمله. ومما قاله: إنني كنت قد أسست قواعد طيبة لحكم هذه البلاد ولكنك هدمت هذه القواعد وأحدثت بعملك هذا سنة غير حسنة وستلاقي ولا شك جزاء فعلتك هذه.

---

(١) إن هذه الحادثة ذكرها صاحب كتاب دوحة الوزراء. في تاريخ وقائع بغداد الزوراء وهي من حوادث سنة ١٢١٠هـ. (المترجم)

(٢) اشتهرت معلقة امرىء القيس حتى صارت مثلاً بين الناس ومطلع المعلقة المذكورة:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(المترجم)

يضاف إلى ما تقدم أن الوالي كان يزور القتيل في مدفنه بحضرة الشيخ شهاب الدين ويدعو الله أن يسلط على القتلة المعتدين من يعتدي عليهم بمثل ما اعتدوا عليه.

ويظهر أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب دعوته لأنه ولي نعمة القتيل وولي النعمة بمثابة الوالد، ذلك أن كلاً من علي آغا وعبد الله آغا لم يفلتا من العقاب الرباني فقد جلس كل واحد منهما على كرسي الوزارة وتولى كل منهما ولاية بغداد ثم لقيا مصرعهما إذ قتلا شر قتلة وهكذا كان.

والحاصل فإن الموما إليه علي آغا قد تقلّد منصب الكتخدا بمكان أحمد باشا وتزوج من خديجة خانم ونال رتبة الميرميران ولكن سرعان ما ظهر عجزه وتقصيره وعدم لياقته لإدارة دفة الأمور مما اضطر الوالي أن يتولى شخصياً إدارة مصالح الدولة مما سبب انحداره نحو الشيخوخة بسرعة واستولى عليه الضعف والفتور ثم سرى هذا الضعف إلى سائر المصالح كما وقد انفتح أمام المماليك طريق وعر يفضي بهم إلى الهلاك والانقراض، لأنهم لم يعودوا يأمنون بعضهم من بعض.

وبعد مضي ست سنوات من العمل المضني الذي صرفه الوالي المشار إليه في خدمة البلاد توفي بداء المفاصل عن عمر تجاوز حدود الثمانين، وكان ذلك في أوائل شهر ربيع الثاني من سنة سبع عشرة ومائتين بعد الألف.

أضواء على الحالة في العراق

لقد كانت منطقة العراق قبل أن يتولى إدارتها الراحل الذي بينا عنه نبذة فيما تقدم، بحالة سيئة من الفوضى والاضطراب داخلاً وخارجاً

ودامت تلك الحالة عدة سنوات، فقد استولى على القطر العراقي من الخارج ابن محمد خليل العجمي يرافقه المتمرد الكتخدا محمد الذي هو أيضاً من أصل عجمي، وفي الداخل انتشر الشغب وعمت المنازعات بين الناس وتعطلت الأحكام ولم يعد يؤبه بأوامر الولاة ونصائحهم، وانسلب الأمن واختلت الأحوال وصار الضعيف فريسة للقوى وانتشر الظلم وعمت البلوى، وقد عالج الوالي الراحل كل هذه الأوضاع وأزالها، وربط البلاد بعجلة الدولة العثمانية وكان يرسل إليها بالهدايا والتحف ويمدها سنوياً بألف بدرة من النقود أي ما يساوي عشرة آلاف بدرة في وقتنا الحاضر، ومع كل ذلك فقد كثرت الواردات وامتلأت الخزينة العراقية بالأموال التي كانت تجبى من التجار والزراع بالإضافة إلى الموجود من الفضة والذهب والأشياء الثمينة الأخرى.

فلما ارتحل الوالي المشار إليه إلى دار البقاء وحلّ بمكانه الكتخدا علي باشا ورأى الأموال المكدسة في الخزينة اعتبر نفسه كأنه أحد الوارثين ووزع قسماً من تلك الأموال على الناس باسم الخيرات عن الراحل وما هو في الحقيقة إلا من أجل الدعاية، وقد قيل إنه وزع أكثر من ألف قطعة ذهبية، وبعمله هذا وإن كان قد اكتسب شهرة حاتمية بين العوام إلا أن هذه العطايا والهبات تعتبر من باب الإسراف والتبذير الذي لا ترضى به الشريعة الإسلامية، لأن هذه الأموال إنما هي أموال الشعب وليست إرثاً ينصرف بها كيفما يشاء، كما وأن هذه الإنعامات والهبات وإن كانت تعد سنة حسنة إلا أنها ينبغي أن تكون من أموال الراحل الخاصة وأن يقتصر صرفها على ورثته ودائنيه والمستحقين من عياله وأقربائه وتخصيص ما يكفيهم من الإيرادات الدائمة لهذه الأموال لا أن تصرف في سبيل الخداع والدعاية.

ومهما يكن فإن هذه الخيرات وإن كان الراحل يستحقها لتكون له من باب رد المظالم بسبب الأعمال التي قام بها في بداية توليه الحكم، فإنها في الوقت نفسه بمثابة ما يفعله الأطباء عندما يأخذون من دماء المرضى لمنفعتهم ولإعادة الصحة إليهم.

هذا ونسأل الله أن ينعم على الراحل ويشمله بلطفه وعفوه لما قام به من أعمال جليلة، وأن يعلي منزلته في الآخرة كما أعلاها في الدنيا.

لقد ترك الراحل ثلاثة أولاد ذكور وهم سعيد باشا وصادق بك وصالح بك وقد ماتوا قتلاً في تواريخ مختلفة الواحد بعد الآخر وفي هذا عبرة وإن ربك لبالمرصاد.

أن الوالي الراحل لم يكن أول من أتى بالمماليك وأسس لهم كياناً في بغداد وإنما سبقه إلى ذلك الوالي الشهير فاتح همدان حسن باشا ومن بعده ابنه العظيم أحمد باشا.

فمن مماليك ابنه كتخداه وصهره المعروف بأبي ليلة سليمان باشا الذي صار والياً على بغداد والبصرة وشهرزور بعدما تولى متسلمية البصرة وكان قبل ذلك من الذين أعتقهم محمد أفندي آل الربيعي وهو غير سليمان باشا الكبير المشهور.

إن حسن باشا عندما كان والياً على العراق كانت البصرة بعهدة ابنه أحمد باشا وكانت منطقة شهرزور تحت إدارة صهره محمد باشا.

ثم تولى إدارة بغداد والبصرة من بعدهما سليمان باشا أبو ليلة.

أما سليمان باشا الكبير فإنه كان والياً على بغداد والبصرة وشهرزور ثم ضم إليها الموصل وما يليها وامتد حكمه إلى حدود ديار بكر وضم إليه أيضاً ولاية ماردين وكان الولاة في الموصل تحت إدارته وإشرافه.

ولقد كان ولاة الأمور في الدولة العثمانية يرتابون في سلوكه وتصرفاته، وكانوا يزمعون تبديل إدارة البلاد بالشكل الذي يرضيهم ويريحهم، إلا أن قيام روسيا بتحرشاتها وحركاتها ضد الدولة العثمانية من جهة وقيام دولة استريا بطعنها من الخلف وظهور نابليون الذي أخذ يغير خريطة أوربا وانتشار العلل والأمراض في جسم الإمبراطورية من جهة أخرى، كل ذلك حال دون اتخاذ عمل ما تجاه العراق إلى أن تناسوا ما أرادوا أن يفعلوه.

وبعد وفاة المرحوم سليمان باشا على الشكل الذي بيناه سابقاً تولى إدارة البلاد من بعده كتخداه المذكور علي باشا ومن بعده سليمان باشا ثم المتهم الثاني بقتل أحمد باشا عبد الله آغا وأخيراً سعيد بك بن سليمان بك، ومن بعده تولى إدارة البلاد الدفتردار داود باشا.

وسنقوم ببيان تفاصيل ما قام به هؤلاء المماليك وأبناؤهم من خير أو شر للبلاد دون تحيز أو محاباة.

وكما بينا آنفاً تسلم علي باشا الحكم بعد المرحوم سليمان باشا وكان جسوراً ومتسرعاً وشجاعاً وكان الناس يرهبون جانبه، وكان سريع الغضب وقليل الدراية والخبرة في معالجة الأمور، وقد فتح باباً للخصومات والمنازعات بين الأفراد والجماعات مما أعاق تقدم البلاد وجعلها في تقهقر مستمر، وكشف بتصرفاته القناع عن عجز المماليك حيث كان خافياً ومستوراً في عنفوان حكمهم.

تحركات عبد الرحمن باشا ومساندة الإيرانيين له

وفي زمن هذا الوالي هجم عبد الرحمن باشا متصرف السليمانية على محمد باشا متصرف كوي وحرير وقتله ثم رفع راية العصيان على

الحكومة المركزية في بغداد فاضطر الوزير إلى حشد قوة كبيرة والسفر نحو تلك الجهات لتأديبه، وقد انتصر في هذه المعركة التي خاضها بعد وصوله وعين خالد باشا متصرفاً على السليمانية، وبعد عودته جمع عبد الرحمن باشا أتباعه ومن ينتسب إليه وسافر بهم إلى إيران لاجئاً ثم آوى إلى سنه وأقام فيها.

وقد توسطت له الدولة الإيرانية والتمست العفو عنه وإعادته إلى وظيفته غير أن الوالي لم يكترث بهذا الالتماس في بداية الأمر ثم أخذت الدولة الإيرانية تلح في تلبية التماسها وأوفدت لهذه الغاية أحد الخوانين لمواجهة الوزير فلم تنجح الوساطة وعاد الخان مأيوساً فلم يكن من الدولة الإيرانية عندئذ إلا أن حشدت جيشاً عرمرماً وسيرته تحت قيادة أمان الله خان وإلى سنه لاحتلال بغداد كما وأوعزت إلى عبد الرحمن باشا باحتلال مدينة السليمانية، وقد أتى بهذه الأخبار إلى الوالي أحد التجار الإيرانيين بقصد النصيحة ليكون الوزير على بينة من الأمر، فقام هذا على الفور وجمع قواته وأشاع بأنه متجه نحو إيران، وقد تحرك فعلاً وتجاوز الحدود واحتل كرمانشاه التي استسلمت له خوفاً ورهبة.

وقد رأى قبل مواصلة زحفه نحو همدان أن يخبر الدولة العلية بما فعله وبما ينوي القيام به، فكان أن وافاه جوابها القاضي بوجوب العودة فوراً وعدم فسح المجال لتعكير صفو العلاقات بين الدولتين فلم ير بداً من الامتثال والانسحاب.

وكان الوالي قبل ذلك قد سيّر قوة نحو الشمال لمحافظة الثغور والحدود، وقد سارت هذه القوة نحو «سنه» فلما علم عبد الرحمن باشا بالأمر جمع قواته وعسكر بها على الحدود ثم هجم على السليمانية واحتلها ومنع تقدم القوة المذكورة فعرض أمرها على الوالي وطلب إليه

أن يمده بقوة كافية، فما كان من الوالي إلا أن أمده بفرقة عسكرية جعل على رأسها صهره وكتخداه سليمان باشا الذي ركب رأسه وقطع كل ثلاث مراحل بمرحلة واحدة حتى وصل السليمانية وحاول التقدم إلى الأمام ولكن خالد باشا نصحه بوجوب التريث وعدم التسرع في الأمور غير أن الموما إليه لم يأبه بهذه النصيحة وتقدم نحو الحدود فتجاوزها ولما صار وجهاً لوجه أمام القوات الإيرانية هجم عليها دون مراعاة للأوامر التي تلقاها في ذلك الوقت بوجوب العودة استناداً إلى أمر الدولة العلية. ودون اتخاذ العدة والأهبة لخوض المعركة على حسب الفنون العسكرية، فكانت عاقبة طيشه أن انهزمت قواته وأسر معظمها وكان هو من جملة الأسرى.

ولما طرقت هذه الأخبار السيئة مسامع الوالي وكان حينذاك مقيماً في كفرى قام بالاتصال فوراً مع الجهة الإيرانية والتمسها إطلاق سراح الكتخدا وجنوده وإعادتهم إلى الوطن لقاء عفوه عن عبد الرحمن باشا وإعادة تعيينه منصرفاً على السليمانية فتم ذلك وعاد الوالي إلى بغداد.

إن إعادة تعيين عبد الرحمن باشا متصرفاً على السليمانية الواقعة على الحدود بناءاً على وساطة الدولة الإيرانية بسبب كونه من المتنفذين وله عشيرة وأتباع وبسبب أن إعادته تزيل ما حدث من جفاء بين الدولتين وتعيد الأمور إلى نصابها، كل ذلك عمل لا يتفق والأصول الدولية، وعليه فإن إصرار الوالي في بداية الأمر بعدم قبول مقترحات الدولة الإيرانية كان صواباً ولكنه بإقدامه على تخطي الحدود وهجومه على الدولة الإيرانية قد ارتكب خطأً صار به حديث الخاص والعام.

وعلى كل فقد جرت تسوية المسألة بين الطرفين ثم جرى تقسيم القوات على الحدود الكائنة حوالي السليمانية بصورة أصولية ورتبت لهذه

القوات الرواتب والمخصصات لتكون على أهبة الاستعداد لصد هجمات الأعداء عند الحاجة.

ومهما يكن فإن سرعة غضب الوالي وعجلته في الأمور وتهور كتخداه وأسره من قبل الأعداء كل ذلك أوجب إعادة عبد الرحمن باشا إلى السليمانية بالإكراه وتحت حراب الأجنبي.

إن هذه الحادثة السيئة وإن كان المسبب لها حسب الظاهر هو عبد الرحمن باشا إلا أن أساس الفتنة إنما هو الوالي المشار إليه الذي لم يعالج الأمور بالحكمة والتعقل، ذلك أن متصرف «كوي وحرير» القتيل محمد باشا إنما جرى تعيينه بوساطة وسعي وجهود عبد الرحمن باشا وكلاهما كانا من أصحاب الوالي وهو الذي شجعهما بالتحرش بالإيرانيين ولا سيما بالتجار والمسافرين منهم فكانت النتيجة أن قامت الدولة الإيرانية بالاحتجاج ورفع الشكوى ضد تصرفات الحكومات المحلية. كما وأن اليد الطولى في خلق المشاكل وتوسيع شقة الخلاف كانت لمحمد سعيد أفندي آل النائب الذي كان من المقربين إليه وفي الوقت نفسه كان عيناً عليه وكان يرسل الإخبارية تلو الإخبارية إلى استانبول ضد الوالي وكان هذا الوالي الغافل يتلقى التأنيب والكلام الثقيل من المقامات العليا على بعض ما يسمعونه من تصرفاته ويحذرونه من مغبة أعماله وينصحونه بالتزام جادة الحكمة والصواب في أعماله.

وأخيراً وبعد لأي أدرك ما يقوم به سعيد أفندي من خيانة وتملكه الغضب عليه فطرده من الخدمة وجرده من أملاكه وأمواله وألقى به في السجن حيث قضى فيه أكثر من أربعة عشر شهراً وكان مصداقاً للحديث الشريف «من أعان ظالماً على ظلمه سلط الله عليه من يظلمه».

هذا وقد عاد الوالي أخيراً إلى صوابه وراح يمارس الأمور بحكمة

وتعقل وانصرف إلى الإعمار وتشجيع الزراعة والتجارة والصناعة ثم استدعى من أوربا أحد الخبراء الفنيين وهو المسيو باسيف مع جماعة من أمثاله واشترى المعامل لصنع الخام وصنع الأسلحة حيث كانت تنتج في اليوم الواحد اثنتا عشر بندقة مع قاماتها وكانت الحالة الاقتصادية تزدهر وتتقدم يوماً بعد يوم.

ثم اتجه إلى الناحية العسكرية فانتخب عدداً من الضباط المتعلمين وخصصهم لتعليم وتدريب أبناء ورجال المماليك بصورة خاصة، واتخذ من هؤلاء ضباطاً للجيش الاختياري الأهلي فكان لديه ثمانية آلاف جندي من المشاة وعشرة آلاف من الخيالة والمدفعية، غير أن الوالي بعد كل هذا عاد إلى طبيعته وراح يفتك بهذا وذاك لأوهى الأسباب وارتكب جناية القتل أكثر مما كان عليه سابقاً، وكنت أنا من جملة الذين وقع عليهم اعتدائه.

في سنة ١٢٤٨ احتاج الوالي علي باشا مبلغاً من المال لسد بعض النفقات الضرورية وقرر الحصول على هذا المبلغ من التجار والوجوه بصورة فرض وشكل لجنة من أصحابه ومعاونيه لتقدير المبالغ التي تستوفي من كل شخص فكانت حصتي التي يجب أن أدفعها مائة ألف غرش وحيث إن الموجود لدي يقل عن خمسة آلاف غرش فقد قدمت تعهداً بأن أدفع ما تبقى من المبلغ في أقرب فرصة ولو أدى الأمر إلى بيع ما أملكه من عقار وأمتعة. ولكن الوالي لم يقتنع وأرسل إلى داري ما يقرب من العشرة مباشرين واستولوا على مقدار غير قليل من الأثاث والأشياء الثمينة وذهبوا لرهنها لقاء المبلغ المطلوب، ولكنهم أينما ذهبوا لم يجدوا الشخص الذي يرهنها ويدفع لهم ما يريدون من المال، ولما أعياهم الأمر وتعذر عليهم جمع المبلغ اتجه الوالي نحو القنصل

البريطاني الذي كان حينئذ المستر تيلر وأرسل إليه تلك الأشياء لرهنها لديه لقاء دفع القرض الذي يحتاج إليه وبعث إليه رسولاً لاستلام المبلغ المذكور وقبل عودة الرسول من القنصل البريطاني عاد المباشرون يحملون الأموال المذكورة إذ ردها القنصل الموما إليه معتذراً عن رهنها لديه وطلب مهلة لكي يتدارك المبلغ ويقدمه بدون رهن وأرسل ترجمانه إلى الوالي يخبره بذلك، ولكنه بالنظر لإصرار الوالي بوجوب دفع المبلغ ذهباً وحالاً فقد اضطر القنصل إلى تدارك المبلغ وإرساله إليه.

فما كان مني إلا أن بادرت إلى بيع الأشياء المذكورة دون التفات إلى كونها تباع بقيمة تقل كثيراً عن قيمتها الحقيقية ودبرت له المبلغ المذكور ورجوته أن يعيد المبلغ الذي استقرضه من القنصل البريطاني فأعاده عندئذ مع الاعتذار وطلب تسجيل تلك المبالغ ديناً على خزينة الحكومة ولكن لم أحصل عليه إلا بعد عدة سنوات وبعد عدة مراجعات للدولة العلية في الآستانة.

لقد أوردت هذه الحادثة للتدليل على أن الرجل الوطني المخلص لا ينبغي له أن يلتجىء إلى الأجنبي مهما اضطرته الظروف، وإني لأعجب من مثل عبد الرحمن باشا الذي ينتمي إلى أسرة آل بابان التي لها منزلة رفيعة بين الناس والتي يرتقي نسبها إلى خالد بن الوليد ينحدر إلى هذه الدرجة في الالتجاء إلى الأجنبي والسير في ركابه.

غير أن هذا العجب يزول إذا علمنا أن الوالي المشار إليه كان هو السبب في حمل الموما إليه على ركوب هذا المركب الخشن في قبول الالتجاء والارتماء في أحضان الأجنبي وطلب المساعدة منه، وذلك نتيجة لسوء إدارة الوالي المشار إليه وعدم تقديره للأمور.

وعلى كل فقد انتبه المشار إليه إلى أغلاطه وجذب إلى جانبه

عبد الرحمن باشا وأمثاله من ذوي النفوذ والجاه وراح يعالج الأحوال بحكمة وتعقل وسار بالبلاد نحو التقدم بحيث تفوق على ما فعله المرحوم سليمان باشا.

مقتل الوالي علي باشا

وفي صبيحة يوم الإثنين الموافق للرابع عشر من شهر جمادى الآخر سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف بينما كان المشار إليه يؤدي فريضة صلاة الصبح هجم عليه المدعو مدد بيك الذي ينحدر من سلالة أسرة معروفة في «باطوم» وطعنه حتى قضي عليه، وقد ساعده في هذه الجريمة رفيقه مصطفى آغا أباظة.

إن المرحوم وإن كان متهوراً سريع الغضب إلا أنه كان يحب العلماء ويعظمهم ويحترم الصالحين والأولياء وكان جواداً كريماً وحافظاً للكلام القديم.

الأسباب التي أدت إلى قتل الوالي والأحداث التي وقعت بعد ذلك

لقد كان القاتل من ذوي السلوك الحسن ومن الذين لهم صفحة بيضاء في أعمالهم وتصرفاتهم، وأن الوالي المرحوم لهذه الاعتبارات ولكونه من أسرة معروفة في «باطوم» قد قدمه وشمله برعايته واعتبره كأحد أبنائه ولكنه من جهة ثانية كان قد منعه من الاختلاط بالمدعو مصطفى آغا أباظة وأمثاله من قرناء السوء غير أن هذا المنع صب في قالب آخر وراح مصطفى آغا أباظة يبث قالة السوء ضد الوالي، ولقد كان هذا الإنسان من الشبان الطائشين الذين يندفعون بدون تفكير وبدون روية، وقد شجعه على هذا التصرف الكتخدا الثالث نصيف آغا لما كان

بينه وبين المرحوم من تنافر ولأن الموما إليه كان يطمع في تولي الحكم بالسرعة المستطاعة.

وأخيراً اتفق هؤلاء الثلاثة على الغدر بالوالي وإنهاء حياته ولكنهم لم ينجوا بعد ذلك من القصاص الشرعي الذي أوقعه فيهم خلفه بالوكالة وذلك بإعدامهم كلهم.

إسناد منصب الولاية إلى ضياء يوسف ثم إلى سليمان باشا

بعد وفاة الوالي المشار إليه تقرر في بادىء الأمر إعهاد منصب الولاية العراقية إلى أحد الوزراء المشاهير فاتح مصر الصدر الأسبق ضياء يوسف باشا، غير أن الاضطرابات والفوضى التي كانت قد حدثت بعد عمر باشا قد حالت دون إصدار الأوامر بذلك ثم أسند بعدئذ كرسي الولاية إلى سليمان باشا مع مرتبة وزير.

سليمان باشا يتبع طريقة السلفية ويحاول الاستقلال بالبلاد

أما سليمان باشا الوزير الجديد فكان على جانب كبير من دماثة الخلق وقد سار في حكمه سيرة حسنة وتمسك بأهداب العدل والحلم والكرم ولكنه كان فتى غراً عاش في أكناف خاله علي باشا ولا يعرف شيئاً من تصاريف الزمان وانقلاباته ودورانه وعلى الرغم من تعيينه لأول مرة بمنصب الكتخدا لعلي باشا فقد انتفخ غروراً بعد تسلمه كرسي الوزارة وشمخ بأنفه وتملكه الزهو والكبر والإعجاب بنفسه كأنما هو فاتح بغداد، وسرعان ما اتهمه الناس بالأعوجاج والانحراف، وبميله إلى المذهب الوهابي مع أنه كان سلفي الاعتقاد.

والواقع أن معظم العلماء الأعلام كانوا يميلون إلى السلفية ويعتبرونها الطريقة المستقيمة، فإنهم مثلاً يفسرون قوله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى

ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ بأن الاستواء معلوم والكيفية مجهولة، وأنه استواء يليق بذاته عز وجل، أي أن الله سبحانه وتعالى استوى على العرش، ولكن كيفية الاستواء مجهولة وأنه استوى بالشكل الذي يليق بذاته.

أما الخلف الكرام فإنهم يقولون إن الاستواء معناه الاستيلاء كما جاء في قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق   من غير حرب ودم مهراق

والحاصل فإن المسائل التي وقع فيها الخلاف بين السلف والخلف معلومة ومفصلة في كتبهم.

محاولة السعوديين تأسيس دولة عربية تضم العراق وسوريا والحجاز

ولقد كان مذهب الوهابيين لا يختلف عن مذهب السلف ولكنهم انحرفوا عن الاستقامة بتعصبهم فكانوا محل طعن وذم من قبل الفرق الأخرى.

فمن جملة تعصبهم أن أمير نجد المدعو سعود حاول أن يمزق وحدة الأمة الإسلامية بالسعي لتكوين دولة عربية مستقلة تضم العراق والحجاز والشام ويكون هو الملك عليها.

وقبل أن يقدم ابن سعود على تنفيذ هذه الفكرة تصدى له والي مصر المشهور محمد علي باشا وقمعاً للفتنة أو تقرباً من السلطان محمود خان الثاني على ما يبدو، أو خدمة لمآربه ومقاصده الخفية في الحقيقة، هجم على السعوديين ونكل بهم.

وعلى ذلك المنوال حاول سليمان باشا أن يقتفي أثر الوهابيين وأن يخالف منهج الدولة العلية فقام أول ما قام به إلغاء بعض الضرائب

والرسوم التي كانت تجبى سابقاً باسم «الحسبة» أي رسم الاحتساب والخدمة المباشرة وما أشبه، إذ كانت هذه الرسوم تستحصل طوعاً أو كرهاً وفي حالة امتناع المسؤول عن دفعها يسفك دمه وتصادر أمواله، وقد اعتبر المشار إليه استيفائها ليس له وجه شرعي، ثم أراد أن يجرب حظه بالهجوم على سنجار لتأديب العصاة ومن هناك اتجه غرباً لتأديب عشائر الظفير التي تقطن قرب مدينة الرقة[١].

وقد أعد العدة وكوّن له جيشاً كبيراً جهزه بمختلف الأسلحة والمعدات وسافر على رأسه، وراح يغير في طريقه على المدن والقرى التابعة لولاية ديار بكر ويتدخل في شؤون تلك الأطراف ولكن لم يظفر بشيء وعاد يائساً.

الدولة العثمانية تغضب على سليمان باشا وتتخذ بحقه إجراءات صارمة

إن قيام الوالي المشار إليه بتجاوز الحدود والتعرض بالمناطق الأخرى دون سبب قد أدى إلى غضب الدولة العثمانية وإلى النظر إليه من قبلها بعين الارتياب ولا سيما وأن المشار إليه لم يف للدولة بتعهده لها في دفع الخمسة آلاف بدرة المقرر دفعها إلى خزينة الدولة، وكذلك لم يرسل ما بذمة سلفه علي باشا من المبلغ بالرغم من أنه وضع يده على مخلفاته. وعلى هذا فقد تقرر إنذاره أولاً بوجوب تأدية هذه المبالغ فإن امتنع يعزل وينصب بمكانه أحد مشاهير البلد، وقد أوفدت الدولة أحد رجالها إلى بغداد لهذا الغرض وهو رئيس الكتاب السابق حالت أفندي.

---

(١) الرقة بلدة سورية تقع في أعالي الفرات وإليها ينسب الرقي وهو البطيخ الأحمر. (المترجم)

لقد كان الواجب يقضي على الوالي أن يدفع ما عليه من المبالغ المذكورة ويعيد حالت أفندي معززاً محترماً باعتباره مبعوث الدولة العلية ولكنه انتفخت أوداجه غروراً وامتنع من تلبية الأوامر بالرغم من الالتماسات والرفق والملاينة والنصائح التي أسداها إليه المندوب الموما إليه، وقد اتخذ الوالي بعد المسافة بين بغداد والأستانة ذريعة للمماطلة في دفع المبلغ المطلوب. ولما يئس المبعوث من رضوخ الوالي وانصياعه قرر العودة إلى الآستانة دون أن يبدو عليه أي انفعال أو امتعاض.

وفعلاً سافر الموما إليه عن طريق «الموصل» وهناك اجتمع بمتصرفها محمود باشا آل عبد الجليل ومتصرف السليمانية عبد الرحمن باشا وكثيراً من الأمراء والمشايخ العراقيين، وأطلعهم على المهمة التي جاء من أجلها، واتخذوا قراراً بتعيين أحد المماليك وهو الخزينة دار السابق عبد الله آغا الذي كان قد فر من وجه الوالي نحو السليمانية والياً على بغداد بالوكالة. وسار الجميع نحو بغداد على رأس قوة تقدر بخمسة عشر ألف مقاتل.

الوالي يعلن العصيان فتهاجمه القوات الزاحفة برئاسة عبد الرحمن باشا وحالت أفندي وتقضي عليه

إن الوالي المشار إليه على الرغم من تأزم الحالة وسماعه بزحف هذه القوات نحوه فقد قرر الصمود بوجهها وامتنع نهائياً عن الرضوخ، وجمع كل ما لديه من قوات وخرج بها من البلدة وتلاقى الجمعان واصطدمت القوتان ووقعت بينهما حرب شديدة ولكن قوات الوالي انسحبت فجأة وتفرقت، واتجه كل فريق إلى جهة من الجهات، الأمر الذي أربكه وحيّره ثم اضطرته الحالة إلى أن ينسحب هو أيضاً وأن يفرّ

من الميدان ويتجه نحو نهر ديالى وليس معه سوى خمسة عشر نفراً وفي طريقه تصدى له بعض أفراد عشيرة الدفاعي وقتلوه غدراً وكان عمره آنذاك في حدود الخمس والعشرين سنة وكان مقتله في اليوم العاشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٢٢٥هـ.

هذا وبالنظر لما أعرفه أن المشار إليه كان منذ عهد سليمان باشا حتى أيام داوود باشا من أكثر الولاة ذكاءاً وفطنة وديانة، محباً للخير وماحياً للبدع، ومسالماً ومتسامحاً وكريماً، ولكنه مع شديد الأسف كان غير ملم بطبيعة الحكم وإدارة البلاد وقد آتاه الحظ والإقبال وهو في عنفوان شبابه وكان قد ابتلى بجماعة من قرناء السوء حيث التفوا حوله وهم الذين أوردوه هذا المورد وقد سجل اسمه من قبل الدولة العلية كأحد الذين أعلنوا العصيان والتمرد رحمه الله.

تعيين عبد الله آغا والياً على العراق

بعد انتشار خبر وفاة الوالي بين المماليك تقدموا هم وجمع غفير من الأهليين والانكشارية باقتراح إلى حالت أفندي حول إعهاد ولاية العراق إلى سعيد أفندي بن سليمان باشا بالوكالة.

ولكن عبد الرحمن باشا الذي كان من مؤازري عبد الله آغا عارض هذا الاقتراح وتمكن من إقناع رؤساء المماليك وغيرهم بجعل عبد الله آغا والياً مع إبقاء سعيد أفندي مرشحاً للوكالة في الحال الحاضر.

وهكذا دخل عبد الله آغا بغداد معززاً ومكرماً واستولى على كرسي الولاية وباشر أعماله.

وقد نصره عبد الرحمن باشا بأمواله ورجاله وإليه يرجع الفضل في إيصاله إلى هذه المنزلة كما وأنه مهد له الأمور مع الإيرانيين ومع

الإنكشارية وجعل تشبثات سعيد بك لتولي الولاية تبوء بالخسران ولا سيما وأن المماليك قد ضعف أمرهم في ذلك الوقت وانحاز معظمهم إلى جانب عبد الرحمن باشا.

ثم نظموا مضبطة وقعها جمع من الأعيان والعلماء والوجوه بصدد ترشيح عبد الله آغا لولاية بغداد وقدموها إلى المقامات العليا في الدولة بواسطة حالت أفندي الذي أنهى مهمته على الوجه المطلوب ولكي لا يحدث انشقاق أو فتنة فيما إذا بقي في بغداد أكثر من هذه المدة فقد ذهب إليه المحضر باشي وأخبره بأن العلماء والوجوه والأعيان يلتمسون منه أن يعود إلى الأستانة ولا سيما وأن المهمة التي جاء من أجلها قد انتهت، وإن مكوثه بعد الآن لا يخلو من محاذير.

وبما أن الفرمان القاضي بتعيين عبد الله آغا والياً على بغداد مع رتبة وزير فقد اضطر الموما إليه إلى التأخر بضعة أيام لحضور الاحتفالات التي تجري عادة في مثل هذه المناسبات ولاستيفاء المبالغ التي وعد بدفعها عبد الرحمن باشا ولكن الوالي المشار إليه قام بدفع تلك المبالغ وبزيادة نيابة عن عبد الرحمن باشا وعندئذ عاد حالت أفندي بكل سرور وامتنان.

عبد الرحمن باشا يحاول الاستيلاء على العراق

خلال عودة حالت أفندي يائساً من بغداد على عهد الوالي السابق سليمان باشا، اتصل به عبد الرحمن باشا متصرف السليمانية وتعهد له بأن يدفع إلى خزينة الدولة سنوياً خمسة آلاف بدرة فيما إذا أسندت إليه الدولة رتبة الولاية على بغداد والبصرة وشهرزور.

وقد أرسل حالت أفندي هذا الاقتراح والتعهد إلى الآستانة صحبة

أحد الأغوات الذين يعتمد عليهم، وخلال مكوث حالت أفندي في هذه الديار كان رجال الدولة في الآستانة قد استشاروه في هذا الصدد، فكان جوابه أن هذا المبلغ يستوفي اعتيادياً من ولاة بغداد، وأن إسناد هذا المنصب إلى عبد الرحمن باشا مما يثير حنق المماليك ويؤدي إلى سفك الدماء، وإلى فتن واضطرابات لا نهاية لها، وأخيراً يلقي بالبلاد في أحضان الأجانب وعلى الأخص الإيرانيين لميل اليابانيين إلى هؤلاء.

وقد رأيت هذا التقرير في الآستانة شخصياً وكان محرراً بخط يد حالت أفندي.

والحق أن وجهة نظر حالت أفندي كانت مصيبة وحكيمة، ولو صرفنا النظر عن المبالغ النقدية والفوائد المادية، فإن تمايل اليابانيين إلى إيران أمر واضح لا غبار عليه.

ولو رجعنا إلى حوادث سنة ١٢٥٠ لوجدنا أن تحرشات الإيرانيين بلواء السليمانية كانت مستمرة، وأن المرحوم سليمان باشا لم يترك وسيلة إلا اتخذها في سبيل تقليم أظافر الإيرانيين وإزالة طمعهم بهذه المنطقة، وكذلك اتخذ ما يقتضي من الإجراءات لمنع ميلان عبد الرحمن باشا وأبنائه وأحفاده نحو إيران. كما وأن المذاكرات التي جرت في «أرضروم» حول الأراضي المتنازع عليها بين الدولة العثمانية وبين إيران أسفرت عن اتفاق الطرفين باعتبار تلك المنطقة من أملاك الدولة العثمانية وقد صودق على الاتفاق المذكور من قبل قوميسري الحدود.

إن تشبثات عبد الرحمن باشا وملاحقته لحالت أفندي بهذه الصور لم تثمر شيئاً بل أوقعته في مشكلة أخرى تجاه الدولة الإيرانية ذلك لأن حالت أفندي لا يسعه أن يخدع دولته وهو المخلص الأمين. فمنذ سنة

تسعين كان أشراف آل بابان يتصرفون تصرف المالك بملكه في منطقة سورداش فلما سمع الإيرانيون بتشبثات عبد الرحمن باشا قاموا وطالبوا بهذه المنطقة لأنها بزعمهم من ملحقات «صاووق بولاق» منذ القديم، وأوعزوا إلى حاكم صاووق بولاق بضم تلك المنطقة إليه، وأرسل شاه إيران وهو في ذلك الوقت فتح علي شاه قوة عسكرية لاحتلالها.

وبناءاً على التماس عبد الرحمن باشا جرى تعيين متصرف بابان السابق خالد باشا متصرفاً على درنة وباجلان.

أما عزيز بك بن عبد الفتاح باشا فقد التجأ إلى الشهزادة محمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه وتوابعها وقبل التماسه في تولي المنطقة المذكورة من قبل والده عبد الفتاح باشا كسباً لصداقته، ولما أخبر عبد الرحمن باشا بهذه الترتيبات لم يوافق عليها وحال دون تنفيذها الأمر الذي أوقع بينهما فتوراً في العلاقات.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن تصرفات عبد الرحمن باشا لم تنل موافقة الوالي وطلب إليه أن ينصرف عن مثل هذه التشبثات وعلى هذا فقد وقع عبد الرحمن باشا في حيص بيص، فالوالي عبد الله وهو مرجعه الحقيقي لم يوافق على أعماله وكذلك حاكم كرمنشاه الشهزادة محمد علي ميرزا، فيكون بتصرفاته والحالة هذه قد خالف أوامر الجهتين واضطر الشاهزادة بعد المداولة مع فتح علي شاه إلى تجهيز قوة عسكرية مقدارها حوالي الستين ألف جندي وسيرها من كرمنشاه وأصدر أمراً بتعيين خالد باشا متصرفاً على السليمانية.

ولما علم عبد الرحمن باشا بالأمر أرسل مقداراً من القوات تحت قيادة ابنه سليمان بك إلى خالد باشا ظناً منه أنه من حلفائه وكتب إليه أن

يقاوم قوات الشاهزادة ويبادئها القتال. ولكن خالد باشا بإيعاز من والي بغداد عبد الله باشا خرج لاستقبال الإيرانيين والترحيب بهم، وعندئذ امتعض عبد الرحمن باشا وانكمش ثم جمع أتباعه وعياله واتجه بهم نحو كوى وحرير وتحصن هناك واستعد للدفاع والمقاومة مهما كلفه الأمر.

أما الشاهزادة فقد تقدم بقواته واندفع في أثر عبد الرحمن وحاصره من كل الجهات وأخذ يضيق عليه الخناق لكي يضطره إلى التسليم.

الوالي يصدر منشوراً إلى السكان يحثهم فيه على معاونة عبد الرحمن باشا لصد الإيرانيين وطردهم من البلاد

نظراً لمحاصرة عبد الرحمن باشا في كوى وحرير فقد أصدر الوالي عبد الله باشا أمراً بتعيين خالد باشا متصرفاً على السليمانية. غير أن الوساوس قد استولت عليه وراح يفكر فيما ستؤدي إليه الحالة إذا تغلب الشاهزادة على عبد الرحمن باشا وتقدم من هناك، وبعد المداولة مع ذوي الرأي أظهر ندمه على ما فعل وأصدر منشوره الآنف الذكر إلى أهالي كردستان كافة يهيب بهم إلى النهوض ومعاونة عبد الرحمن باشا في سبيل دحر الأعداء وإعادتهم إلى داخل حدودهم.

كان الشاهزادة في ذلك الوقت يكاد يطبق بقواته التي تبلغ الستين ألفاً على المواقع التي اتخذها عبد الرحمن باشا ومن معه. وكان الباشا يزداد حمية وحماساً ويلتهب شجاعة وإقداماً كلما ضيق عليه الإيرانيون، وأخيراً قرر الخروج من المواقع والتحصينات والهجوم على الأعداء هجمة حيدرية، وفيما هو يدفع بالقوات الإيرانية إلى الوراء ويزحزحها عن مواقعها أتاه بعض أتباعه بنسخة من منشور الوالي وبعدما اطلع عليه

أرسله بدوره إلى الشاهزادة وأعلمه بأنه إذا لم ينسحب فسوف تهب البلاد عن بكرة أبيها للدفاع عن الوطن.

وبناءاً على هذا فقد رأى الشاهزادة أن موقفه أصبح حرجاً ورأى أن لا مناص له والحالة هذه من النكوص والعودة من حيث أتى قبل أن تتفاقم الأمور وينقلب انتصاره إلى خذلان وخسران.

وقبل تراجعه أصدر أمراً من قبيل ـ وهب الأمير ما لا يملك ـ يقضي بتعيين عبد الرحمن باشا حاكماً على السليمانية وكوى وحرير ورجع عن طريق السليمانية إلى إيران.

الوالي يتنكر ثانية لعبد الرحمن باشا

أما خالد باشا فلما علم بما تم، تولاه الاندهاش من هذه التصرفات ولم يتمالك نفسه وسافر من يومه إلى منديج ومن هناك إلى بغداد وعرض تفاصيل الحالة على الوالي فما كان من هذا إلا أن قرر السفر فوراً إلى تلك الجهات على رأس قوة كبيرة لمعالجة الأوضاع وإعادة الأمور إلى حالتها الطبيعية، وخلال ذلك كتب عبد الرحمن باشا يعلم الوالي بما جرى وينتظر أوامره وتعليماته في دخول السليمانية. ولما كان الشتاء على الأبواب والسفر إلى تلك الجهات من الصعوبة بمكان فقد وافق على إصدار الأمر بإعادة تعيين عبد الرحمن باشا متصرفاً على السليمانية وكوى وحرير وخوله دخول السليمانية.

وبعد مضي بضعة أشهر عاد وأصدر أمراً بتعيين خالد باشا متصرفاً على السليمانية وعين متصرفاً آخر من أشراف آل بابان وهو سليمان باشا على كوى وحرير، وبعد إرسال هذه الأوامر تحرك على رأس قوة عسكرية ليقوم بعمل حاسم ضد عبد الرحمن باشا، ولكن عبد الرحمن

باشا لم يكن غافلاً عن كيد الوالي وسوء نواياه وقام حال تلقيه هذا الخبر بجمع كل ما تحت إدارته من قوات وعشائر وتابعين وسار على رأسهم نحو بغداد لمقابلة الوالي وإيقافه عند حده.

وفي بلدة كفرى التي تقع في منتصف الطريق بين السليمانية وبغداد تقابل الجيشان وهجم كل منهما على الآخر وقامت الحرب بينهما على قدم وساق ثم هجم عبد الرحمن باشا وفرسانه الشجعان الفدائيين على مدفعية الحكومة فزحزحوها عن مواقعها ودحروا الميمنة والميسرة ولم يبالوا بما كان ينهال عليهم من قنابل المدفعية ورصاص البنادق وانحسرت المعركة عن انخذال جيوش الحكومة وفرارها نحو الخطوط النهائية بعدما تكبدت خسائر فادحة بالنسبة لخسائر قوات عبد الرحمن باشا.

في الوقت الذي كان عبد الرحمن باشا وجنوده يطاردون قوات الحكومة وكانوا قاب قوسين من الانتصار عليها، وفي الوقت الذي بدأت تلك القوات ـ عدا المماليك ـ تفكر في طريقة للفرار، برز من بين الصفوف داود أفندي الذي تعود على خوض المعارك عندما كان بوظيفة كتخدا للوالي السابق سليمان باشا واتجه نحو المماليك وأخذ يبعث فيهم روح الحمية والحماس ويشجعهم، ويقول لهم إن الناس كانوا وما يزالون تبعاً لكم فمن العار أن تكونوا تابعين لغيركم، إنكم أولاد وأحفاد أولئك المماليك العراقيين الشجعان فلا تكونوا بعد كل تلك المفاخر خداماً للبابانيين.

بمثل هذه الكلمات أوقد نار الحماس والعزم في قلوبهم ثم اندفع أمامهم إلى ميدان القتال بضراوة وبدون اكتراث لما يصيبه من مخاطر، ولما رأت قوات المماليك ما فعله داود باشا صدمة عنيفة، وبالرغم مما

اشتهر به الأكراد من شجاعة وبسالة فإنهم لم يستطيعوا الصمود بوجه المماليك ووقع الكثير منهم ما بين قتيل وجريح واعتراهم الفزع والانذهال، ومع منتهى ما بذلوه من جلادة واحتمال وثبات في المعركة فلم يعودوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، وعندئذ ونزولاً على المثل المشهور «الفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء» وانسحبوا من المعركة مخذولين مدحورين، ولما رأى عبد الرحمن باشا ما حل بقواته اضطر هو أيضاً إلى الفرار في أعقابهم.

التجاء عبد الرحمن باشا مرة أخرى إلى الإيرانيين وفرار سعيد بك بن الوالي السابق من بغداد ملتجأ إلى عشائر المنتفك

لقد تمكن خالد باشا من السيطرة على السليمانية واستحكم فيها ولم يبق طريق مفتوح بوجه عبد الرحمن باشا إلا إذا التجأ ثانية إلى الشهزادة محمد علي ميرزا وهكذا فعل. أما الإيرانيون فلما كان من سياستهم إيقاع الخلاف بين أبناء هذا البلد على عادتهم المعروفة فقد آووه عندهم وتوسط له الشهزادة لدى الحكومة العراقية للعفو عنه ولإعادته إلى منصبه أي متصرفاً على السليمانية (لا حباً بعلي بل بغضاً لمعاوية)، وكانت النتيجة كما أسلفنا وهي رد هذا الالتماس وإعادة الوسيط الذي أوفده الشهزادة إلى الوالي خائباً.

وبينما كان الشهزادة يستعد للقيام بعمل عسكري لتنفيذ مراده بالقوة وكان الوالي أيضاً يستعد لمقابلته ومقاومته إذ هرب سعيد بك ابن الوالي السابق سليمان باشا من بغداد والتجأ إلى شيخ المنتفق خوفاً على نفسه من بطش الوالي، ذلك لأن الذين يتصيدون بالماء العكر قد أوغروا صدره وخوفوه من غدر الوالي وحبذوا له الفرار من بغداد للحفاظ على حياته على الأقل.

ولقد كان لفراره على هذه الشاكلة وقع شديد الأثر على الوالي واعتبر ذلك مفاجأة بالنسبة له واضطر إلى تأخير تسفير الحملة العسكرية نحو الحدود الإيرانية لكبح جماح الشهزادة، وقرر توجيه تلك الحملة إلى المنتفق تحت قيادته لإرغام سعيد بك على العودة طوعاً أو كرهاً. وبناءاً على هذا اضطر إلى الموافقة على ما طلبه الشهزادة بإعادة عبد الرحمن باشا إلى متصرفية السليمانية بعد العفو عنه، وليس هذا فقط بل ألحق به إدارة كوى وحرير وتعهد للشهزادة بدفع المبلغ الذي أراده تعويضاً وترضية وقد بادر بدفع قسم من ذلك المبلغ نقداً وتعهد بدفع الباقي، وعندئذ رجع الشهزادة بقواته نحو بلاده.

ولما فرغ الوالي من حل هذه المشكلة على تلك الصورة توجه بحملته نحو المنتفق.

أما سعيد بك فقد صرح أنه إنما التجأ إلى المنتفق خوفاً على نفسه من بطش الوالي وأنه تأكد من سوء نية الموما إليه ضده من كثير من المخلصين لوالده من المماليك والمقربين وأنه بهذا الالتجاء لم يفكر ولن يفكر في القيام بأي عمل أو مخالفة ضد الحكومة وأنه يلتمس من الوالي أن يسمح له بالإقامة في هذه الربوع لكي يعيش بأمان واطمئنان.

غير أن الوالي لم يوافق على إجابة ملتمسه وأصر على وجوب عودته إلى بغداد وإلا فإنه سيأتي به بالقوة.

مقتل الوالي عبد الله باشا

ولأجل حسم النزاع وعدم تطوره إلى ما يخشى حدوثه من العواقب السيئة فقد توسط بينهما كثير من الوجهاء ومحبي الخير ولكن الوالي بقي مصراً على فكرته ولم يفد معه أي التماس أو رجاء، وتوسط أيضاً شيخ

عشائر المنتفق حمود الثامر وكرر التماسه عدة مرات طالباً العفو عن سعيد بك والسماح له بالإقامة هناك ولو موقتاً فلم تثمر كل هذه المساعي المثمرة المرجوة لدى الوالي، وأخيراً كتب له الشيخ المذكور يعلمه أن لأبي سعيد بك فضلاً عليه وأنه لا يسعه إلا حمايته وعدم تسليمه مطلقاً حتى وإن أدى ذلك إلى فناء العشيرة برمتها، وقد كرر هذا المعنى في كتبه التي وجهها إلى الوالي تصريحاً وتلويحاً وأخبره أن الشيم والأخلاق العربية توجب عليه حماية اللاجئين حتى الناس العاديين فكيف إذا كان اللاجىء ابن الوالي السابق الذي له عليه أيادي بيضاء لا يمكن كفرانها أو نكرانها.

ومع كل هذه التشبثات ظل الوالي على إصراره وعناده ومن سوء طالعه كان هناك شخص يغذي هذا العناد والإصرار ويوغر صدره بالإصرار وهو الكتخدا طاهر آغا الذي كان مملوكاً للمرحوم سليمان باشا والد سعيد بك إذ كفر بنعمة سيده وراح يسعى للإيقاع بابنه بتحريض الوالي وتشجيعه على المضي في تنفيذ مقصده.

ولما تلاقى الجيشان جيش الوالي وجيش العشائر انحاز جمع غير من قوات الحكومة إلى جانب سعيد بك حباً به واحتراماً لأبيه المرحوم واضطربت بقية القوات، وعندئذ سقط في يد عبد الله باشا وأشرف على الخذلان لما حدث من انشقاق في صفوفه وفي ذلك الوقت فقط أمر قواته بالعودة إلى بغداد، وفي طريقه تصدى له أخو حمود وهو المدعو محمد وطلب إليه النزول عنده والمكوث هناك بضعة أيام وعلى أثر نزول الوالي وقواته هجم عليه بعض الأعراب وقتلوه وقتلوا أيضاً الكتخدا طاهر آغا وكان ذلك في أوائل سنة ثماني عشرة ومائتين بعد الألف.

إن الوالي عبد الله باشا كان من مماليك سليمان باشا والد سعيد

بك، وكان هو والوالي الأسبق علي باشا أباظة قد تواطئا وقتلا الكتخدا أحمد باشا.

ومهما يكن فإن الوالي المرحوم كان كريماً جواداً ولكنه كان ميالاً إلى الغدر والوقيعة والفتك حتى بأصحابه وكان الحقد والجهل من أبرز صفاته تجاوز الله عن سيئاته.

تنصيب سعيد بك والياً بالوكالة

بعد مقتل الوالي عبد الله باشا على الوجه الذي بيناه آنفاً اتفق الجميع على تنصيب سعيد بك على كرسي الولاية بالوكالة، ونظموا عريضة بذلك ورفعوها إلى السلطان يلتمسونه إصدار فرمان بتعيينه والياً على بغداد وشهرزور، وبعد الموافقة عمت البشائر والأفراح في سائر الأنحاء واستبشر الناس بتعيينه خيراً عسى أن يكون خير خلف لوالده السالف الذكر.

إن الوالي الجديد سعيد باشا كان أثناء وفاة أبيه في السنة الثانية عشر من عمره وكانت له منزلة رفيعة لدى الولاة الذين تعاقبوا على تولي الحكم بعد أبيه لأنه ابن سيدهم وأميرهم، وعاش معززاً مكرماً. ولقد كان هو من ناحيته لا يتدخل في أمور الدولة وسياستها بل انصرف بكليته إلى إشباع رغبات الفتوة والشباب. فلما تولى الحكم كانت والدته السيدة نابي تساعده وتعينه في تمشية بعض أمور الدولة ثم انتخبت له أخيراً بعض من لا مقدرة له ولا لياقة من الأشخاص لمساعدته في تمشية الأمور والمصالح فزاد هؤلاء من اندفاعاته في مجالي الأنس والطرب الذي أسف له المخلصون من رجال البلد وأساؤوا الظن به وانقلبت آمالهم فيه إلى يأس وقنوط.

ولقد كانت باكورة أعماله أنه عين داود أفندي بوظيفة كتخدا بالوكالة بعد مقتل عبد الله باشا مباشرة وقبل وصوله إلى بغداد. ومع أن داود أفندي قام بواجباته خير قيام منذ استلامه زمام هذه الوظيفة وراح يشتغل ليل نهار في سبيل خدمة المصلحة، غير أن السيدة الوالدة فور وصول ابنها سعيد باشا إلى بغداد قابلته وأخذت تؤنبه على تسرعه في تعيين داود أفندي وأفهمته أنه قد أساء الاختيار وقالت له أي بني سعيد ألم تعلم أني أكره هذا الرجل فكيف تفعل شيئاً لا أرضاه. وبعد محاورات وإلحاح انصاع إلى رأيها بعدما قالت إن حليبها حرام عليه إذا لم يعزل داود أفندي فوراً وهكذا كان.

أما داود أفندي فقد ترك دائرة عمله وذهب إلى بيته فور تلقيه خبر عزله عن الوظيفة وقبع هناك.

ولم يكتف الوالي الجديد بهذا بل أخذ يقصي بعض المخلصين ومحبي الخير عن إدارة الدولة الأمر الذي جعل جهاز الحكم يتدانى يوماً بعد يوم وتبع ذلك تدهور في الأوضاع وإفلاس في الخزينة.

ولأجل معالجة الحالة قبل تفاقم الخطر أحضر الوالي وأمه أحد مسلمي البصرة القدماء الذي كان خزينة داراً بزمن المرحوم سليمان باشا وكان من المشهود لهم بحسن التدبير والعقل والدراية وهو الحاج عبد الله آغا، وعرضا عليه منصب الكتخدا بعدما بينا له ما وصلت إليه حالة الخزينة وجهاز الحكم من تدهور مريع وقالا له إنهما لا يعتمدان إلا عليه في إصلاح الأحوال.

ولكن المومأ إليه أبى واعتذر ولم يوافق على تولي هذه المهمة في بادىء الأمر ثم رضخ إلى طلبهما لكثرة ما ألحا عليه.

وقد بذل الحاج عبد الله آغا جهوداً جبارة في هذا الشأن وسهر الليالي والأيام رعاية لوالد الوالي واعترافاً بنعمته عليه، وبعدما تعهد الوالي وأمه بأنهما لن يتدخلا في شؤونه وأعماله. وكان أول ما فعله أنه قام بالضرب على أيدي المفسدين وناكري الجميل والسراق والمختلسين وقطع دابر الإسراف والبذخ من المصروفات وتمكن من تحسين الحالة وأنقذ البلاد مما كان يخشى منه، غير أن بعض الذين لا يروق لهم مثل هذه الإصلاحات أخذوا يشوهون سمعته وينسبون إليه ما ليس فيه من المساوىء وسوء التصرفات وأجمعوا أمرهم في إزاحته عن طريقهم واستطاعوا أن يجذبوا السيدة الوالدة إلى جانبهم، وبتحريض من هؤلاء ووشاية من جاسم بك بن سليمان بك الشاوي أصدر الوالي أمراً بعزل الكتخدا المذكور وبذلك استولت السيدة الوالدة والأشخاص الذين تنتخبهم هي وتختارهم على إدارة دفة الأمور وجعلوا الوالي في معزل عن كل شيء إلا عن لهوه ولعبه.

ولما رأى ذوو الرأي وعقلاء البلد أن ليس بوسعهم تغيير الأوضاع قبع كل واحد منهم في داره وتركوا حبل الوالي على غاربه يفعل ما يحلو له.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذه السمعة السيئة التي لحقت بالوالي من سوء إدارته وتصرفاته قد بلغت مسامع بعض الرجال البارزين في الأستانة فتأسفوا أشد الأسف، وكان على رأس أولئك الرجال العظام حالت أفندي الذي سبق ذكره، فإن هذا الرجل بعد عودته من العراق إلى الأستانة كسب ثقة المقامات العليا وولوه منصباً رفيعاً في الدولة وتركوا إليه أمر معالجة الأوضاع العراقية.

وفي تلك الأثناء سبق أن التمس من سعيد باشا أن يعين أحد يهود

بغداد المدعو حسقيل بوظيفة رئيس صرافين، ولما كان رئيس الصرافين في ذلك الوقت أحد المحسوبين على السيدة الوالدة وهي التي كانت قد اختارته وانتخبته لهذه الوظيفة فقد قامت قيامتها عندما بلغها الخبر واتفقت مع حمادي آغا للتأثير على ابنها بعدم تلبية التماس حالت أفندي وعلى إبقاء رئيس الصرافين الحالي على وظيفته فانصاع إلى رأيها مما أدى إلى انزعاج حالت أفندي بسبب عدم إجابة رغبته.

ضرب النقود في بغداد وفرار داود أفندي نحو السليمانية

بالنظر لتناقص الكمية الموجودة في التداول من النقود النحاسية فقد جرت بشأنها عدة مخابرات مع رجال الدولة في الأستانة وانتهت تلك المخابرات بالموافقة على ضرب تلك النقود بالكمية المطلوبة في بغداد على حسب الأنموذج الذي اتفق عليه، غير أن اليهودي عزره انتهزها فرصة وتمكن من إغراء المسؤولين أو مغافلتهم بحيله ووسائله ومكره وخداعه وبصم على قسم منها اسم سعيد باشا، ثم أطلعه عليها ليبرهن له أنه من المخلصين الناجحين، فلما رآها الوالي قامت قيامته وأمر بتبديلها وإعادة سبكها فوراً وعدم تسربها إلى الخارج، ولكن ذلك اليهودي الماكر قد تمكن من إرسال بعض تلك النقود إلى حالت أفندي مع الوشاية بأن الوالي قد عزم على الاستقلال بالبلاد والانفصال من الدولة العثمانية وهذه النقود من أقوى الأدلة على ذلك.

وعلى هذا قرر رجال الدولة العثمانية عزل الوالي بأسرع ما يمكن.

ومع أن هذا الخبر قد انتشر وذاع بين الناس فإن الوالي وصاحبه حمادي آغا بقيا سادرين في لهوهما وغوايتهما وغفلتهما ولم يعيرا الأمر أي اهتمام أو انتباه بالرغم من أن الدفتردار السابق داود أفندي قد تقدم

ينصح الوالي رعاية لحقوق أبيه بلزوم الالتفات واتخاذ ما يقتضي لإصلاح الوضع، إذ قوبل تجاه هذه النصائح بالازدراء والسخرية والاستهزاء من جانب الوالي والسيدة الوالدة ومن جانب حمادي آغا أيضاً، فما كان من هذا الرجل العاقل الذكي الذي بلغ درجة رفيعة في العلوم وشهرة واسعة في الفضل وحسن السمعة إلا أن يجمع أصحابه وتابعيه من المماليك وأولادهم ويخرج بهم من بغداد خوفاً من العواقب واحتجاجاً على تصرفات الوالي وتخلصاً مما يترتب على بقائه في بغداد من المسؤوليات الجسام واتجه نحو السليمانية حيث ألقى عصاه فيها بضيافة محمود باشا نجل عبد الرحمن باشا.

وبعد وصوله إلى السليمانية اتفقت كلمة الجميع على خلع سعيد باشا وتقديم عريضة إلى رجال الدولة العثمانية في الأستانة يقترحون فيها تعيين داود أفندي والياً على العراق بدلاً منه.

تعيين داود باشا والياً ومقتل سعيد باشا

لقد ذكرنا أن رجال الدولة في الأستانة كانوا مستائين من تصرفات الوالي سعيد باشا ولم يعودوا يحتملونها لا سيما بعد قيامه بضرب النقود باسمه ولما نفذ صبرهم وضاقوا به ذرعاً، أصدروا فرماناً يقضي بتعيين الشاب المدعو أحمد بك والياً على العراق بالوكالة وهو أخو سليمان باشا في الرضاعة وذلك بناءاً على تنسيب واقتراح حالت أفندي، غير أن المو ما إليه كان قد انضم إلى جمعية داود أفندي وكان من جملة الذين وقعوا العريضة المرفوعة إلى المقامات العليا في الأستانة لترشيح داود أفندي لولاية العراق، فلما وصلت تلك العريضة بعد صدور الفرمان المذكور صدر فرمان آخر بتعيين داود أفندي لولاية العراق والإنعام عليه بلقب (باشا).

إن أتباع داود باشا كانوا في زيادة مستمرة وعندما وصل الفرمان المتضمن تلبية الطلب المرفوع بتلك العريضة اتفق هو ومحمود باشا على السفر عن طريق كركوك بما معهما من قوات تقدر ما بين الخمسة والستة آلاف مقاتل من القوات الكردية.

ولما اقتربوا من كركوك عسكروا حيال البلدة المذكورة ونصبوا خيامهم هناك لأخذ قسط من الراحة. وفي تلك الأثناء حصل هياج واضطراب في كركوك ذلك أن الفرمان الصادر في بداية الأمر بتعيين أحمد بك للولاية وكالة قد ورد قبل الفرمان القاضي بتعيين داود باشا والياً أصيلاً.

وعليه فإن أهالي كركوك اعتبروا حركة داود باشا خروجاً على أوامر الدولة العثمانية واتخذوا الاستعدادات اللازمة لمقابلة قوات داود باشا وصدها من التقدم بالقوة وتشتيت شملها. وقد هجم أهالي كركوك فعلاً على قوات داود باشا فقابلهم بالمثل وقد آزره محمود باشا بقواته حتى انخذل الكركوكيون وتمزقت جموعهم وبعد انكشاف المعركة وصل الفرمان الثاني المتضمن تعيين داود باشا والياً على العراق وعندئذ هدأت الزوبعة وقدموا معذرتهم عما بدر منهم بسبب الاختلاف والتباين بين الفرمانين.

وبعد استراحة قصيرة واصل داود باشا سفره نحو بغداد يصحبه محمود باشا.

ولما بلغوا قرية (باش ينكيجه) التي تبعد مسافة ست ساعات وردت الأخبار على داود باشا بأن سعيد باشا قد استنجد برئيس عشائر المنتفق حمود الثامر الذي كانت له اليد الطولى في تعيينه والياً ومعنى هذا أنه عزم على المقاومة وقد علم أيضاً أن الوالي المذكور قد أصدر أمراً

بتعيين حمود الثامر متصرفاً على مناطق كوى وحرير، وأنه تقدم لنصرته دون أن يعلم بما حدث، ولما كان خالد باشا مقيماً في بغداد هو وأتباعه فقد عمت الفوضى وأربكت الأحوال هناك وارتفعت الأسعار في البلدة مع خلو الخزينة من المبالغ التي يستعان بها على تمشية الأعمال، وعليه فقد رأى داود باشا أن يتريث في دخول بغداد ريثما تنحل هذه الأزمة من تلقائها ولم يشأ أن يهاجم بغداد وما فيها من هذه الجماعات وقرر الإقامة في قزلرباط (السعدية) إلى أن تهدأ الأحوال.

فنظراً للحالة الآنفة الذكر ولعجز الحكومة عن تأمين المبالغ والذخائر والاحتياجات الضرورية، ولغرض الاقتصاد بالنفقات سمح الوالي لشيخ المنتفق حمود الثامر وأتباعه وعشائره بالعودة إلى ديارهم وانبرى هو يدير الأمور كيفما تكون بغير اهتمام واكتراث وبغير تفكير بما ينتظره من العواقب الوخيمة وراح يشدد الخناق على من يتوسم فيه الميل نحو جهة داود باشا، وكما فعل بالخزينة دار يحيى آغا بالقبض عليه واتخاذه رهينة من المماليك أراد أن يفعل مثل هذا بأحد الانكشارية وهو حبيب آغا الدركزنلي وببعض وجهاء محلة باب الشيخ الذين استدعاهم إليه. وبما أن خبر عزله قد شاع بين الناس فلم يلبوا أمره ولم يحضروا عنده بل راحوا يذيعون خبر عزله في الأسواق والمقاهي وبين الناس أجمعين وأخذوا يحرضون الأهالي على الانتقاض والخروج عن الطاعة لأن الحكومة الحالية لم تعد شرعية وإنما تعتبر مغتصبة، ومع كل ذلك فقد كرر الوالي أمره بوجوب إحضار حبيب الدركزنلي ورفقاه وأذن بضربهم في حالة امتناعهم ولكن أتباعه لم يطيعوه ولم ينفذوا له هذه الأوامر بل على العكس رفعوا راية العصيان هم أيضاً وهجموا على صديق الوالي وحبيبه حمادي آغا وأطلق أحد الأغوات النار عليه وكاد يقتله لولا أن فر

جريحاً نحو القلعة للاحتماء بها ثم تبعه سعيد باشا أيضاً لأنهما كروح واحدة في جسدين.

ولما شغر كرسي الولاية بهروب سعيد باشا اتفق ذوو الرأي على تعيين وكيل مؤقت بمكانه وقد وقع اختيارهم على موسى آغا الكتخدا الخاص للمابين وهو ابن خالة داود باشا، ثم كتبوا إلى داود باشا يستحثونه في المجيء إلى بغداد بالسرعة المستطاعة، وعندئذ تحرك نحوها وحال وصوله تسلم زمام الحكم وأعدم سعيد باشا ثم حز عنقه وأرسلها إلى الأستانة حسب العادة وكان ذلك في شهر ربيع من سنة اثنين وثلاثين ومائتين وألف.

نبذة عن سعيد باشا وكيفية مقتله

إن المرحوم رسول أفندي في كتابه دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد يعزو الفساد الذي استشرى على عهد سعيد باشا إلى حمادي آغا ويعتبره المسؤول الأول عنه وعن كل ما حدث ولم يتطرق إلى ذكر شيء عن تصرفات السيدة الوالدة لأنه لم يشأ أن يحشر أسماء النساء في مثل هذه الأمور ابتعاداً عن القال والقيل.

كما وأن قضية تعيين داود باشا بمنصب الكتخدا بالوكالة بعد مقتل عبد الله باشا ثم عزله حال وصوله إلى بغداد بسبب الغيرة والمنافسة بين الضرّات والأمهات قد صرف النظر عن التطرق إليها أيضاً وذلك حياءاً وخجلاً من تلك التصرفات والمساوىء وقال إن عزل داود باشا إنما وقع بسبب استقالة الموما إليه لعدم رغبته في ممارسة واجبات الوظيفة المذكورة. وهذا نوع من المراوغة والابتعاد عن ذكر الحقائق كما وقعت وهو لا يختلف عن السكوت عن التصريح بالحق.

ولد سعيد باشا سنة ١٢٠٦ وهو الولد البكر لأبيه سليمان باشا، وقد تربى في حجره وكنفه وتعلم على أبيه القراءة والكتابة، وبعد وفاة أبيه تولى رعايته المماليك وأطلقوا له العنان ليقضي فترة الطفولة والمراهقة بحسب ما يهوى ويختار، وكان هواه واختياره في أمور غير مفيدة، ولذلك نشأ غراً جاهلاً لا يعرف شيئاً عن تصرفات الزمان ولا عن السياسة وإدارة دفة الحكم، ولكنه من ناحية ثانية كان لطيفاً رقيق الحاشية وأميناً، وأما محبته لحمادي آغا تلك المحبة التي بلغت درجة العشق والهيام والتي أصبحت حديث الخاص والعام بالإضافة إلى ما كان يتمتع به المومأ إليه من حسن وجمال فإن كل ذلك قد حمل الناس على اتهامه بالانحراف الجنسي ولا دليل ينفي عنه تلك التهمة.

إن ما ذكره المرحوم رسول أفندي في دوحته من حدوث اضطراب وهياج في البلدة ومحاولة ذوي الأطماع إثارة الفتنة بعد فرار سعيد باشا والتجائه إلى القلعة وبعد تسلم الحكم من قبل داود باشا، كل ذلك لا نصيب له من الصحة وإنما كانت هذه الإشاعة بتدبير من الوالي داود باشا لكي يبرر بها قتل سعيد باشا دون أن يلحقه اللوم بسبب كون القتيل ابن سيد القاتل وأن حقوق النعمة كانت توجب عليه إكرامه والعفو عنه رعاية لأبيه.

أما الحقيقة فإن داود باشا بمجرد دخوله بغداد أوعز بإلقاء القبض على حمادي آغا وزجه في السجن وكذلك بإلقاء القبض على سعيد باشا ووضعه في دار والدته للإقامة معها تحت الحراسة الشديدة من قبل الحرس الرسمي (القره غول) وقد أحيطت تلك الدار بسياج قوي وحصار شديد من الحراس والرقباء بحيث لا مجال مطلقاً للخلاص والهرب منها.

في دار أمه داعب خياله التشبث في البقاء على قيد الحياة وأرسل مربيته وجواريه إلى الوالي داود باشا يشفعن له ويستعطفنه بالبكاء والنحيب ويذكرنه بالحقوق القديمة ويلتمسنه أن يصفح عنه ويحقن دمه، وبالرغم مما أظهرن من لوعة وحرقة وتضرع والتماس فإنه لم تبدر منه بادرة تدل على اللين والرقة والعطف، وأخيراً وفي ليلة ليلاء بينما كان سعيد باشا في حجر والدته وهو على أشد ما يكون من الخوف والاضطراب وكانت أمه تضمه إلى صدرها وتهدىء من روعه وتسليه وتمنيه وتبعد عنه شبح الموت الذي يلوح له من وقت لآخر كالحلم المزعج المخيف، إذ طرق عليهما الباب، فلما سمع هذا الطرق ارتاع وارتجف وقال لأمه ها هم أولاء جاؤوا لقتلي ولكنها أخذت تهدىء من روعه وأرسلت رئيسة الخدم لتنظر من بالباب وهناك رأت رئيس الانكشارية مع ثلة من الجند بأتم سلحتهم وقد بادروها بأنهم جاؤوا لمقابلة سيدها ومحادثته بحديث خاص، وعندما أدارت ظهرها راجعة لتخبر سيدتها بما سمعت اندفع رئيس الانكشارية إلى داخل الدار هو ومن معه وقبضوا على سعيد باشا وسحبوه من حجر أمه حتى أتوا به إلى زاورة من الدار وكما تذبح الشاة ذبحوه من الوريد إلى الوريد وحزوا رأسه وأخذوه معهم ثم تركوا جثته بعدما ألقوا عليها قطعة من الحصير.

أما السيدة الوالدة فإنها لما استبطأت عودة ابنها وفلذة كبدها راحت تبحث عنه وخلال ذلك طرق سمعها شخير جثة ابنها وكأنه شخير شاة مذبوحة زعقت بالخدم تسألهم ماذا جرى لسعيدها واندفعت مذعورة مضطربة هنا وهنا بدون وعي ولا شعور ولما عثرت بجثته ورأت ما فعلوا به ألقت بنفسها عليه وغابت عن الوجود. وظلت نائمة عليها وهي فاقدة الحس لا تعي ولا تشعر حتى مطلع الشمس. وعندئذ وبشق الأنفس استطاعوا أن يأخذوه من بين يديها ويواروه التراب.

إن السيدة الوالدة وإن كانت قد أساءت إلى داود باشا بتصرفاتها التي ذكرنا نبذة منها فإن الواجب الإنساني كان ينبغي أن يصده عن هذا الانتقام الفظيع وأن يرأف بها ويتغاضى عن هفواتها ولكنه بعمله هذا بلغ الغاية في القسوة وفي عدم تقدير شعور الأمهات.

لقد أذاعت السيدة رئيسة الخدم خبر مقتل سعيد باشا على هذه الشاكلة وكانت شاهد عيان لما وقع، وكان كل من يسمع بهذه الفاجعة يتملكه الحزن والأسف والألم العميق حتى أني على الرغم من كوني فتى حينذاك كان يتملكني الحزن والاكتئاب كلما أذكر هذه الحادثة، وعلى الرغم من سفري إلى الأستانة ثم اصطحابي لداود باشا فإني لم أتمكن من إخفاء استيائي وتأثري حتى في حضوره.

وذات مرة جاء ذكر الحادثة التي نحن بصددها في مجلس داود باشا وكان يضم أحد وجهاء بغداد من أبناء الربيعي فلم يتمالك من في المجلس نفسه وانخرط الجميع في البكاء. وقد حاول داود باشا أن يتصدى للدفاع عن نفسه وتبرير ما قام به فلم يسعفه النطق وسكت وكان سكوته دليلاً على تقصيره في هذا الشأن.

بعد مقتل سعيد باشا أكثروا من تعذيب حمادي آغا وحاولوا أن يستحصلوا منه على ما استولى عليه من أموال. ولما كان المومى إليه قد يئس من البقاء على قيد الحياة فلم يعترف بحيازته فلساً أحمر.

وقد أحضره الكتخدا أمامه مكبلاً بالحديد ذات يوم وكان بقربه محمود باشا ذي اليد الطولى في تولية داود باشا، فلما مثل بين يدي الكتخدا بادره محمود باشا بقوله أيها الوالد إنك عبارة عن إنسان عادي وإنك ابن علوجي لا قدر لك ولا قيمة فما الذي جعلك تقترب من الوزراء والرجال العظام! أما كان يكفيك أن تصاحب أولئك الرجال دون

التدخل في شؤون الحكم حتى بلغت بك الحالة أن رحت تعزل وتنصب وتمد يدك إلى متصرفي السليمانية. فأجابه حمادي آغا قائلاً نعم إنني بالرغم من كوني ابن علوجي ومن الصنف الوضيع الذي وصفته فقد كنت أعزل وأنصب المتصرفين من أمثالك. أما أنت فبالرغم من كونك ابن عبد الرحمن باشا ذلك الرجل العظيم وبالرغم من كونك متصرفاً للواء السليمانية فإنك لا تتمكن من إنقاذ ابن علوجي حقير.

إن هذا الجواب من حمادي آغا قد مس الوتر الحساس من حمية محمود باشا وحمله على القيام من فوره والذهاب لمواجهة الوالي مستشفعاً لحمادي آغا وملتمساً الصفح عنه وأعلمه بما حدث من المحاورة في مجلس الكتخدا. ولكن الوالي أصم أذنيه واعتذر عن إجابة ما التمسه محمود باشا الذي اعتراه الخجل والحياء ولم يعد يطيق رؤية الناس بعدما شاع بينهم فشله في محاولته.

والصحيح أن للانتقام لذة لا تعادلها لذة، ولكن لذة الانتقام وإن كانت من متطلبات النفس البشرية في هذه الحياة إلا أن العفو عند المقدرة عمن لا خطر منه، والصفح الجميل عن المسيئين أكثر لذة من الانتقام.

ثم إن العفو عند المقدرة فوق هذا وذاك من شيم الكرام.

الإجراءات القمعية التي اتخذها داود باشا بعد توليه الحكم

عند حضور حالت أفندي إلى بغداد للمرة الثانية وقيامه بتنصيب عبد الله باشا والياً بالوكالة ثم اتفاقه مع الوكيل على تنصيب سعيد باشا والياً بالأصالة كان هناك في ذلك الوقت بعض المعارضين وهؤلاء المعارضون جلهم من أعيان البلد ووجوهه، وكانت معارضتهم لهذه

الترتيبات بدرجة من القوة بحيث أغضبت حالت أفندي وأوجبت استيائه منهم وكتب إلى المقامات العليا يطلب إليهم إصدار فرمان يخوله حق القيام باتخاذ إجراءات زجرية شديدة بحق هؤلاء المشاغبين وأن تكون من جملة تلك الإجراءات فرض عقوبة الإعدام والحبس والنفي. وقد أصدروا له مثل هذا الفرمان وكيفية تنفيذ ما تضمنه واختيار الوقت للتنفيذ كان موضع درس ونقاش.

فلما آل الأمر إلى داود باشا ورأى هذا أن أولئك الأشخاص ما زالوا مخالفين لإجراءاته وليسوا على رأيه فقد انتهزها فرصة وطلب إلى حالت أفندي أن يجول إليه الفرمان المذكور للتنفيذ.

وعلى هذا فقد ألقى القبض على اثنين من الكتخدائية السابقين وهما درويش آغا والحاج عبد الله آغا، وعلى الدفتردار محمد سعيد بك والتاجر المشهور نعمان جلبي الپاچه چي وكتخدا المابين ملّو عمر آغا.

أما درويش آغا والحاج عبد الله آغا فقد ألقى بهما في سجن القلعة في بداية الأمر. وأما الحاج نعمان چلبي فقد أرسله إلى السجن القديم، ثم بدا للوالي أخيراً أن يستحصل من الحاج نعمان چلبي خمسة آلاف بدرة ومن كل من درويش آغا والحاج عبد الله آغا ثلاثة آلاف بدرة تعتبر إيراداً لخزينة الدولة ويطلق سراحهم.

أما محمد سعيد أفندي والملّو عمر آغا فقد نفذ عليهما عقوبة الإعدام وصادر أموالهما وممتلكاتهما وباعها.

إن درويش آغا والحاج عبد الله آغا وإن كانا من كتخدائية سعيد باشا وكانا أيضاً من السائرين في ركاب عبد الله باشا قبل ذلك وإن كلاً من

داود باشا وحالت أفندي كانا ينفران منهما ولا يطمئنان إليهما إلا أنه لم تبدر منهما بادرة تستوجب عقوبة الإعدام.

أما الحاج نعمان چلبي فإنه وإن كان من أصدقاء سعيد باشا غير أنه لم يتدخل يوماً ما بالشؤون السياسية والإدارية، وإنه كان منصرفاً إلى تجارته وعلى هذا فقد صدر العفو عنه وأطلق سراحه وأصبح في نجوة من العقاب.

لقد كان الدفتردار سعيد بك أفندي وداود باشا يخلف أحدهما الآخر في الوظائف فيما سبق. ولما كان عدو المرء من يعمل بعمله فقد استحكمت النفرة بين الاثنين منذ ذلك الوقت، كما وأن الموما إليه كان صديقاً لحالت أفندي منذ مجيئه إلى بغداد للمرة الأولى وكان قد أسكنه في داره وشاركه في مجالس أنسه وطربه وشرابه، غير أنه ذات أمسية من الأمسيات لم يحضر في المجلس لمنادمة حالت أفندي بل انصرف إلى مجلس آخر كان مدعواً إليه للتمتع بالملذات مع أصحابه القدماء، فكان هذا داعياً لاستياء حالت أفندي وغضبه. وقد انتهز المغرضون هذا الفتور وأولوا انصرافه إلى أصحابه القدامى تأويلات شتى وزادوا من شقة الخلاف وكانت هذه الحادثة الطفيفة من الأسباب التي أودت بحياة سعيد بك أفندي وبمقراض غدر الأخوان انقرض عمر الموما إليه.

وأما الملّو عمر آغا فقد كان المقرر أن يصحب داود باشا عندما خرج من بغداد وكان قد قطع على نفسه عهداً بذلك ولكنه أخلف وتخلف عن الخروج مما أوجب إعدامه بسبب هذه الهفوة.

إن سعيد أفندي كان قد اصطحبه من الأستانة جده سليمان وحيد أفندي دفتردار بغداد السابق وكان هو وجده موضع حفاوة ورعاية من

قبل سليمان باشا وابنه سعيد باشا وكان له مجلس يقدم فيه لضيوفه أنواع الأطايب ومن جملتها تلك القوة المشهورة. وكان التردد على مجلسه لا يكاد ينقطع سواءاً أكان في الوظيفة أم في خارجها وكان متصفاً بالكرم وخدمة الضيوف ولذلك كان الأسف عليه شديداً وعاماً حتى سرى الحزن عليه إلى الأجانب وأَسَرِهِمْ.

أما ما يظهره الموظفون من الكرم والبذخ والسخاء في زماننا هذا فإنه لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكونوا قد أساؤوا التصرف بواردات بيت المال وإما أنهم قد جمعوا هذه الأموال والثروات من الرشوة واغتصاب حقوق الأهلين بتسخيرهم في إنجاز الأعمال بدون أجرة إذ يضعون تلك الأجور في جيوبهم، ولما كان تبذير هذه المبالغ وصرفها في غير الوجهة التي تستحق الصرف مما يضر الخزينة ويضر مصالح الناس، فإن الذي يقوم بمثل هذه الأعمال ينبغي الضرب على يده بشدة وأن يوقف عند حده، ولكن الناس لتعودهم على هذه الطريقة يقفون حائلاً عن معاقبة هؤلاء سعياً وراء مصالحهم الخاصة ولا تهمهم المصلحة العامة في قليل أو كثير، ولذلك تراهم يكيلون المدح جزافاً لمن ينفعهم وينعم عليهم حتى وإن كان هذا الإنعام قد جاء عن طريق غير مشروع، ولهذا أكثروا من مدح المبذرين والمسرفين، الأمر الذي شجع هذا الصنف من الموظفين على انتهاب أموال الناس وإساءة الاستعمال، وقلد بعضهم بعضاً في هذا السبيل.

أما سعيد بك أفندي فقد أجمع الخبراء والمتصلين به على تبرئة ساحته من الكسب الحرام خلافاً لما يشيعه عنه الخصوم والمغرضون وأن الأموال التي كان يصرفها بسخاء ويتكرم بها على المحتاجين إنما كانت تأتيه من واردات مزارعه الخاصة وتجارته رحمه الله.

تعيين الحاج طالب آغا بمنصب الخزينة دار[١]

كانت وظيفة الخزينة دار في ذلك الوقت بعهدة أكبر ضابط من رؤساء المماليك وهو يحيى آغا المملوك الخاص للمرحوم سليمان باشا، وكان موضع ثقة لدى الولاة لقدمه ولمنزلته، ومع أنه لم يشتهر عنه أنه يفشي أسرار الدولة الخاصة إلى المماليك إلا أن الهمسات كثرت حوله بحيث ملأت قلب الوالي بالشكوك والريبة، ولما كان لا يوجد دخان بلا نار، ولكي يزيل الوالي ما خامره عنه فقد قرر تنحيته عن الوظيفة. وعليه فقد اتصل الوالي بالوالد الحاج طالب آغا وأطلعه على سره وكلفه بأن يتقلد هو منصب الخزينة دار بدلاً من الموما إليه.

إن تسلم هذا المنصب من يحيى آغا وإن كان غير سالم من المحاذير إلا أن إلحاح الوالي لم يدع له مجالاً للرفض، وبعد الأخذ والرد وافق الوالد الحاج طالب آغا على قبول هذا المنصب لقاء شروط واستلم زمام العمل في الوقت الذي كان يحيى آغا متغيباً في الكمرك لبعض شؤونه، فلما حضر واطلع على الأوامر الصادرة بهذا الشأن ولم يجد له مجالاً للقيام بأي عمل غادر الدائرة بعد تقديم التبريكات والتهاني لخلفه وقبع في داره.

وبعد مغادرة يحيى آغا ذهب الحاج طالب آغا وقابل الوالي وأعلمه بانصراف يحيى آغا وبما تم من تسلمه الوظيفة وبعد المداولة قرر الوالي تخصيص بعض المقاطعات الزراعية التي تدر في زماننا هذا سنوياً حوالي الألفي بدرة من المحاصيل وسجلها باسم يحيى آغا هبة وإحساناً وكذلك أنعم عليه بما يصلح باله ويخفف من انفعاله.

---

(١) إن منصب الخزينة دار في ذلك العهد يضاهي منصب مدير المالية العام في زماننا هذا. (المترجم)

خيانة يحيى آغا

إن يحيى آغا بعد انفكاكه من الوظيفة قد تأثر كثيراً ولم يكترث بهذه الهبات وبهذا الإحسان ولما كان حالت أفندي الذي بيده أمور العراق إنما هو من جانب الوالي ولا يؤمل ثمرة طيبة من مساعيه فيما لو سعى أو توسط للعودة إلى وظيفته فقد تملكه اليأس وانصرف إلى وجهة أخرى تلك هي أنه أخذ يراسل الشهزادة محمد علي مرزا حاكم كرمنشاه وما حولها وابن شاه إيران فتح علي خان ويطلعه على خفايا البلد وأسراره وسلك بعمله هذا مسلكاً لا يرتضيه أحد من المماليك ولا من غيرهم لأنه مسلك الخائنين لأمتهم ووطنهم، ولما ثبتت خيانته وافتضح أمره بالعثور على مكاتباته المختومة بختمه فقد ألقي القبض عليه وجيء به إلى ديوان الكتخدا وهناك بعد الاستقرار والاعتراف جرى إعدامه حالاً.

وبعد إعدام الموما إليه قام الحاج طالب آغا بما يقتضي من الإصلاحات وتطهير صفوف المماليك من عناصر السوء والمفسدين وإزاحة بعض رؤسائهم الخونة ونفي وتعذيب البعض الآخر ولم يبق من يخشى من شره وبذلك هدأت الحالة وسارت الأمور في مجاريها الاعتيادية بحيث تفوقت على ما كانت عليه الحالة في عهد سليمان باشا.

حركات الإيرانيين على الحدود

كان محمود باشا قد قطع كل علاقة بالدولة الإيرانية وقد أنعمت عليه الحكومة بما يرفع من منزلته وقدره. أما بقية أشراف بابان الذين كان كل واحد منهم ينتظر ويأمل ويترقب دوره في تولي متصرفية السليمانية من أمثال سليمان باشا ابن إبراهيم باشا وعبد الله باشا وابن عبد الرحمن باشا ومحمد باشا ابن خالد باشا فإنهم قد انقطعت آمالهم

وخابت مساعيهم بسبب تثبيت محمود باشا في مركزه وتقويته من جانب الحكومة المركزية، ولذلك وبإغراء من الإيرانيين التجأ هؤلاء الجماعة إلى حاكم كرمنشاه محمد علي ميرزا، وقد اتخذهم آلة لإشعال نار الخصومة وإثارة الفتن والاضطرابات على الحدود ليمهد السبل لإضعاف العراق واحتلاله، ولكي يفتتح باب الخصومات أوعز إلى عبد الله باشا ومحمد باشا بالهجوم على خانقين بمن معهما من أتباع ففعلا ونهبا البلدة المذكورة، أما الشهرزادة فإنه توجه إلى طهران على جناح السرعة لتلقي الإرشادات والتعليمات من أبيه فتح علي شاه.

إن الغارة التي شنها على خانقين كل من عبد الله باشا ومحمد باشا وقيامهما بأعمال العصابات ونهب البلدة قد وصلت أخبارهما إلى بغداد وحذرا من مجيء القوات العسكرية لردعهما فإنهما جمعا ما استوليا عليه من المنهوبات وبضمنها المواشي والحيوانات وفرا عائدين إلى داخل الحدود الإيرانية وأقاما حوالي كرمنشاه تحت حماية الشهزادة.

فبالنظر لهذه الحادثة ولما كان الإيرانيون كثيراً ما يتجاوزون الحدود ويثيرون الفتن والقلاقل ضد الحكومة فقد كتب الوالي داود باشا إلى الأستانة يعلم الجهات المسؤولة بهذه الحركات ويطلب اتخاذ ما يقتضي لتقليم أظافر المعتدين، وبالوقت نفسه قام بتجنيد حوالي الخمسة آلاف نفر من الچتة(١) وأرسلهم إلى تلك الجهات لأجل تأمين المحافظة على الحدود وتقوية الحصون والمواقع العسكرية والدفاع إذا اقتضى الأمر ورد عادية من يتصدى لخرق الحدود وتجاوزها من قبل الأجانب.

(١) الچته بالجيم المثلثة التركية بمعنى (المليشيا) الذين يسمونهم الآن (شبانة) أو (الليفي) وهم طائفة من الجنود الأهليين المتطوعين للقيام بأعمال شبه عسكرية بدلاً من الجنود النظاميين. (المترجم)

ثم انصرف من جهة أخرى إلى تهيئة العتاد والمهمات الحربية وتسليح القوات النظامية وسوقها شيئاً فشيئاً نحو الحدود.

عند عودة الشهزادة من طهران ومن قبيل وهب الأمير ما لا يملك، أصدر أمراً يقضي بتعيين عبد الله باشا الذي سبق أن أغار على خانقين ونهبها متصرفاً على ألوية كوى وحرير والسليمانية وبذلك أشعل نار الفتنة والخصومة.

ولما وصلت الأخبار إلى المقامات العليا في الأستانة وعلموا أن الشهزادة قد أعد العدة واستعد، وجمع قواته العسكرية لتنفيذ ما أمر به من توجيه عبد الله باشا بعد تعيينه من قبله حاكماً على كردستان. عندئذ عزموا على الدفاع وبادروا - كدفعة أولى - بإرسال ألف وخمسمائة جندي من الخيالة إلى بغداد لتعزيز القوات المرابطة على الحدود، وقد وصلت هذه القوة وعسكرت في زنكباد التي تقع ما بين السليمانية ومندلجين.

وبعد المذاكرة مع محمود باشا متصرف السليمانية تقرر أن يتعاون الجميع لدفع العدو من أية جهة يأتي منها.

وزيادة في الاحتياط أرسل الوالي كتخدا محمد آغا على رأس قوة عسكرية مع ثلاثين قطعة من المدفعية والمهمات الأخرى للإقامة بالقرب من تلك القوات وتدبير شؤون الدفاع وقد تحركت هذه القوة من بغداد في اليوم الثالث عشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٢٣٧هـ.

لقد ذكر المرحوم رسول أفندي في كتابه دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء هذه الحادثة على الوجه الذي أنقله بالنص فيما يلي

ثم أعقبه بذكر الحقائق التي اطلعت عليها والتي تخالف ما ذهب إليه الموما إليه وإليكم نص كلامه:

(في اليوم الثالث عشر من شهر رمضان المبارك الموافق ليوم الخميس تحرك الكتخدا على رأس القوة العسكرية التي استكملت ما تحتاجه من عدة ولوازمات، والتحقت بها قوات الچته (الشبانة) في محل يسمى كركي، وظلت هذه القوات تواصل سفرها حتى بلغت شيروانة من نواحي زنكباد، وهنا اتخذ الجيش مقره وراح القائد يراسل محمود باشا ويتبادل معه الآراء، وقد مكث في المحل المذكور حوالى الأربعين يوماً كان الشهزادة خلالها يصر على وجوب عزل محمود باشا وتعيين عبد الله باشا بمكانه، وفي الوقت ذاته لم يتوان في بث الفتن وإيغار الصدور وحوك الدسائس ضد الحكومة والكيد لها ما وسعه وإثارة العشائر والجماعات ومع كل ذلك لم يصل إلى بغيته وتحقيق غرضه. ولما أعياه الأمر جرد حملة عسكرية تقدر ما بين الأربعة والخمسة آلاف جندي وأرسلها لاحتلال السليمانية وإقامة عبد الله باشا حاكماً عليها وعلى منطقة كردستان برمتها، وحالما علم محمود باشا بذلك أرسل فوراً من يخبر الكتخدا بما عزم عليه الشهزادة وطلب منه العون لصد هذه القوات. وبناء على هذه الأخبار تحرك الكتخدا بقواته من شيروانة متوجهاً نحو كردستان، وعند وصوله إلى بازيان علم أن عبد الله باشا قد عبر نهر ديالى بالقوات الإيرانية التي تحت قيادته ووصل بها إلى المحل المسمى خواجابي من ملحقات كلعنبر الواقعة في نهاية الحدود حيث أقام هناك وأخذ ينشر الرعب في قلوب السكان والعشائر المقيمين في تلك الجهات وبث الذعر في صدور سكان السليمانية وملحقاتها وقد

هرب بعضهم وتفرق خوفاً على حياته وصار الجميع في اضطراب وارتباك وبحالة يرثى لها.

لقد كان محمود باشا يستند على قوة احتياطية من عشائر الجاف واتخذها درعاً له يحمي بها ظهره، فلما بلغت الحالة إلى هذا الحد من الحراجة والتأزم فرت هذه القوة هي ورئيسها كيخسرو بك نحو جهة عبد الله باشا وما بقي من هذه العشائر هرب هنا وهنا متفرقين أفراداً وجماعات. وفي هذه الأثناء وصل الجيش إلى الموقع المسمى ديه رش الذي يبعد ثلاث ساعات عن السليمانية، وبوصوله هدأت النفوس المضطربة نوعاً ما وعادت إليها سكينتها ورباطة جأشها. وقد أرسل محمود باشا بعض الذين في معيته لاستقبال الجيش والترحيب به واتخذ له ما يقتضي من واجبات الضيافة، وبدلالة هؤلاء القادمين لاستقباله تقدم حتى وصل قرية باريكه وهي تبعد حوالي الساعة ونصف الساعة عن السليمانية وهناك حط رحاله في محاذاة وادي تانجرو من الجهة المقابلة.

أما محمود باشا الذي كان قد تعهد بجمع وتجنيد حوالي الثمانية آلاف مقاتل ويجهزهم بما يحتاجون ويجعلهم على أتم استعداد لخوض الحرب فإنه لم يتمكن سوى من جمع خمسمائة خيال ومائتين من المشاة، وبعد مضي أسبوع اشتغل خلاله في إعداد هذه القوة تحرك بها ونصب خيامه في الجهة المقابلة للجيش.

وهناك علم به عبد الله باشا وباغته وتمكن من زحزحته عن طريقه واتجه مباشرة إلى السليمانية واحتلها ومن هناك كتب إلى الشهزادة يعلمه بهذا الانتصار ويستنجد به لأن القوة التي تركها في المحل المسمى خواجابي قد تلكأت في مطاوعته وعن ملاقاة جيش الحكومة العراقية، وعليه فقد تحرك الشهزادة من كرمنشاه على رأس قوة تقدر بخمسة عشر

ألف جندي من الجنود الخيالة التي يسمونهم سرباد مع خمسة آلاف جندي من المشاة وكان المجموع عشرون أفاً بكامل أسلحتهم وعتادهم، وعلى حين غفلة انحدر بهذه القوة من الطاق واتجه نحو زهاو وعبر إلى الضفة الثانية من نهر ديالى وهناك سمح لقواته بنهب القرى الواقعة في طريقه. ثم أقام في نواحي زنكباد بضعة أيام. وقد قام جنوده خلال ذلك بمختلف الأعمال الإجرامية من نهب وسلب وتقتيل وبث الرعب في قلوب السكان الآمنين حتى وصلت أخبار ما يفعلونه إلى بغداد بواسطة الجموع الكثيرة التي فرت من وجه هؤلاء المعتدين بعضها إلى بغداد مباشرة وبعضها إلى كركوك والبعض الآخر إلى هنا وهناك.

ولأجل حماية هؤلاء اللاجئين وتوطينهم تشكلت لجنة تحت رئاسة صاحب الرأفة أحمد بك حيث سافر بها مع ثلة من القوات العسكرية نحو تلك الأمكنة، وبالوقت نفسه اتخذ الوالي التدابير والإجراءات الضرورية للحركة نحو هذا العدو الباغي ورده على أعقابه، وقد تحرك مقروناً باليمن والبركة والتحقت به العساكر التي ظلت تتهيأ وتستعد للسفر في أثره. وقد أرسل أمامه إلى كردستان من يخبر الكتخدا والأمراء الآخرين بحركته وبما اعتزم القيام به. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان من الأقدار التي لا يعلم وقت حدوثها إلا الملك الجبار، وعلى حد الكلام المأثور: إذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه.

وذلك أن الجيش الذي أرسل إلى كردستان والذي ذكرنا خبر إقامته في باريكه كان قد تأثر صحياً بسبب انتقاله من حرارة الجحيم إلى برودة الزمهرير وأثرت فيه أيضاً وخامة المناخ ورطوبة الهواء فأصيب بمختلف الأمراض التي راحت تشتد وتزداد يوماً بعد يوم وقد انتشرت تلك الأمراض بين الجنود انتشار الوباء. ولم يبق محتفظاً بصحته إلا مائتي

نفر من الألف، وكان يموت منهم يومياً ما بين الخمسة عشر والعشرين نفراً.

وقد استحوذت الواهمة على الآخرين حتى صاروا مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ الأمر الذي شجع عبد الله باشا ومن معه من الجنود الإيرانيين أن يتقدموا من خواجابي المحل الذي كانوا مقيمين فيه غير أن الخوف من بطش القوات العثمانية قد حملهم أخيراً على التراجع ثم عادوا وتقدموا حين تأكدوا من الحالة السيئة التي وصل إليها الجيش حتى أصبحوا على بعد بضع ساعات منه وأقاموا في المحل المسمى كوره قلعه في قره داغ ما بين الجبال.

وبما أن الجيش كان في حالة من التفكك بسبب مرض الجنود بحيث لم يتمكن معها من التحرش بالقوات الزاحفة عليه ولم يبق له ذلك الاستعداد والرغبة القوية في خوض المعارك فقد أجمعوا على تجنب مقابلة العدو بالابتعاد عن طريقه، وفي هذه الأثناء تلقى الكتخدا من الوالي بواسطة رسله تعليمات مشددة تقضي بوجوب مبادرة الشهزادة بالهجوم على قواته وعدم تمكينه من التقدم عن هذا الطريق.

ولما كان قائد الجيش وهو الكتخدا محمد آغا يضمر الخيانة والغدر وأنه إنما كان يتصنع الإخلاص لولي نعمته خلال توليه منصب الكتخدا مدة خمس سنين، ولما كان لا يعلم ما في الضمائر غير الله فقد خفي أمره على رؤسائه، كل هذه المدة، وبما أن النفوس الخبيثة تأبى أن تخرج من الدنيا قبل أن تسيء إلى من أحسن إليها وأن نفسه الخبيثة أبت إلا أن تسير على هدى طبيعتها فإنه كان على أتم استعداد للقيام بهذه الخيانة عند أول فرصة تسنح له وها قد سنحت له الفرصة الآن. إذ قد تبين أن المومأ إليه كان خلال مدة مكوثه في كردستان يراسل الشهزادة

وكانت مراسلاته مستمرة معه وكان يزوده بكل المعلومات الضرورية ومنها أنه كشف للعدو ما بلغ إليه الجيش من ضعف وعجز بسبب الأمراض التي تفتك به فتكاً ذريعاً، ولم يخبر ولي نعمته بحالة الجيش بل كتب إليه إنه على أتم استعداد لدحر العدو ويرجوه أن يعود إلى مقره وأن لا يتجشم عناء القدوم، ذلك لأنه أراد أن يقذف هذا الجيش المريض بوجه الأعداء مخالفاً كلام الله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقد أخفى نواياه حتى عن رؤساء الجيش وذوي الرأي من الضباط وأصدر أمره بالحركة نحو ميدان القتال متغاضياً عما يقاسيه الأفراد من آلام وأمراض ولم يصغ لنصائح رؤساء الوحدات لسوء نيته وخبث طينته، وقد تحرك فعلاً من باريكه يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر من شهر ذي الحجة والجيش في حالة يرثى لها من الضعف والهزال، وقد قطع به مسافة سبع ساعات حتى وصل يوم الخميس إلى المكان المعروف ببستان سور الذي يبعد مرحلتين عن مقر قوات عبد الله باشا ثم ألقى عصاه في قره كول التي تبعد ساعتين عن الممر، ولكي يخفي ما عزم القيام به أمر أن تتخذ الاستحكامات المقتضية في ذلك المحل وتهيأ للقتال ثم قام بتبادل الرسل مع عبد الله باشا بحجة إصلاح ذات البين واتخذ من ذلك مادة للدعاية لتلهية الجيش، وخلال ذلك توجه الشهزادة بقواته إلى هناك وأرغم الجيش على خوض غمار الحرب فخاضها مضطراً وكان ذلك في يوم الاثنين، وقد انضمت قوات عبد الله باشا إلى قوات الشهزادة حيث بلغت ما يزيد على الخمسة والعشرين ألفاً يقابلها حوالي الثلاثة آلاف من الجنود البواسل الذين أنهكهم التعب والمرض، ومع كونهم ظلوا يجهلون حتى ذلك الوقت نوايا قائدهم فقد أخذتهم الحمية الإسلامية والغيرة الوطنية واندفعوا غير هيابين وغير

مبالين بما هم فيه من ضعف وهزال وقابلوا تلك الطامة الكبرى من جيوش تزيد عليهم أضعافاً مضاعفة وأخذت أصوات المدافع تلعلع من الجانبين واستمر القتال على أشده من الصباح حتى المساء وكان النصر يتأرجح بين الجبهتين تارة إلى هنا وتارة إلى هنا، وقد بذل جنودنا من الشجاعة والبسالة ما حير الأعداء وزلزل أقدامهم وكادوا يولون الإدبار بوجه هذه القوة القليلة التي ثبتت وصبرت في الميدان برغم ما كان ينتابها من مرض لولا أن قائدها الخائن الذي كشف في ذلك الوقت عن طويته فأصدر أمراً بالتراجع وعدم التقدم وبذلك أربك الجنود وفت في عزمهم وتقهقروا إلى الوراء ثم انقلب هذا التقهقر إلى هزيمة نكراء. ولم يتمكن هذا الخائن من اللحوق بالشهزادة بسبب الفوضى التي سادت في ميدان القتال وترك كل ما لديه من معدات ومدافع وأدوات وأعتدة وحتى الخيام غنيمة باردة للعدو ثم اضطر إلى الفرار نحو كركوك حيث وصلها ليلة الأربعاء، وبعد مكوثه هناك ستة أيام التحق بعدها بجيش العدو خفية وحسب الخطة المرسومة ولم يكن بصحبته سوى أخيه علي آغا ونفرين من أتباعه وبذلك اختار ذل العبودية على عزة الحرية.

ولما كان المومى إليه بعمله هذا قد خان وطنه ودينه وحكومته وقام بعمل يدل على نكران الجميل والإحسان الذي كان ينعم به وأدى عمله هذا إلى إيذاء ذلك العدد الكبير من أفراد الجيش المسلمين وعرضهم إلى الهلاك والدمار فليس لنا إلا أن نمد أيدينا إلى الباري عز وجل أن يجازيه بما يستحق من العقاب على ما فرط منه من خيانة وكفران نعمة إنه عزيز ذو انتقام).

انتهى ما ذكره المرحوم رسول أفندي عن الحادثة وهو بهذا يعزو أسباب اندحار الجيوش العثمانية إلى تمرض الجنود وخيانة الكتخدا الذي

صد قواته ومنعها من التقدم لمقابلة العدو ثم هجم بها عليه. بينما إن هذا الرجل المسكين بريء من هذه التهمة أو وصمة العار التي وصمه بها، وكل ما في الأمر استقي هذه المعلومات من غير وجهها الصحيح ومن أفواه بعض الأشخاص بعد انتهاء المعركة، وإن اتهام الكتخدا بالخيانة وبالفرار إلى جهة العدو كان لغرض التحبب التقرب إلى الوالي ومراعاة الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

أما الحقيقة المستندة على أصح المعلومات الموثوق بها والتي رواها شهود العيان المطلعون على سرائر الأحوال فإنها تعزو هذا الخذلان إلى سببين: الأول أن الكتخدا المومى إليه كان على جانب كبير من الغباوة والبلاهة والثاني أن الشهزادة كان لديه حوالي الخمسة آلاف جندي من الذين تدربوا على الفنون العسكرية تدريباً عالياً، عدا بقية الجنود الآخرين، أما جنودنا فيتكونون من حوالي الألف محارب من أتباع محمود باشا فإذا أضفناهم إلى القوات التي أرسلها الوالي يكون المجموع عشرة آلاف مقاتل على وجه التقريب، بينما كان تحت قيادة الشهزادة ما يقرب من الثلاثة عشر ألف جندي من المشاة فقط وكلهم مدربون تدريباً عصرياً ومجهزون بالمدافع الحديثة، أما الخيالة فقد أعدوا إعداداً فنياً، وفي الوقت الذي كان يجب أن تتخذ قواتنا الاستحكامات القوية والتحصينات الضرورية على نهر ديالى للحيلولة دون عبور القوات الإيرانية النهر فإن الكتخدا لم يقم بشيء من ذلك وإنما أقام في قرية باريكه تلك القرية الموبوءة مدة طويلة الأمر الذي يعتبر من أكبر الأخطاء وقد استفاد الشهزادة من ذلك إذ عبر نهر ديالى وسيطر على دربند وعسكر في قلعة كودة التي تبعد ساعتين عن قواتنا، كما وأن محمود باشا حاول وألح كثيراً على ضرورة سد الدربند وتحصين الأمكنة الثلاثة

منه بوضع مائة مقاتل في كل مكان لمنع اجتيازه من قبل الأعداء ولكنه لم يستطع أن يقنع الكتخدا بذلك إذ أصر على القول بعدم وجود ضرورة لهذه الترتيبات، وقال إن إبقاء هؤلاء الجنود في الأمكنة المذكورة يجعل إيصال الذخائر والمعدات إليهم من الأمور الصعبة، ولما أخبره الباشا بأنه سيقوم هو بإيصال الذخائر إلى القوة المذكورة لم يقنع بذلك وأصر على وجهة نظره وبقي في مكانه.

وأخيراً استولت القوات الإيرانية على الدربند وتقدمت إلى الأمام وألقت الرعب في قلوب أفراد الجيش العثماني الذي كان معظمه إن لم يكن كله مريضاً أو قد يكون تمارض بعضه وتقاعس عن الدفاع ولم يقابل العدو سوى عدد ضئيل منه يقدر بثلاثة آلاف مقاتل، فهؤلاء وجلهم من فرسان حرس الأناضول أخذتهم الحمية واندفعوا إلى ميدان القتال ببسالة وشجاعة وحملوا على عدوهم ثلاث مرات ولكنهم جوبهوا في كل مرة بنار حامية من جنود مدربين في مقدمة الصفوف الإيرانية إذ تم تدريبهم على أيدي ضباط نابليون الأول إمبراطور فرنسا المشهور إذ كانوا قد أوفدوا لتدريب الجيش الإيراني تدريباً عصرياً وكان يرأسهم القائد المعروف المسيو دوه، فإن هذا القائد قد اتجه بقواته وصار إزاء الجناح الأيمن في الجيش العثماني وراح يقصفه من جانب النهر قصفاً متواصلاً حتى زحزحه وبعث الفوضى والارتباك في صفوفه.

لقد كان الواجب يقضي من الناحية الفنية العسكرية القيام بإجراء الكشف قبل كل شيء على المواقع التي تحيط بالجيش وتلك التي ستكون ساحات قتال، واتخاذ الاستحكامات والاستعدادات فيها، وكان من الضروري أيضاً اتخاذ خطوط ثانية وثالثة، ولكن مع أن كشفاً من هذا القبيل لم يقم به الجيش ولا اتخذ التحصينات والاستحكامات منذ

البداية فإن الجنود لم يكونوا مدربين على الحروب ولا يوجد منهم العدد الكافي لتوزيعه على خطوط القتال لإسكات مدفعيته.

والحاصل فإن هذه الحرب التي وقعت بين قوتين غير متكافئتين قد انتهت بانتصار الإيرانيين وتلذذوا بحلاوة الظفر ولم يكن بوسع الكتخدا إلا الفرار نحو كركوك بعدما استولى العدو على كل ما لديه من مدافع وعتاد وأجهزة وغيرها.

وبعد عودته إلى كركوك اتصل به بعض عارفيه ووسوسوا له وملأوا قلبه خوفاً من بطش الوالي وحبذوا له إنقاذ حياته باللجوء إلى الجانب الإيراني وقد اتخذ الوالي فرار الموما إليه ذريعة وحجة للدلالة على خيانته وكتب بذلك إلى الدولة العثمانية. وبعمله برأ نفسه من مسؤولية هذا الخذلان، والحال إذا نظرنا إلى القضية بعين الإنصاف نجد أن تكليف الكتخدا الموما إليه ما هو عليه من جهل وعجز بمثل هذا الأمر الخطير الذي ينوء به من هو أقدر منه لأنه فوق طاقته، يعتبر من الأخطاء التي تدل على تهاون المسؤولين وإهمالهم وتقصيرهم.

بيد إني أرى من ناحية ثانية أن القيام باتخاذ إجراءات كتعيين كتخدا جديد لقيادة هذه القوات مع فرض وجود مثل هذا الشخص، وعزل الكتخدا الموما إليه في تلك الظروف وفي وقت لم تكن قد بدرت منه خيانة أو مخالفة من الأمور التي تسترعي النظر، فكيف بها إذا اتخذت أثناء اشتداد الأزمة وأثناء مباشرة الأعمال الحربية، وعليه فإن إبقاء الموما إليه في منصبه يعد من باب اختيار أهون الشرين على رغم كونه مشهوراً بالبلاهة والغباوة بين سكان العراق، والذي اعتقده أن الوالي لم يكن غافلاً عن هذه الملاحظات.

ولما كان الشيء بالشيء يذكر فإن مما كان يحدثنا به صاحب العزة

حسين باشا المير لواء الركن لجيوش الدولة العثمانية في الحجاز والعراق المشهور ببسالته وتفننه في سلاح المدفعية عن مشاهداته القصة الآتية:

قال كان لفريقنا رئيس طباخين يسمى محمد آغا وكان هذا يروي لنا في كثير من المبالغة ما قام به من بطولات وما أبداه من شجاعة خارقة في الحروب التي وقعت مع روسيا وكيف أنه اشتهر بإقدامه وبسالته، ولم يفتأ يحدثنا عن الحروب التي خاضها وانتصر بها على الأعداء بكل فخر واعتزاز، وتشاء الظروف أن نخسر إحدى المعارك ويتفرق جنودنا ونضطر إلى ترك كل ما في حوزتنا من عتاد ومدافع وذخائر في الميدان غنيمة باردة للعدو، وكان هذا الآغا في أوائل الذين ولوا الإدبار وفروا من وجه العدو لا يلوون على شيء.

فلما انتهت الموقعة وانكشف العدو كان أول ما فعله الموما إليه أن جاء إلى ساحة المعركة يفتش بين الخيام وبين القتلى عن ابنه، ولما لم يجد له أثراً اعتقد جازماً أنه قتل في مكان ما وقال إني على رغم كوني أضعت قطعة من كبدي فقد أضعت أيضاً شرفي الذي هو أعز من ولدي وذلك بفراري من الميدان الأمر الذي جعل الحياة في نظري كالموت، قال هذا وأخرج مسدسه، فقلنا إنه سينتحر، ولكنه راح يطلق العيارات في الهواء وباتجاه المستشفى انتقاماً لولده ولشرفه، وقد ظن الذين في المستشفى أن هناك دسيسة حربية أو مباغتة، وانطرحوا على الأرض مخافة أن يصيبهم الرمي ولما تبينوا أن هذا من عمل محمد آغا هجموا عليه وكان عددهم يربو على المائة وقبضوا عليه وبعدما جردوه من سلاحه وقعوا به رفساً وصفعاً حتى قضوا عليه فكان شهيد رعونته وسخفه.

فهذا الكتخدا لا يختلف جنوناً وحمقاً عن ذلك الآغا فبسوء تدبيره

وبغفلته من إعداد العدد لمقابلة العدو فقد انخذل وتراجع إلى كركوك ولم يكتف بهذا بل تملكه الجزع والخوف من بطش الوالي ودفعه إلى اللجوء إلى العدو والارتماء في أحضانه، أما جنوده فقد تركهم طعمة إلى نيران الإيرانيين فأسروا بعضهم وتمكن البعض الآخر من الفرار حيث وصلوا إلى بغداد أفراداً وجماعات بحالة سيئة جداً.

هذا وبناء على الانتصار الباهر الذي أحرزه الشهزادة فقد انتفخت أوداجه فخراً وغروراً واتجه بقواته متقدماً نحو كركوك وفي ركابه الكتخدا محمد آغا ليكون له دليلاً وعيناً.

ولما وصلوا مكاناً يبعد ثلاث ساعات عن كركوك عسكروا هناك وكلف الكتخدا ودفعه ترغيباً وترهيباً بأن يتصل بأهالي كركوك ويحملهم على الخضوع والتسليم ومتابعة الشهزادة حقناً لدمائهم.

ولكن الأهلين لم يطاوعوه وتملكهم الحماس وأخذتهم الحمية والغيرة الوطنية واتفقوا على أن يكونوا يداً واحدة في الدفاع عن البلد إلى آخر نفس وعدم التسليم لهذا العدو.

فلما رأى الشهزادة إصرار الكركوكيين على المقاومة والدفاع وتأكد له أنه لا يستطيع التغلب عليهم إلا بخسارة كبيرة في قواته وأنه لما كان ينوي احتلال بغداد بل العراق برمته فقد ضن بقواته ولم يشأ أن يخسر قسماً منها في محاربة الكركوكيين، وعليه فقد صرف النظر عن احتلال كركوك وتركها محاصرة واتجه بقواته نحو بغداد، وبعد بضعة أيام اقترب منها وحط أثقاله في دلى عباس (المنصورية) التي تبعد عن بغداد مسافة عشرين ساعة وقد انتشر خبر اقترابه بين سكان بغداد[١].

(١) كان المفروض أن يتم الحديث بذكر نتيجة هذا الزحف وما جرى بعد وصوله مع قواته=

عشائر شمر جربا والعقيل تتغلب على يوسف آغا وقواته، محمد باشا ومحمد أفندي المصرف يقعان في كمين نصبه لهما شيخ محمد البردي، فرار محمد أفندي المصرف

كان قد أرسل يوسف آغا رئيس الحسابات إلى كركوك في شهر شعبان من السنة المذكورة لجباية بعض الرسوم والضرائب المستحقة، وعند وصوله إلى البلدة المذكورة عارضه عمر أفندي نائب كركوك السابق فما كان منه إلا أن أعدمه. وبعد إنجاز قسم من مهمته خرج من البلدة خوفاً من الوباء الذي انتشر فيها، وقد أمضى عدة أيام بين الأعراب ثم أصبحت قواته الخيالة البالغ عددها بضعة مئات وتوجه بها إلى الخالص.

وفي الخالص شعر بمقدمه قاسم باشا وكيل الوالي فأرسل عليه الشيخ صفوق شيخ عشائر شمر الجربا للإتيان به وبقوته. فراح هذا وجمع من عشائره ما يقارب الخمسمائة خيال مع ثلاثين من قوات العقيل المشاة وعبر بهم النهر وتجمعوا في قرية حديثة[١] لملاقاة يوسف آغا وقوته حيث عبر بها إلى تلك الجهة.

=إلى المنصورية ولكننا لم نجد في النسخة الخطية تتمة لهذا البحث. وقد علمنا من نجل المؤلف سيادة حكمت سليمان بك أن خزانة كتب المرحوم والده كانت قد التهمتها النيران وهذا الكتاب من بقايا الكتب التي استنقذت بعدما عبثت بها النيران وإن نقص بعض الجمل والصفحات يرجع إلى تلك الأسباب.

ومهما يكن فإن هذه الحادثة قد جاء ذكرها في كتاب دوحة الوزراء وهي من حوادث سنة ١٢٣٧هـ وملخصها أن الشهزاده أدركته الوفاة في دلى عباس واضطرب حبل نظام جيشه حيث عاد إلى إيران يحمل نعش الشهزادة المذكور ولم يتم لهم احتلال بغداد. (المترجم)

(١) حديثة ناحية تقع ما بين عنه وهيت من لواء الدليم وهي بلدة جميلة حالمة قد احتضنها الفرات من سائر جهاتها، وأهلها أناس طيبون بهم ميل إلى القناعة والزهد والتصوف وقد ترعرع بينهم المترجم وأمضى هناك شطراً من طفولته وعهود صباه فعليها وعلى تلك العهود ألف تحية وسلام.

ولما علم يوسف آغا بذلك أوعز إلى قوته بالاستعداد والتهيؤ ثم سار حتى التقى بقوات صفوق فتصاولا وتبارزا على الطريقة العربية وبعد ذلك هجم يوسف آغا والتحمت القوتان في عراك وطعن وضرب.

وكما نتعلم نحن لغتنا من أفواه آبائنا وأمهاتنا منذ الطفولة فإن صفوقاً قد تعلم الفنون الحربية منذ طفولته، فعندما لمح الموما إليه هجوم قوات يوسف آغا تظاهر بالهزيمة أمامها فاندفعت تلك القوات في أثره حتى اقتربت من نهر جاف لا ماء فيه وعندئذ تصدت لها قوة من المشاة العقيليين حيث كانت قد اختبأت لهذا الغرض وراحت تصليها ناراً حامية، وبالنظر لقرب المسافة فقد وقع من قوات يوسف آغا الكثير من القتلى والجرحى وتشتت شملها وأسر قائدها يوسف آغا وجيء به إلى صفوق.

إن هذا الانتصار الباهر الذي أحرزته قوة المشاة من عشيرة العقيل يعود الفضل فيه إلى بسالة صفوق وشجاعته على اعتقاد ذوي الخبرة القدماء ضاربين صفحاً عن ذكر ما قام به أولئك المشاة من عشيرة عقيل الذين إليهم لا إلى غيرهم يرجع الفضل في هذا النصر لما أبدوه من إقدام وشجاعة وبراعة في الحرب وعليه فإن رأي الخبراء في إسناد انتصار إلى مقدرة صفوق مما يدعو إلى الاستغراب.

قبل هذه الحادثة أي حادثة يوسف آغا كان المصرف محمد أفندي قد استصحب محمد باشا آل خالد باشا وجاء الاثنان إلى بغداد بسبب ما سبق ذكره من الحوادث الإيرانية. وتم الاتفاق على أن يذهبا برفقة الوالي داود باشا نحو جهة مندلي بالقرب من الحدود الإيرانية لغرض القيام بتحشيد مختلف القوات للدفاع وبعد جمع العدد الكافي منها يعود

عندئذ داود باشا إلى بغداد لإنجاز المهام الأخرى وفق ما تقتضيه الظروف والأحوال.

غير أن بعض المماليك مثل رضوان آغا أحد رؤساء الانكشارية القدماء الذين عين بعدئذ بوظيفة رئيس القوات النظامية. ومثل ضابط البلدة أحمد آغا لم يوافقا على هذا الرأي وتمكنا من إقناع داود باشا بالبقاء في بغداد وعدم مغادرة مقر حكمه. وقد انصاع إلى جهتهما، وتقرر أن يعسكر محمد باشا بمن معه من القوات الجاهزة وقدرها حوالي الخمسمائة نفر من الخيالة على أن تنضم إليها بعدئذ قوات يوسف آغا مع ما تجمع من المحاربين في الجانب الشرقي من بغداد. وقد وافق الجميع على هذا الرأي.

وفي أوائل المحرم الحرام من سنة ١٢٤٧ توجه كل من محمد باشا ومحمد أفندي المصرف نحو الخالص لسبب من الأسباب غير أنهما بعدما قطعا ساعة واحدة من المسافة تلقيا أخبار موقعة يوسف آغا وتأسيره واندحار قواته على الوجه المذكور. وعليه فقد عدلا عن مواصلة السفر إلى الخالص واتجها نحو نهر ديالى حيث عبراه بواسطة السفن الموجودة في شريعة السوالمة إلى الضفة الثانية من جهة خراسان (بعقوبة) على أمل الذهاب إلى بلدروز[١] وهناك فوجئا بعدد غفير من العشائر المتجمعة تحت أمرة قائمقام خراسان.

وقد تقدمت بعض هذه العشائر وأحاطت بمحمد أفندي المصرف لأخذه أسيراً. أما محمد باشا فقد أرسل الشيخ محمد البردي شيخ شمر

(١) بلدورز ناحية في لواء ديالى تقع ما بين بعقوبة ومندلي. (المترجم)

طوقه أحد أتباعه لإنقاذه من أيدي تلك العشائر خشية أن يصيبه مكروه مثل صاحبه.

لم يكن محمد باشا ومحمد أفندي المصرف يعلمان شيئاً عما بيته لهما الشيخ المذكور من سوء نية ولذلك وبعد أخذ ورد وافقا على النزول في دار الشيخ المومأ إليه كضيوف. ولكن في صباح اليوم التالي امتلأ الحي بالقوات التابعة للشيخ ويقدر عددها بخمسة أو ستة آلاف فارس، وقد أحاط الفرسان بيوت الشيخ وارتفعت أصوات الهوسات[١] من كل مكان كأنهم قادمون لخوض ميدان الحرب، ولما شاهد محمد أفندي المصرف هذا المنظر المخيف ترك مكانه وفر نحو محمد باشا لائذاً به.

أما محمد باشا الذي كان بمعيته حوالي المائتي فارس من فرسان البابانيين الأشداء فقد أبت شيمته وأصالته أن يترك رفيقه لنقمة هذه العشائر وقام فوراً وجمع قواته وهي لا تبلغ معشار ما تبلغه قوات الشيخ بردي وتهيأ للدفاع بعدما تأكد له أنهما هما المقصودان بهذه الحركة. وقد قرر الدفاع عن رفيقه وعدم التفريط به. وأخيراً اضطرته الحالة إلى الدفاع بالسيف والسنان وبينما كان في صراع مع أفراد تلك العشائر وإذا بذلك الرفيق ينتهز فرصة انشغال محمد باشا في ميدان القتال والخصام ويرتكب عار الفرار في سبيل إنقاذ حياته والأموال التي معه.

لقد خاض محمد باشا هذه الحرب في سبيل المحافظة على رفيقه لئلا يمسه أحد بسوء ولكن هذا الرفيق فرّ وتركه في الميدان يجالد ببسالة

---

(١) الهوسة نوع من الأناشيد الحماسية بين العشائر يرجز بها الأفراد والجماعات عندما يريدون خوض غمار حرب أو ما شاكل ذلك. (المترجم)

هو وجماعته الشجعان وبالنظر لقلة عددهم وتكاثر أفراد العشائر عليهم وإحاطته وجماعته إحاطة السوار بالمعصم فقد ذاق بعض جماعته طعم الشهادة وأصيب البعض الآخر بجروح مختلفة، ومع ذلك لم تهن عزيمته وظلوا يدافعون عن أنفسهم ويتراجعون شبراً شبراً حتى تمكن محمد باشا ومن بقي من أتباعه أن يصل بهم إلى ساحل السلامة.

أما محمد أفندي المصرف الذي ارتكب عار الفرار فقد وقع في أيدي الأعراب ونهبوا كل ما كان معه من أموال وأمتعة وجردوه حتى من لباسه واستطاع أن ينجو بنفسه بصعوبة متناهية.

الفوضى في بغداد وسوء أعمال بعض العشائر فيها

في اليوم الخامس من شهر محرم الحرام سنة ١٢٤٧ وصل القائمقام باشا (وكيل الوالي) إلى الكاظمية وأخرج فرمان الدولة العثمانية بتعيين والي جديد على العراق وإنه وكيل عنه وأخذ يقرأ ما تضمنه الفرمان على من حضر في ذلك المجلس من علماء ووجوه وأعيان وقد أجمع الكل على الانقياد والطاعة وامتثال إرادة السلطان.

وبعد ارفضاض المجلس ذهب حوالي المائة وخمسين شخصاً من السكان وهم بأسلحتهم نحو دار الوزارة معلنين فرحهم بورود الفرمان الذي يتضمن إرادة السلطان ظل الله في أرضه.

لقد كان داود باشا في ذلك الوقت يعاني آلام المرض الذي أصابه وكان في دور النقاهة ولم يكن معه في ذلك الحين أحد من موظفي دائرته ولا من الجنود النظاميين وإنما كان هناك حوالي العشرة أفراد من الخدم، ومع أن القادمين لم يتعرضوا لهؤلاء بسوء عند وصولهم إلى قرب باب السراي الداخلية، فإن رئيس الخدم بادرهم بثلاثة أو أربعة

إطلاقات لتخويفهم وتشتيتهم ولكن هذه الإطلاقات قد أصابت بعضهم بجروح، وقد اعتبر هذا من باب المقاومة والتمرد وعصيان أوامر السلطان، ولما كان مجيء هؤلاء الأهلين إنما هو لغرض إعلام داود باشا بعزله ولورود الفرمان السلطاني بذلك فقد تراجعوا وذهب كل واحد منهم إلى داره.

لقد رأى داود باشا أن حركة الأهالي هذه تدل على الهياج والعصيان ضده وأن لهذه الحركة ما بعدها وعليه وعند حلول الساعة الثالثة ليلاً انتهز فرصة خلو الطريق وانشغال الخدم وخرج من دار الوزارة ولاذ بالفرار بعدما أحضر أرملة الحاج محمد آغا ملتزم رسوم الاحتساب المتوفي بالطاعون والذي كان مشهوراً بين الناس باسم (قره بير)[١] وتركها في منزل الخاتون.

ولما علم الناس باختفاء الوالي داود باشا اجتمع القاضي والعلماء والوجوه والأعيان واتفقوا بالإجماع على إحضار الوالي بكل احترام من المحل الذي اختفى فيه والاحتفاظ به في دار صالح بك الابن الثالث للمرحوم سليمان باشا الكبير لتسليمه إلى علي باشا الوالي الجديد عند قدومه.

وبعدئذ توجهوا لاستقبال القائمقام الباشا وأعلموه بما فعلوه ثم أتوا به وبحاشيته إلى بغداد.

لقد جاء في ركاب الباشا القائمقام كل من صفوق وسليمان الغنام، ولما كان كل منهما من الذين طردوا وأبعدوا على عهد داود باشا وأنهما

---

(١) قرة بير معناها النيص الأسود، يقول صاحب كتاب (لغة ناجي) إن هذا الحيوان من الحيوانات المفترسة التي تعيش في الهند والأسد يخافها لأنها تتغلب عليه. (المترجم)

من الذين يكرههم الموما إليه فقد أخذا يثيران الفتنة من وراء ستار وأفسحا المجال لتوابعهما من الأعراب بارتكاب المنكرات ومختلف الاعتداءات حتى أنهم أخذوا يتعرضون بالأسر وعقائل النساء المخدرات اللواتي لا معيل لهن ويدخلون عليهن بيوتهن وينهبونها مع ما ينهبون من تلك الدور والبيوت التي تركها أهلوها وفروا من بغداد بسبب الطاعون، شأنهم في هذا شأن الأعراب في البادية يغير بعضهم على بعض وينهب بعضهم بعضاً، وقد وقعت عدة حوادث مؤسفة داخل البلدة، كما وأن صفوقاً نفسه أمر أتباعه بأن يأتوه بزوجة المير آخور[١] سليمان آغا إذ زعم أن علي باشا قد وهبها له، وأن يتحروا عليها في كل مكان ولا يعودوا إليه إلا بها.

وكما فعل أتباع صفوق فإن سليمان الغنام أيضاً قد أرخى العنان لأتباعه وسمح لهم بارتكاب ما ينافي الشرع والأخلاق من الأفعال المنكرة داخل البلد ولم يكتفوا بهذا بل راحوا يتعرضون بالأعراض والعوائل دون تمييز مما جعل الأهلين يعيدون النظر في موقفهم بعدما تبين لهم أن مطلب هؤلاء لم يكن عزل داود باشا فقط وإنما جاؤوا للسلب والنهب والتعرض بالنساء والأعراض وارتكاب المنكرات وأن يجعلوا البلد وساكنيه تحت رحمتهم وتحت سوء تصرفاتهم والموت أهون من هذا.

وقد ازداد حماس الأهلين وانتشر شيئاً فشيئاً حتى عم الجميع وحتى

(١) كان الاعتماد في الوسائط النقلية في ذلك الوقت على الخيل والبغال وكان لإدارة شؤون هذه الحيوانات من حيث تهيئة الاصطبلات والإطعام والمحافظة عليها وعلى صحتها دائرة رسمية خاصة وكان رئيس تلك الدائرة يسمى مير آخور ومعناها الحرفي رئيس الاصطبلات. (المترجم)

أصبحت الحالة تنذر بشر مستطير. ولكي يعيدوا الأمور إلى نصابها وينقذوا البلد من هؤلاء الغوغاء الرعاع فقد تقرر أن يتجهوا أولاً إلى صالح بك لكي يساعدهم على إعادة الوالي داود باشا إلى كرسي الولاية، داود باشا ذلك الرجل الذي كان يحكم البلاد منذ خمس عشرة سنة بعدل ونزاهة وقد رفع من شأنها واكتسب بعدله وحكمته شهرة واسعة ليس في بغداد فقط بل إنما ملأ صيته وسطوته أسماع الشعوب الأخرى في بقية الأقاليم.

وعليه فقد أتوا عن طريق النهر إلى دار صالح بك والتمسوه أن يسلمهم داود باشا ليأخذوه ويجلسوه على كرسي الولاية وتعهدوا بأنهم يستميتون في الدفاع عنه وعن البلد وكادوا بهذا يقنعون صالح بك بوجاهة فكرتهم ويسمح لهم باصطحاب داود باشا ولكن في هذه الأثناء هجمت عليه عقيلته وأفراد أسرته وجواربه ومن في بيته وحالوا دون ذهاب داود باشا وكثر صراخهم وعويلهم وانحدار دموعهم لا سيما عندما لاحظوا الهزال الذي أصاب داود باشا من جراء مرضه وأثر الطاعون في ساقه وكيف أن لونه قد حال وتبدل بسبب ذلك. وعندئذ تكلم داود باشا موجهاً كلامه إلى صالح بك وقال: إنني من مماليك المرحوم الوالد سليمان باشا وإنني الآن أسير في بيته فإذا خرجت من هذا البيت فسيكون مصيري إلى يد الخصوم حتماً، كما وأن اشتهاري بالثراء سيجعلني رهن تصرف قاسم باشا الذي سوف لن يتردد في إعدامي، وفوق هذا وذاك فإن التهمة التي ستكون أنت عرضة لها بسببي من جانب الدولة العثمانية لا يمكنك التخلص منها بسهولة ومع ذلك فإني أترك تقدير النتائج إليك لتفعل ما تراه.

ولما كان الوالي داود باشا مريضاً وليس من اللائق الإلحاح عليه

وأخذه من بين أيدي عياله فقد أعادوا النظر في الأمر وأخيراً قرروا بقائه بمكانه لحين قدوم علي باشا الوالي الجديد.

أما قاسم باشا القائم مقام الوالي فقد كان يلح على صالح بك لتسليم داود باشا إليه وقد حضر إلى داره لهذه الغاية وأخبره بأنه لن يتنازل عن هذا الأمر، ولكن صالح بك وقف بوجهه موقفاً حازماً وأعلمه بأن الوالي داود باشا إنما هو وديعة لديه ولا يمكن تسليمه إلا إلى الوالي الجديد شخصياً. وعليه ولأجل دراسة الموقف مرة أخرى فقد وافق على تأجيل البت في أمر المومأ إليه إلى اليوم التالي وعاد قاسم باشا إلى دار الوزارة.

وبعد ذهاب قاسم باشا استوضح داود باشا من صالح بك عما دار بينهما فأعلمه الخبر اليقين وكيف أن قاسم باشا لم يتنازل عن إصراره في أخذه، وعندئذ وبعد التشاور مع صالح بك أرسل داود باشا أحد أتباعه ليلاً إلى النقيب محمود أفندي يستدعيه إليه فحضر وبعد التداول وتبادل الرأي واتفاقهم على القيام بأمر ما عاد النقيب إلى داره.

وفي صباح اليوم التالي أرسل قاسم باشا إلى صالح بك يستحثه في أمر تسليم داود باشا، وفي هذه الأثناء حضر بضعة مئات من الرجال بكامل أسلحتهم والنقيب على رأسهم وأحاطوا بدار صالح بك وحالوا دون تسليم داود باشا إلى القوة التي جاءت لأخذه. ثم عرجوا من هناك إلى دار الوزارة بصخب وضجيج ولما رأى الأهالي هذه المظاهرة تناول كل واحد منهم سلاحه والتحق بجماعة النقيب حتى تكون منهم عدد يبلغ بضعة آلاف شخص وقد انضم المماليك أيضاً إلى الأهلين وصاروا جبهة واحدة وعلى رأي واحد وقرروا إنقاذ داود باشا ثم انضم أيضاً إلى هذا العدد الغفير جميع أفراد عشيرة العقيل وأحاطوا بسراي الحكومة من

أربع جهاته والتحموا بالقوات الموجودة داخل السراي وتبادلوا العيارات النارية.

لقد كان بعض وجهاء البلدة حينئذ في مجلس قاسم باشا فلما سمع بهذه الحركة أعاقهم عنده إلى أن تنكشف الحالة ولكن أحمد آغا رئيس القوات النظامية نهض من المجلس لغرض صد هؤلاء المتظاهرين وردعهم وتفريقهم، وعند اقترابه منهم أطلق بعض العيارات وانحاز إلى جانبهم أيضاً وراح يحرضهم في اقتحام السراي.

وقد روى والعهدة على الراوي أن أحد المماليك وهو الحاج عناية الله آغا قد تلقى بعض الإنذارات والتهديدات بوجوب التنحي والابتعاد. وعليه ولأجل إنقاذ حياته عبر النهر إلى الضفة الثانية قبل الحادثة بخمس عشرة دقيقة ومن هناك اختفى واختلط بين العشائر.

أما سليمان الغنام فقد جمع حوالي الألف مقاتل من جنود العقيل وراح يضع الاستحكامات في الأمكنة المهددة في السراي وتمكن برجاله من سد الثغرات التي أحدثها الأهلون ومنع اقتحامها وبذلك حال دون استمرار العمليات إلى اليوم التالي.

غير أن الجماعات المتفرجة التي لا رئيس لها ولا قائد قد اتفقوا مع بعض المماليك ووجوه البلد على أن يقصدوا الملا حسين قائد قوات القلعة الذي كان رئيساً لحرس داود باشا، وبعد المذاكرة معه بصدد الحالة وافق على أن يساعدهم ويمدهم بما لديه من قوات ومعدات حربية لإنجاح مساعيهم.

وعليه فقد بادر فعلاً ووضع مدافعه ما بين تربة كنج عثمان وجامع حسن باشا مع بعض القطعات ووضع مثلها باتجاه الجانب الغربي كما

ووضع بعض المدافع بالقرب من جامع القمرية الشريف واتخذ الاستعدادات العسكرية اللازمة داخل القلعة بنصب مدافع الهاون في الأمكنة الضرورية ولم يترك ثغرة إلا سدها وراح يضيق الخناق على القوات المحاصرة في السراي. ومع كل هذا فإن سلمان الغنام ظل يدافع ويقاوم ولم يتطرق الفتور إلى قواته التي راحت تصلي المهاجمين بنيرانها الحامية ومع ذلك فإن المهاجمين كانوا يزدادون قوة وحماساً وتمكنوا من الإحاطة بالسراي من ثلاث جهاته وأخيراً ولجوه من جانب سراي عائشة خانم.

كان قاسم باشا في هذه الليلة قد اصطحب بعض الوجوه الذين حضروا مع صادق أفندي وخرج بهم من السراي على أمل الاتصال بذوي الحل والربط من الأهلين لتقريب وجهات النظر، ولكنه لم يفلح في مسعاه إذ رفضوا مقابلته وأعلموه بعدم إمكان النظر في هذا الأمر في مثل هذه الظروف العصيبة، وخلال عودته تصدى له بعض الأفراد وكادوا يبطشون به ولكن المرحوم مصطفى بك آل الربيعي حال دون ذلك وتمكن من إنقاذه وإيصاله إلى مأمنه وكنت أحد الذين شهدوا هذه الحادثة.

لقد تملك الذعر قاسم باشا ولم يعد يأمن على حياته وراح رضوان آغا وهو من المماليك ولم يغادر السراي منذ بداية الحركة يهدىء من روعه ويطمئنه ويخفف عنه مخاوفه ثم تمكن من إخراجه من السراي وقت الغروب والذهاب به إلى داره للمحافظة عليه.

أما سليمان الغنام الذي بقي يقاوم ويدافع حتى المساء فإنه ذهب بعد ذلك إلى غرفة الخزينة وكسر أقفالها وفتحها وتناول كل ما يقدر على حمله من ذهب وفضة ونقود معدنية خالصة العيار وخرج بها هو وأتباعه

متجهين نحو باب المعظم وقد تركوا أبواب السراي مفتحة وألقوا بأسلحتهم هنا وهنا ليتمكنوا من حمل الأموال التي نهبوها وخرجوا من البلدة. ولما لم يجسروا على المرور من أمام الاستحكامات التي كانت في طريقهم فقد اقتحموا نهر دجلة للعبور إلى الضفة الثانية فغرق هناك بعض رجاله ونجا البعض الآخر.

لقد هرب سليمان الغنام من السراي على الوجه الذي بيناه وعند مروره بالأمكنة التي وضعت فيها الاستحكامات لم يتعرض به أحد ذلك لأن كل واحد منهم قد ذهب إلى بيته، وأما قاسم باشا فقد ألقي القبض عليه وانتهى أمره ولم يخرج للدفاع عنه أحد من جماعته التي تشتت وأن ما نهبه سليمان الغنام وجماعته من ذهب وفضة ونقود وغيرها قد اضطروا إلى إلقاء معظمها في طريق هروبهم فكانت من نصيب غيرهم. وإن الأهلين الذين اقتحموا السراي في أول الأمر ووجدوا الأبواب مفتحة لم يتقدموا إليها لأن غرضهم لم يكن السلب والنهب وإلا لفعلوا كل ما يرغبون فيه ولقضوا على من كان في السراي في بداية الأمر بالرغم من قيام قاسم باشا بإطلاق النار عليهم بإيعاز من سليمان الغنام ذلك لعدم وجود قوات نظامية في السراي حينذاك ولا قوات من العقيليين تستطيع الصمود والوقوف بوجههم.

لقد تفرد كل من الحاج أبي بكر الذي أتى بصحبة قاسم باشا، وصفوق وسليمان الغنام بإصدار ما يشاؤون من الأوامر المتضاربة دون استشارة بعضهم بعضاً ولم يكونوا على أمر جامع، كما وأن علي باشا لم يكن ليأمن جانب قاسم باشا وهذا لم يكن ليأمن جانب علي باشا، وأن قاسم باشا بالرغم مما كان يتصف به من فطنة وذكاء وخبرة فإنه لا استطاع أن يحمل جماعته على التزام الشعائر الإنسانية والتمسك

بالأخلاق الطيبة ولا استطاع أن يقودهم ويحول دون وقوع مثل هذه الحادثة.

وفي اليوم الثاني اتفق المماليك والأهالي على أن يذهبوا إلى دار الحاج صالح بك ابن سليمان باشا وأن يرغبوه في تولي كرسي الولاية بالوكالة، غير أنه عارضهم في تنفيذ هذه الفكرة وأعلن بصراحة أنه لا يرغب في ذلك كما وأن داود باشا الذي هو بمثابة أبيه لا ينصح له بركوب هذا المركب الخشن لأن في تولي هذا المنصب كل معاني العصيان والتمرد لأوامر الدولة العثمانية.

أما واقعة قاسم باشا فإنها وقعت خلاف رغبته وإن منع وقوعها كان فوق طاقته، وبما أن داود باشا أيضاً لم يوافق على تحمل هذه المسؤولية وأنه إذا وافق يكون عندئذ محروماً من الألطاف التي يأمل نوالها من الدولة العثمانية بالرغم من كونه قادراً بكل سهولة على إعادة الأحوال إلى نصابها، وعليه وبعد المداولة قرروا بالإجماع بأن يتولى صالح بك ولاية بغداد بالوكالة رضي أم أبى ولم يفد معهم امتناعه.

وبعثوا إلى مقر السلطنة يعلمونها بما فعلوه وبما حدث وبأنهم يتعهدون بالصرف على جنود الحكومة في بغداد والبصرة وشهرزور وأن يقدموا عدا ما استحق عليهم من ديون سابقة ألفي بدرة في السنة الأولى وثلاث آلاف بدرة في السنة الثانية على أن يزداد هذا المبلغ سنة بعد سنة حتى يصل إلى العشرة آلاف بدرة بإضافة ألف بدرة في السنة مع بدل عن العفو قدره عشرة آلاف بدرة نقداً وأن الأهلين كافة يتكافلون ويتضامنون في دفع هذه المبالغ كل ذلك في سبيل أن تتكرم الدولة إما بإعادة داود باشا إلى منصبه السابق وإما بإسناد الوزارة إلى الحاج صالح بك. وفي حالة عدم موافقة الدولة العثمانية على تلبية هذا الالتماس

فإنهم يرجون إعهاد هذا المنصب إلى رجل آخر من رجال الدولة العظام ما عدا علي باشا لأنهم غير راغبين فيه ولا يأمنون جانبه وأنهم لا يتحملون مسؤولية ما يقع من أضرار بخزينة الدولة في حالة عدم إجابة مطلبهم، وإلى أن تبت الدولة بهذا الأمر التمسوا إبقاء علي باشا في الموصل وقد بعثوا بصورة من هذه العريضة إليه.

أما علي باشا فإنه حالما علم بوصول قاسم باشا إلى بغداد تحرك من الموصل. وفي اليوم الذي تجاوز فيه نهر الزاب تلقى الأخبار غير السارة عن الحوادث التي وقعت في بغداد وكان قد أوعز إلى قواته بأن تأخذ نصيبها من الراحة بعد عبور نهر الزاب، وهناك انتشر بين الجنود ما حدث في بغداد، ولكي لا تبعث هذه الأخبار الفتور والتراخي بين صفوف القوات رأى أن يصدر أوامره إليهم بالتهيؤ لمواصلة السفر بأسرع ما يمكن بحيث كان يقطع مرحلتين في اليوم الواحد، وبعد مرور مدة قصيرة كان على أبواب بغداد بنحو ساعة واحدة منها وضرب خيامه بين البساتين في محلة الصليخ.

محاصرة بغداد

إن وصول الوالي بهذه السرعة، وفي مثل هذا الظرف الذي كانوا ينتظرون فيه ورود قرار السلطان بشأن ما اقترحوه، قد بعث إلى قلوبهم الدهشة والاستغراب، وعليه فقد سارعوا بعقد اجتماع عام حضره العلماء والوجوه ورؤساء القوات كافة وقرروا بالإجماع باتفاق الآراء أن يلتزموا خطة الدفاع عن البلد وعدم مفاتحة الوالي الجديد علي باشا بشيء من المخابرات والمكاتبات وأقسموا على أن يكونوا كلهم يداً واحدة لمواجهة الطوارىء والاحتمالات وعدم تمكن الوالي من دخول البلدة.

وعلى هذا حشدوا ما تبقى من جنود المشاة النظاميين الذين كانوا على عهد داود باشا ثم سرحوا بعدئذ وهم حوالي الخمسمائة ضابط وجندي، وقد حضر هؤلاء دون تردد وأخذوا يستعدون وجعلوا أنفسهم رهن إشارة وكيل الوالي الحاج صالح بك.

وبالنظر لفيضان دجلة الذي غمر الجانب الغربي من بغداد، وجعل هذا الجانب مكشوفاً ولوجود أفراد آخرين من الجنود الذين كانوا قد جندوا على عهد داود باشا ويبلغ عددهم ما بين الستة والسبعمائة من الخيالة وخمسمائة من المشاة العقيليين، فقد أنيطت بهم حراسة باب الإمام موسى تحت قيادة أحد رجال داود باشا الذي كان يتولى في زمانه منصب الخزينة دار وهو سليمان آغا، وكذلك جرى تخصيص قوة مماثلة بقيادة البيكباشي النظامي محمد آغا لمحافظة باب الكريمات.

أما داخل القلعة فقد عهدت قيادة القوات الموجودة فيها إلى السر حشمة ملا حسين، وجعلوا على كل طابية عدداً كافياً من قوات المماليك تحت رئاسة أحد ضباطهم وهكذا تحصنت بغداد تحصيناً تاماً من أربع جهاتها.

لقد كان تحت قيادة علي باشا كتيبتان لمستشفى الميدان وفوجان من المشاة كان قد جاء بهما من حلب واثنا عشر ألف جندي من مختلف الأصناف والقطعات. ويبلغ مجموع ما عنده خمسة عشر ألف جندي ولكن معظمهم بدون أسلحة وبدون مدافع ومهمات حربية، الأمر الذي يجعل من العسير عليه احتلال بغداد والاستيلاء عليها حرباً. لذلك ولتناقص الذخيرة والمؤن التي معهم يوماً أثر يوم فقد محا الوالي من صحيفة فكره دخول بغداد عنوة، وبدل الخطة التي كان قد رسمها لدخول بغداد وراح يفكر في إيجاد حفلة أخرى.

كان أحد المماليك قد انحاز إلى جانب الكتخدا محمد آغا أثناء العصيان الذي حدث في الحلة، ومنذ ذلك الوقت ظل الموما إليه يقضي أيامه شريداً بين الأعراب، وذلك هو المدعو رستم آغا، فلما علم بمقدم الوالي الجديد عاد إلى الحلة واندمج ضمن الذين خرجوا لاستقبال الوالي في ذلك الوقت وقد تمكن بلطيف الحيل من التقرب إليه حيث عينه بمنصب الكتخدا ثم التحق بداود باشا وصار من أتباعه، غير أن هذا الرجل كان قد هرب عندما حدث الطاعون في بغداد واتجه نحو بدرة وجصان وهناك استطاع أن يجعل له نوع اتصال بالجنود اللاوند وتعرف عليهم وصادقهم وبهذه الطريقة تمكن من استمالتهم نحوه، وبالاتفاق معهم قبض على رئيس الكتيبة المعين من قبل داود باشا ثم جمع حوالي الألف خيال من اللاوند والتحق هو وسعدون آغا أباظة بمعسكر الوالي الجديد مع أفراد آخرين وقد تسللوا نحوه بصورة سرية ومتفرقة، وقد قال لهم الوالي عند مثولهم بين يديه أنه كان على وشك أن تعهد إليه ولاية حلب تلك الولاية التي يتحسر على نوالها الوزراء ولكنه نزولاً عند رغبة المقام الرفيع تركها ووافق على تولي ولاية العراق على ما فيه من مشاكل وصيف قائظ لا تطاق حرارته، كل ذلك بسبب واحد وهو القبض على داود باشا. والقبض عليه يعتبر كسباً ونصراً للدولة لأنها لا ترغب بعد الآن أن تترك بغداد تحت حكم أحد من المماليك وأنها لم تجد من بين رجالها سواي ممن يستطيع أن ينجز هذه المهمة من غير المماليك، ولذلك جئت أحمل الفرمان السلطاني الذي ينص بتعييني لمنصب الوزارة في بغداد ويخولني حق اتخاذ كل ما يتطلبه الأمر من الإجراءات، وإني بعدما أنفذ منطوق هذا الفرمان سأحاول العودة إلى المحل الذي أختاره.

وهكذا وضع في كل فم قطعة من الحلوى مع توصيتهم بأن ينقلوا كلماته هذه إلى الذين يعتمدون عليهم بصورة سرية.

وقد استطاع أيضاً أن يجمع حوله معظم الذين كانوا قد هجروا بغداد بسبب الطاعون، وجمع أيضاً الكثير من المماليك وراح يمنيهم ويعدهم بمختلف الأماني والوعود، وأنه سوف يقطعهم الأراضي الواسعة عدا ما سيتحفهم به من إكرام وإنعام.

ثم أخذ يقرب إليه أولئك الذين لم يكونوا يستطيعون الوصول إلى دار الوزارة ولم يروا وجه الوالي إلا في مناسبات الجمع والأعياد، إن هؤلاء بالنظر لما وعدهم به الوالي أخذوا يألفونه ويتزاحمون على التقرب إليه والدنو منه قدماً قدماً ويعلنون له الطاعة والامتثال لكل ما يأمرهم به.

وفي الوقت الذي كان الجنود القادمين مع الوالي يعانون الأمرين من نقص المؤن والعينة وندرة الحصول على العلف لحيواناتهم، أصبحوا بفضل هؤلاء الناس يتلقون المساعدات من هنا وهنا وتتحسن أحوالهم رويداً رويداً بينما أخذت الأحوال تتأزم في البلد والضائقة تشتد على عكس ما عليه الجيش الذي تحت قيادة الوالي.

وأخيراً وبالنظر إلى الحصار والضيق وأزمة المعيشة التي انتشر ظلها في البلدة فقد اجتمع الوجوه من الأهالي ورؤساء الوحدات العسكرية وذهبوا إلى القائم مقام الوالي الحاج صالح بك وعقدوا هناك مجلساً للمداولة والمشاورة وإيجاد الحلول للمشكلة التي وقعوا فيها.

وقد افتتح بعضهم الكلام قائلاً: إنكم تعلمون أن البلدة أصبحت في ضيق وحصار، وأن الطرق كلها قد سدّت مسالكها، والأمة تشتد يوماً بعد يوم وأن الجنود والمتطوعين يحتاجون إلى طعام وغير ذلك ويجب علينا أن نهيء لهم ولحيواناتهم المؤن والأرزاق والعلف وما يكفيهم من الأشياء الضرورية الأخرى لكي نحول دون تذمرهم، وهذه كما تعلمون

من أهم الواجبات التي ينبغي النظر فيها بصورة مستعجلة وإلا فالأمور في غاية الخطورة.

وهنا قام آخر وقال إن العلاج ينحصر في شيء واحد وهو الهجوم على معسكر علي باشا ومباغتته والقضاء عليه. فتصدى للكلام بعضهم مستنكراً الهجوم على الوالي الذي يمثل الدولة وأردف قائلاً بأننا إذا فعلنا هذا الأمر فماذا عسى يكون عذرنا وجوابنا للمقامات العليا في الدولة العثمانية عن هذا العمل؟ وهنا انبرى أحد الحاضرين وخاطب الجميع بشدة وقال، من جهة تقومون بأعمال تدل على الثورة والعصيان والتمرد وتقتلون القائم مقام الوالي وتغلقون أبواب البلد وتتخذون التحصينات وتوجهون قذائف مدافع الهاون نحو المعسكر، ومن جهة أخرى تريدون مباغتة جيش الوالي بالهجوم عليه فجأة فهل فكرتم قبل الهجوم بطريقة اجتياز الموانع والتحصينات التي وضعتموها في الطريق بحيث تجعل المرور منها يكاد يكون مستحيلاً إلا بعد عمل شاق يتطلب وقتاً غير قليل، فإذا كنتم تأمنون جانب علي باشا فهلموا نتفق كلنا على رأي واحد نزيل عن طريقه العقبات ونفتح له الأبواب، وإلا فلنمضي قدماً في ما بدأنا به، ولنتخذ ما يكفل لنا المحافظة على أرواحنا.

وقد أيد أكثر الجالسين وجهة نظر المومأ إليه وقالوا إن إلقاء كل واحد منا حبله على غاربه وجلوس كل منا مطمئناً في بيته لا يؤدي إلى نتيجة محمودة.

ثم أخذ الواحد بعد الآخر يتعاقبون على منصة الخطابة وأخيراً تقدم المسيو دوه معلم الجيش النظامي ووقف وسط المجلس وقال:

عندي تدبير واحد فإذا سمحتم عرضته عليكم. ولما سمح له صالح بك قال: ليس من الصواب إطلاق كلمة جيش العدو على جيش علي

باشا وإنما يصح أن نقول عنه إنه عبارة عن قافلة بدون رئيس وردت للمتاجرة أو أنه شرذمة من الرجال والنساء من عابري السبيل.

إن الجيش الذي تحت قيادة علي باشا قد ألقى عصاه ورحاله على شاطىء دجلة وعلى بعد مسافة ساعتين وظل قابعاً بمكانه كأنه جاء للنزهة وعليه فمن السهولة بمكان أن تخرج من باب المعظم تحت غسق الليل كتيبة من الجنود المشاة لا يتجاوز عدد أفرادها الخمسين أو الستين مجهزين بما يكفيهم من سلاح وتتجه هذه الكتيبة نحو رؤوس البساتين وتباشر الهجوم من هناك على القوات المعسكرة في تلك الجهة، ثم في الساعة الخامسة ليلاً تتجه قوة مؤلفة من بضعة مئات من الجنود المقيمين في الجانب الغربي الذين اتخذوا لهم مواقع في باب الإمام موسى وتتظاهر بالتقدم نحو جيش الحاج أبي بكر آغا وتقوم بإطلاق بعض العيارات النارية في الهواء ثم تتظاهر بقية القوات بالهجوم من باب الإمام الأعظم كأنما تقصد الدفاع عن قوات الحاج أبي بكر آغا التي بوغتت وبهذه الدسيسة الحربية نكون قد مهدنا الطريق لعمل آخر وهو خروجي أنا بعد ذلك بخمسمائة جندي نظامي من المشاة وأربعمائة من الخيالة المتطوعين وثلاث قطع من المدفعية، ويكون خروجنا من الباب الأبيض متسترين بظلمة الليل ونتجه بهذه القوة نحو مخيم علي باشا مباشرة ونحيط بجيشه وننشر الرعب في قلوب أفراده ثم نفتك ببعضهم ونلقي بالبعض الآخر في النهر، وإني لإنجاح هذه الخطة لضمين.

وقد قابل الحاضرون هذه الفكرة بكل ترحيب وقرروا تنفيذها حالاً وفي أمسية هذا اليوم.

كان درويش آغا يصغي بهدوء لأقوال الخطباء كل هذه المدة ولم ينبس ببنت شفة، ودرويش آغا هذا من أبناء المماليك، وكان الولاة

ينظرون إليه نظرتهم إلى آبائهم، وكانوا يعهدون إليه بوظيفة الكتخدا من وقت لآخر، وعندما يتغيبون عن البلد يجعلونه قائماً بمقامهم في تصريف الأمور. فلما وصلت المذاكرة إلى هذا الحد تنحنح وانتفض واقفاً على قدميه وخاطب الجمع قائلاً: نعم إنني أستحسن ما ذهبتم إليه من رأي، وأن الغالبية والمغلوبية بيد المشيئة الإلهية وكلتاهما مجهولتان ولا يستطيع أحد أن يحكم مقدماً بالنصر والغلبة، وكل واحد منا يتمنى أن يكون هذا النصر بجانبنا، ولكننا من جهة ثانية كنا قد ذكرنا في المحضر الذي قدمناه إلى الدولة العلية بأن المسؤولية كلها تقع على عاتق قاسم باشا وعزونا إليه هذه الاضطرابات، وبالنظر لانسلاب ثقتنا بسبب سوء تصرفات الموما إليه التمسنا من الدولة تبديل علي باشا، وإلى الآن لم تتلق جواباً. ولا ندري ما عسى أن يكون ذلك الجواب، فإذا قمنا بحركة كالحركة التي عزمتم القيام بها قبل ورود الجواب وقضينا على وزير من وزراء الدولة العظام أو ألحقنا بجيشه خسارة ما، ذلك الجيش الذي هو أحد جيوش الدولة العثمانية فكيف نضمن عندئذ قبول ورضاء مثل السلطان محمود خان المشهور بالعناد والشجاعة، وكيف يحتمل هو هذه الإهانة التي نلحقها بأحد وزرائه وبأحد جيوشه، وما عسى يكون موقفه أمام الدول الإسلامية وغيرها من هذه الحركة.

وعليه فإذا كنتم مصممين على تنفيذ ما اعتزمتموه فإن عملكم سوف لن يختلف عما عمله بكر صوباشي وعندئذ سوف تكون هذه البلاد غنيمة باردة بيد الأعاجم وسوف يكتب لنا التاريخ صحائف سود عن هذه الحركة ويلحقنا العار إلى يوم القيامة.

ولما انتهى إلى هنا أطرق الجميع وكأنما على رؤوسهم الطير، ولما لم ينطق أحد منهم بكلمة عاد الموما إليه وأردف قائلاً:

إذا كان لا بد من إنقاذ البلد من الحصار وسد أفواه العوام من الناس عن القيل والقال فلنقم أولاً بطرد قوات سليمان الغنام المترصدة والمتربصة بنا ونزيحها من مواقعها التي اتخذتها أمام باب الحلة وأن نشتت أفرادها ونمزق شملها وبعدئذ نترك مسؤولية المحافظة على الوطن على عاتق أبنائه المخلصين وأن نتجنب التعرض بجيش الوالي إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وقد أجمع الحاضرون على هذا الرأي وصرفوا النظر عن الفكرة السابقة وراحوا يستعدون لدفع سليمان الغنام وأتباعه وإبعادهم عن الديار.

انخذال سليمان الغنام واندحاره ونبذه عن عشيرة العقيل

بناء على ما تقدم بيانه من قرار المجلس بالإجماع على رفع سلمان الغنام وأتباعه عن البلد للتخلص من شره فقد اتخذت الاستعدادات اللازمة بهذا الصدد وتحركت ليلاً بعض القوات النظامية التي يبلغ عددها الخمسمائة جندي مشاة ومثلها من الخيانة المتطوعين ومثلها أيضاً من فرقة المشاة العقيليين.

ولما بلغت هذه القوات قنطرة المسعودي[(١)] انتقل خبرها إلى مسامع سليمان الغنام بواسطة بعض أتباعه الذين كان قد أعدهم للترصد وتسنم الأخبار، فما كان منه أن نهض هو أيضاً وعبأ قواته التي تبلغ الألف مقاتل من عشيرة العقيل وخرجت من خيامها وتقدم منها نحو ثلاثمائة فارس إلى ميدان القتال، وبناء على الخطة التي رسمها كل من الحاج

(١) قنطرة المسعودي تقع بالقرب من محطة سكك حديد الحلة والبصرة في الحال الحاضر ولم يبق من تلك القنطرة أثر في وقتنا. (المترجم)

صالح بك والمسيو دوه فقد وضعوا خمسمائة فارس في الميمنة ومثلهم في الميسرة ووضعوا المشاة العقيليين في القلب، ووضعوا في الخط الثاني القوات النظامية المشاة وتركوا قوات الأهلين المتطوعين للاحتياط.

وقد باشرت الحرب فرسان الجهتين، وراح بعضهم يصاول بعضاً على الطريقة العربية في البراز ثم أغار أتباع صالح بك من الفرسان الأشداء على أقرانهم من جانب العدو وأمطروهم وابلاً من الرصاص وتمكنوا من دفعهم إلى الوراء وظلوا بين كر وفر حتى أخذ العدو يتقهقر وهؤلاء يتقدمون شيئاً فشيئاً ومن خلفهم المشاة الذين كانوا بقيادة صالح بك في الخط الأمامي وقد صار العقيليون وجهاً لوجه من الجانبين وبعضهم يرمي بعضاً. وهجم أيضاً المتطوعون الأهليون. ولما رأى المسيو دوه أن أقدام العدو قد أخذت تتزلزل تقدم بقواته النظامية والقوات الأخرى التي كانت تحت قيادته وقام بحركة التفاف وجعل العدو بين نارين واضطرهم إلى الفرار فتركوا مخيماتهم وذخائرهم غنيمة باردة وولوا الإدبار وانهزموا هزيمة منكرة والقوات الحكومية تتعقبهم وتوقع بهم خسائر فادحة ما بين قتلى وجرحى.

وقد روى شاهد عيان أن خسائر قوات صالح بك كانت ما بين العشرة والخمسة عشر قتيلاً.

لقد كان من الأمور المستغربة أن تنقسم عشيرة العقيل على نفسها فيكون قسم منها في جانب العدو، والقسم الآخر في جانب الحكومة، ويقاتل بعضهم بعضاً بضراوة كأنهم لم يكن بينهما صلة أو رابطة قبلية، غير أن عجبنا واستغرابنا يزول إذا علمنا أن عشيرة العقيل تتكون من فرقتين الأولى اتخذت نجد مقراً لها وتسمى القصيمات والثانية وإن كان

أصلها من نجد غير أنها ترجع إلى شمر الجربا وهي مولعة بالحروب وتسمى الشمامرة.

لقد كان الأقدمون يعتبرون كلتا الفرقتين قبيلة واحدة ولكن الطبيعة البدوية وخشونة حياة البادية قد فرقتهم وأفقدتهم الروابط والصلات القبلية، وبما أن هذه الفرقة كانت تعيث في الأرض فساداً تنهب وتعتدي وتغير على هذا وذاك وكان شرهم في ازدياد مستمر كلماوجدت إلى ذلك سبيلاً فقد كان الولاة العظام ينصبون على كل فرقة شيخاً وبسبب هذه الرئاسة أخذت الفرقتان تفترق إحداهما عن الأخرى تدريجياً إلى أن اتسع الخلاف والشقاق بين الاثنين وأصبحا وكأن كل واحدة من الفرقتين لا رابطة لها مع الأخرى.

وقبل وقوع حادثة صادق أفندي جرى اصطدام بين الفرقتين في الجانب الغربي أدى إلى وقوع بعض القتلى والجرحى من الطرفين، ولما كان رئيس الشمامرة سليمان الغنام هو البادىء بالاعتداء فقد التمس علي باشا من والي بغداد أبعاده ونفيه ففعل.

وبعد تلك الواقعة ازداد تنافر الفرقتين وقد انحازت إحداهما إلى الحكومة وظلت الأخرى محرومة من رعايتها.

أما سليمان الغنام فبما أنه معدود من الشمامرة وأنه أصبح اليوم تابعاً لعلي باشا والي بغداد الجديد فإن الفرقة الثانية من القصيمات التزمت جانب الحكومة وانضمت إلى قوات الحاج صالح بك واتخذت موقفاً حازماً ضد فرقة العقيليين التي كانت تحت قيادة سليمان الغنام.

لقد ارتفعت المعنويات بعد هذا الانتصار الباهر وتشجعت القوات لخوض ميادين القتال أينما تكون. أما سليمان الغنام فإنه بعد هذا

الاندحار والخذلان فر بمن بقي من قواته التي تبلغ البضعة مئات واتخذ له مقراً بجوار العشائر القاطنة قرب الدورة وراح يقوم بأعمال إجرامية ويقطع الطريق على المسافرين ما بين بغداد والحلة. ويعبث في الأرض فساداً ولم يتردد في الإغارة على العشائر المجاورة ونهب أموالها وتخريب بيوتها.

ولأجل تأديبه واستئصال شأفته تقرر إرسال سرية عليه من سرايا الخيالة المتطوعين ومن بعض المماليك يبلغ عددها الألف مقاتل وأوعز إليها أن تلتحق ليلاً بالمعسكر الذي اتخذه الحاج بكر آغا أمام باب الإمام موسى ثم تسافر من هناك إلى وجهتها المقصودة، ولكن بالنظر إلى تعذر اجتياز الطرق التي غمرتها مياه الفيضان، وكثرة الأوحال في طريق هذه القوة، فقد تعذر عليها مواصلة السفر ولم تستطع التقدم الأمر الذي اضطرها إلى العودة نحو البلد على أمل التهيؤ والسفر صباحاً، غير أن عودة القوة المذكورة أدى إلى انتشار إشاعة قرب اندلاع نيران الحرب بين الحكومة وبين معسكر الوالي الجديد.

طبائع الأشياء تفرض وجودها

على أثر مشاهدة عودة القوة المذكورة من قبل سواد الناس الذين يجهلون ماجريات الأمور والذين ضاقوا ذرعاً بالحصار وراحوا يترقبون الفرص للشغب وللانتفاض على المواقع القريبة منهم فقد انتهزوها فرصة وتجمعوا وشددوا النكير على الحامية بوجوب فتح باب الإمام الأعظم وإفساح المجال للخروج بحجة الالتحاق بالقوات المحاربة عن هذا الطريق الذي لا يوجد فيه من الأوحال ما يحول دون سلوكه وأنهم عزموا على القيام باتخاذ الاستحكامات الحربية بين البساتين.

وقد حاول رضوان آغا وهو أحد رؤساء المماليك الذين يتصفون بالعقل والحكمة أن يحول دون هؤلاء الثائرين ويصدهم عن اقتحام الباب قائلاً: أيها الإخوان أيها الآباء إن القيام باتخاذ الاستحكامات خارج البلد وخارج الخطوط العسكرية والهجوم منها على العدو في رابعة النهار ليس من الصواب فدعوا الأمر لنا وانتظروا قليلاً لكي تروا بأعينكم ما سنفعله من التدابير والإجراءات التي ترضيكم.

وقد بذل جهداً لإقناعهم فلم يصغوا إلى أقواله ولما كان (الذي برأسه صوت لازم يصيحه) فإنهم قابلوه بتهكم وشتموه واقتحموا الباب وفتحوها وتزاحموا على الخروج منها في حماس شديد واندفعوا مسرعين نحو بستان المرحوم سعيد باشا.

ومن هناك قاموا بمظاهرات صاخبة وحركات بهلوانية، واتجهوا هم ومن لحق بهم من الجنود الخيالة نحو القوات التي كانت قد تحصنت في الطابية[1] على ضفة النهر، ولما رأت هذه القوة تقدم المظاهرات واقترابها منها لاذت باستحكاماتها وراحت تستعد للمقاومة والدفاع عن نفسها، ولكنها لم تصمد بوجه هذا السيل الجارف واختارت عار الفرار.

ولما وصل هذا الحشد إلى هناك استولى على ما في الطابية من عتاد وسلاح وبضمن ذلك مدفعان.

وفي طريق عودتهم إلى بغداد تذكروا أن هناك طابية أخرى في شارع الإمام الأعظم فساروا نحوها. وقبل اقترابهم منها تصدت لهم القوات النظامية الموجودة فيها وأخذت تطلق عليهم نيران بنادقها ومدافعها من بين البساتين فقابلوها بالمثل وتبادلوا إطلاق النار مدة من الوقت، وبينما

---

(١) الطابية موقع حربي.

هم على هذه الحالة إذ أقبل لنصرة الحامية أحد عشر فارساً من أصل مائة وخمسين من القوة التي كانت مرابطة تحت جدار القلعة بالقرب من باب المعظم فهجموا على القوات الأهلية من بين نخيل بستان الدفتردار وتمكنوا من كشفهم وحملهم على التراجع حيث ولوا الإدبار نحو المدينة وهؤلاء الفرسان في أثرهم، ثم تقدمت أيضاً بقية القوات التي كانت موجودة في بستان الدفتردار واشتركت في مطاردتهم ورمتهم بنيران مدافعها وعم الهرج والمرج ولم يعد يعرف المهاجم من المدافع.

لقد كنت في هذه الأثناء أرقب الحركات من طابية السلطان سليم داخل القلعة، وكانت القنابل التي تطلق من المدفعية المتحصنة في بستان الحاج صالح بك تمر من فوق رأسي بما يقرب من الذراع والذراعين وكان القتال قد احتدم بالقرب من باب المعظم، وكان أزيز المدافع التي تطلق من داخل القلعة يهز الأرض هزاً عنيفاً.

أما الذين كانوا يتفرجون ويرقبون من على الأسوار فرار الأهليين أمام الأحد عشر فارساً فقد اعتراهم الذعر وانهزم كل واحد منهم لائذاً بمسكنه.

وقد حدث التحام بين المهاجمين والمتراجعين في هذا المكان وفي الخندق شمل قوات الطوابي والمماليك حيث أبلوا بلاءاً حسناً ولم يعودوا يفكرون بقضية منصب الولاية بقدر تفكيرهم في تغلب الخصم على خصمه.

أما قوات علي باشا فقد استغلت هذا الموقف وتقدمت حتى بلغت قرب الخندق في باب المعظم. ثم لما رأت قيام الحرب الأهلية على قدم وساق عادت من حيث أتت ولم تتعرض بأحد وقد ألقت بما كانت قد استولت عليه في طريقها من السلاح وبعض المدافع في باب الكرد،

ثم احتاجت إلى استعمال السلاح أثناء تراجعها وذلك لكي تدافع عن نفسها أمام القوات النظامية التي تصدت لها ولاحقتها وظلت تطاردها حتى اضطرتها إلى الالتجاء إلى المقابر حيث جرى تبادل إطلاق النار وأخيراً افترق الخصمان وعاد كل منهما إلى مقره.

وهكذا كانت نتيجة اندفاع قوات غير مدربة ولا خبرة لها بالفنون الحربية ولا تملك سوى الحماس والتهور والاندفاع بغير تفكير. ولا شك في أن مصير مثل هذه الحركات إلى الهزيمة والتفرق أقرب منها إلى الفوز والانتصار، وتلك سنة الله وطبائع الأشياء. والتاريخ مملوء بمثل هذه الحركات والقصص التي وقعت حوادثها في مختلف الأزمنة والأمكنة، وإلا فما معنى تصدي أحد عشر نفراً من بين مائة وخمسين من القوة التي كانت قد اتخذت موقعها خلف جدار القلعة لهذه الجموع الهائلة وتفرقها وتلقى الهزيمة بها، وما معنى هربها كالنساء بوجه الأحد عشر نفراً كما شاهدت ذلك بأم رأسي وعيني.

تعليل اندحار القوات النظامية

إن اندحار القوة التي كانت معسكرة ومتحصنة في بستان سعيد باشا وتسليم الطابية وما فيها من عتاد وسلاح إلى المهاجمين يرجع سببه إلى أن هذه القوة لم تكن مدربة وليس على رأسها قائد محنك يوجهها ويرشدها.

وإن استيلاء الأهلين عليها وعلى ذخيرتها قد شجعهم على الهجوم على المواقع والمعسكرات الأخرى وأن المعاذير التي برروا بها فشلهم وخذلانهم في هذا الباب لم تكن مرضية ولا مقبولة.

ثم إن هناك علة أخرى وهي أن الثائرين الخيالة والمشاة هم من أهل

بلد واحد فقد اندفعوا بدون قيادة وبدون تنظيم واقتحموا الباب وخرجوا ولم يكن بينهم من يحول دون خروجهم. كما وأن حسن آغا آل علي أفندي ناظر المصرف على عهد داود باشا الذي شهد كثيراً من الوقائع الحربية كان من جملة المحرضين للأهالي على اندفاعهم ولما كانت له منزلة بينهم لكونه من القره غول فقد أطاعه الأهلون وأخذوا برأيه وتوجيهه.

أما القوات الرسمية فإنهم هم أيضاً قد سرت إليهم العدوى ومالوا نحو المروما إليه. مضافاً إلى ما تقدم أن الحاج صالح بك قد ترك الأمور تجري في أعنتها ولم يقم بما يفرضه عليه واجب الرئاسة التي يتقلدها، وقد ترك القواعد والاستحكامات على ما هي من نقص وإهمال، الأمر الذي سهل الاستيلاء عليها ومهد لقوات علي باشا ومن تبعها بالتقدم والطمع في الفوز والانتصار، ﴿سنة الله قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ ولنعد إلى ما كنا فيه.

دهاء علي باشا والنفور بين النقيب السيد محمود أفندي وخطيب الأعظمية السيد أحمد أفندي

إن وقوع هذه الحرب الأهلية وإطفاء نارها، وعودة الأمور إلى نصابها لم يفت في عضد علي باشا، بل راح يعمل من ناحية أخرى بطريقته الخاصة، وقد بذل مختلف المساعي والنشاط للتقرب من الناس وجذبهم إلى جانبه بالترغيب والتشويق وببذل الوعود المعسولة الخلابة لهم وحثهم على الانتقاض والثورة على الحكومة القائمة في بغداد.

يقوم علي باشا بمثل هذه النشاطات والتشبثات في الوقت الذي نرى الحاج صالح بك ما زال على عادته منصرفاً إلى الكأس والطاس

ومجالس الأنس والطرب ويقضي جل وقته في اللهو والمنادمة كأن لم يكن في الباب أسود فاغرة أفواهها تريد الانقضاض عليه وعلى البلدة كلها.

أما داود باشا فقد بقي المسكين محجوراً ومهجوراً ولا يطيق حراكاً في دار صالح بك وترك الأمور تجري كيفما تشاء.

غير أن رستم آغا الذي كان كتخدا لداود باشا، ظهرت منه بعض البوادر المريبة إذ راح يكاتب المماليك ويمنيهم بقرب عودة داود باشا إلى الحكم وعودة نفوذ المماليك وما إلى ذلك.

وقد تمكن من جذبهم إليه والتأثير على أكثريتهم، وحملهم على التهاون في تمشية المصالح والأعمال وعدم الاكتراث بتمشية المعاملات الرسمية، في الوقت الذي أهملها صالح بك وانصرف عنها، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الفتنة قد تجددت ما بين خطيب الروضة الأعظمية السيد أحمد أفندي وبين السيد محمود أفندي النقيب وراح كل منهما يكيد لصاحبه بسبب ما بينهما من عداوة قديمة، ولم يتمكن صالح بك من رفع سوء التفاهم ولا من التوفيق بين الاثنين، وأخيراً اشتد سعير الحسد في قلب السيد أحمد أفندي وقرر الخروج من بغداد والالتجاء إلى علي باشا ليكون في ركابه، وقد نفذ قراره وخرج خفية تحت جنح الظلام، ولما حظي بالمثول بين يدي علي باشا، رحب به كثيراً وقربه، ثم راح يكاتب أصحابه وأتباعه في بغداد ويستميلهم ويشوقهم على اللحوق به ومتابعة الوالي الجديد علي باشا. وقد اقتدى به عبد الرحمن أفندي الأورفه لي إذ بدل زيه وقيافته وهرب من بغداد وانضم إلى جماعة علي باشا حيث نال التقدير والإكرام.

ولما بلغت الحالة في بغداد أشدها كتب كل من الحاج صالح بك

وداود باشا إلى الشيخ عجمي رئيس عشائر المنتفق يستنجدان به ويستحثانه على الحضور لمعاونتهما في إنقاذ بغداد، وقد تحرك فعلاً غير أن رستم آغا الكتخدا حرض عليه العشائر الأخرى التي في طريقه لكي تحول دون مجيئه، ولما رأى أن لا سبيل للوصول إلى بغداد عاد أدراجه إلى المنتفق.

أما الحاج صالح جلبي الزهير، الذي كان قد انضم إلى أتباع الوالي الجديد، فقد كتب إلى جماعته وأصحابه في البصرة يحثهم ويدفعهم إلى الانقضاض على متسلمها التابع لداود باشا وهو عزيز آغا، وقد أخرجوه بالفعل وتولوا الحكم مكانه. ووصلت أخبار هذا التمرد إلى بغداد وصارت حديث الخاص والعام.

ومع أن أبواب بغداد كانت محكمة الإغلاق فإنها تتلقى كل ليلة مقداراً من قنابل المدفعية التي تطلقها عليها قوات علي باشا وتقابلها بالمثل مدافع بغداد، وكلتا المدفعتين لم تصب أحداً بأي ضرر أو خسارة لأن الرمي كان في الهواء وكان القصد منه التخويف والتأثير على المعنويات.

المذاكرة حول تسليم بغداد

وبعد تلك المناوشات التي بيناها آنفاً وصل إلى باب المعظم وفد من قبل علي باشا وطلب أن يبرز إليه وفد من بغداد للمذاكرة معه قرب الحديقة خارج الأسوار وتعهد بعودة الوفد المذكور سالماً.

وقد رشح صالح بك سفيان أفندي من المماليك وملا حسين السر جشمة، وبعد مواجهة رئيس وفد علي باشا وهو حمدي بك وتسليمها شروط الصلح قال لهما حمدي بك أن الوالي علي باشا يهدي تحياته

وسلامه إلى الجميع، ويوافق سلفاً على الشروط المعروضة، ويؤكد بأن الفرمان السلطاني قد حتم عليه تولي ولاية بغداد، وأن الحيلولة دون تنفيذ الأوامر السلطانية ليس معناها إلا التمرد على السلطان نفسه، هذا وفي حالة امتثالهم وتنفيذ ما أمر به السلطان فإنه يتعهد بإصدار عفو عام عن الجرائم والمخالفات السابقة، وبعكسه فإنه بحكم واجبه مضطر إلى اتخاذ الإجراءات القسرية ومعاقبة المخالفين.

وقد عاد الوفد وأخبر الحاج صالح بك بما سمع. ومع أن هذه الحوادث قد بعثت اليأس والقنوط والحزن إلى قلوب الذين لا يريدون الصلح مع جيش الوالي فإن الحاج صالح بك لم يعر الأمر أي اهتمام. أما الآخرون فقد وقعوا في حيص بيص وظلوا يفكرون كيف يعالجون الوضع، وكيف يتصرفون وفق مقتضيات الحالة، بينما انبرى غيرهم من الوجهاء، والبارزين والذين يميلون إلى السلامة والمحافظة على الحياة يراسلون الوالي علي باشا ويعرضون عليه خضوعهم وطاعتهم.

ولما بلغ خبر هؤلاء مسامع الحاج صالح بك، قرر عقد اجتماع عام يحضره كلا الطرفين أي الذين يميلون إلى المصالحة، وأولئك الذين يرغبون عنها، للوصول إلى قرار حاسم في سبيل المحافظة على أرواح الجميع سواء كانوا من الأهلين أم من القوات المسلحة. ولكنه تغافل أخيراً حتى عن هذا الأمر الخطير وتهاون فيه.

احتلال بغداد من قبل الوالي علي باشا

لما كان «كل سر جاوز الاثنين شاع» فقد وصلت أخبار اعتزام وكيل الوالي عقد الاجتماع المذكور ثم الفتور الذي طرأ على الوكيل في أمر اتخاذ العدة وتسهيل انعقاد الاجتماع. وبما أن مندرجات الفرمان

السلطاني قد انتشرت بين الخاص والعام وأنه لا بد من تسليم بغداد للوالي الجديد بموجب الإرادة السنية، فقد أدرك المماليك عندئذ أنهم أصبحوا ضحية لداود باشا، وانكشف لهم أنهم كانوا منخدعين لرستم آغا الكتخدا، وأخذوا يضربون أخماساً بأسداس ووقعت بينهم البلبلة وساد فيهم الاضطراب والارتباك وفترت هممهم ولم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون.

وقد انتهز السيد أحمد أفندي خطيب الإمام الأعظم هذه الحالة، وكتب إلى جماعته وأصحابه المقيمين في محلة «باب الشيخ» وإلى الذين يسكنون بجوار «الشيخ عبد القادر الكيلاني» بصورة خاصة، أن يتعاونوا على اختطاف السيد محمود أفندي النقيب والإتيان به إليه.

وبتدبير من الموما إليه توجه ليلاً عدد منهم يقدر ما بين الثلاثمائة والأربعمائة نفر بكامل أسلحتهم واقتحموا دار السيد النقيب وأخرجوه تحت حراسة قوية، وذهبوا به خارج بغداد حيث سلموه إلى الأشخاص الذين أتوا لهذه الغاية واقتادوه إلى معسكر علي باشا.

أما أكثرية المماليك الذين انحازوا إلى رستم آغا الذي كان قد استحصل لهم الصفح والعفو فقد راحوا يزيلون العقبات ويمهدون السبيل للوالي وأتباعه لدخول بغداد. وبالوقت نفسه أحاطوا بدار الحاج صالح بك الذي من شدة سكره لم يعد يعرف شيئاً عن الحالة[١].

ومجمل القول إن أتباع علي باشا قد اقتحموا الطريق إلى البلدة من

---

(١) تمثل المؤلف هنا بمثل تركي وهو:
ذوقي أورند ايلر تمام كيم طوته مست ونادكام برامده جام لاله فام برالده زلف خم بخم.
وقد أراد به التهكم بموقف الحاج صالح بك. (المترجم)

الباب المظلم[١] واختطفوا النقيب السيد محمود أفندي كما بينا آنفاً، وتمكنوا من عزل الحكومة عن الشعب، وحالوا دون قيام الأهليين بأي عمل يحول دون تقدم القوات الزاحفة على بغداد.

ولما بلغت أخبار هذه الساعة الحرجة مسامع قوات العقيل من قبيلة القصيمان المرابطة في الجانب الغربي، أرسلت وفداً من رجالها وأمرائها إلى داود باشا وفاءاً بتعهداتها وإخلاصاً لرؤساء حكومتها وقابلوه ليلاً وعرضوا عليه إخلاصهم وتفانيهم في خدمته وقالوا له بفصاحتهم وبلسانهم العربي العذب: أيها الوالي المحترم ها هو ذا الباب المظلم قد فتحه الأهلون وأن معظم المماليك قد غرر بهم رستم آغا وانحازوا إلى جهة علي باشا، فإذا تتفضل بالموافقة على مطاوعتنا فسوف نخرج بك من بغداد ونوصلك إلى شيخ عشائر المنتفق حيث المكان الأمين.

إننا نبلغ الآن الخمسمائة مقاتل بكامل أسلحتنا نتعهد أن ندافع عنك ونحميك ونبذل في سبيلك آخر قطرة من دمائنا حتى تصل إلى مأمنك.

قال الراوي، فلما سمع داود باشا كلامهم هذا استمهلهم نصف ساعة للتفكير في الأمر، وراح خلال هذه المدة يعبث بلحيته وبعدئذ قال لهم: إني أقدر لكم هذا الحب والإخلاص والتعرض من أجلي إلى المخاطر والتهالك في مثل هذه الظروف العصيبة، فلقد جعلتموني في غاية الامتنان والشكر الجزيل، ولكني أيها السادة الأماجد لم أزل أشكو من الجروح التي أصابتني، وأن المرض الذي أعانيه يحول بيني وبين السفر المرهق.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن عشائر المنتفق أو غيرها لا يسعني

---

(١) (قرانلق قپو) ولعل هذا الاسم اصطلاح يقصدون به الباب السري. (المترجم)

الاعتماد عليها لأن مساعدتها في هذا الصدد مع كونها مجهولة فإنها ربما انقلبت إلى عكس المطلوب وذلك بالهجوم علينا طمعاً في أموالنا، ومهما يكن فإني أفوّض أمري إلى الباري عز وجل واستسلم لمقدراته، كما وأنني أخولكم حق اتخاذ الموقف الذي يحفظكم ويحفظ أموالكم وعيالكم، ثم ودعهم وودعوه وانصرفوا.

بعد قيام دود باشا بتأدية صلاة الفجر امتطى صهوة جواده وسار حتى دخل القلعة وكان فيها السر چشمة الملا حسين الذي كان المشار إليه يعطف عليه ويشمله برعايته منذ عشرة سنوات. فلما وقع نظره عليه أخذته الحيرة واعتراه الحزن والارتباك والذهول واغرورقت عيناه إشفاقاً عليه من القتل ولم يعد يعرف كيف يقابله وكيف يكلمه، وأخيراً تقدم نحوه بكل لطف وأدب وقال له: سيدي ما الذي أتى بك في مثل هذا الوقت؟ ولما علم أنه يريد أن يسلم نفسه إلى الجهة المسؤولة التمسه عندئذ أن يدخل دار ولده نوح بك القريبة إلى أن يتلقى أمر الوالي الجديد بشأنه.

وبعد بضعة ساعات جاء سكرتير الوالي ورئيس أركان حربه وقابلا داود باشا وتقدما نحوه بالتحية بكل أدب واحترام، وأبلغاه سلام علي باشا والتمساه أن يتفضل معهما لمقابلته في مخيمه الخاص. ولما اقتربوا من المحل المقصود وجدوا علي باشا واقفاً خارج خيمته بانتظار القادم، فلما أبصره هرع نحوه وحياه بلهفة وشوق واحترام لا مزيد عليه، واصطحبه ودخلا سوية إلى الخيمة. وفي تصرف علي باشا هذا كل معاني النبل والرجولة والإنسانية والأخلاق الكريمة، وبالإضافة إلى هذا فقد قدم إلى داود باشا بيده فنجان القهوة وهدأ من روعه، وأقسم له بأغلظ الإيمان أنه آمن على حياته ولن يمسه سوء. ثم جيء بصالح بك

فأمنه أيضاً وكساه خلعة من الخلع التي كان قد أوجدها السلطان محمود خان، ثم أعاده سالماً إلى داره.

أما المماليك والسكان الذين بقوا مطوقين داخل البلدة فقد عفا عنهم، وأنعم على وجوههم كل حسب منزلته وبذلك انحلت الأزمة وعاد الأمن إلى نصابه.

لقد سمح لداود باشا بالمكوث لتصفية أشغاله ثم سفر إلى «بورصة»[1] هو وأمتعته وأمواله. وصدرت الأوامر بوجوب مرابطة الجيش خارج البلدة إلى ما بعد سفر الوالي داود باشا. وخلال هذه المدة أنيطت وكالة الولاية بعهده درويش آغا الذي سبق ذكره.

وبعد سفر داود باشا أي في يوم السبت الموافق ليوم الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة سبع وأربعين ومائتين وألف دخل علي باشا بغداد يتقدمه الجيش بكل عظمة وأبهة.

أما الذين تعهدوا لداود باشا بأن يأخذوه إلى المنتفق من قبيلة القصيمات العقيليين فقد تجمعوا وخرجوا يوم دخول علي باشا إلى بغداد فتصدى لقطع الطريق عليهم خصمهم اللدود سليمان الغانم على رأس قوة تقدر بحوالي الثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل، وبالنظر لكون الفرقتين تنتميان إلى عشيرة شمر، وكلاهما على جانب كبير من الشجاعة والبسالة والإقدام، وأن الغالب لن يكون في نجوة من الانتقام فقد أفسحوا لهم المجال بعد مناوشة طفيفة دامت حوالي العشر ساعات، وأخيراً اتجهوا نحو «عشائر زبيد» للاستراحة، وفيما هم يستريحون باطمئنان وأمان، وإذا بهذه العشيرة تغير عليهم على حين غفلة وتعمل

---

(١) بلدة تركية تقع في الأناضول.

يدها فيهم سلباً ونهباً حسب عادات الأعراب، الأمر الذي أعاد إلى الأذهان صدق حدس داود باشا حينما أرادوا أن يذهبوا به إلى المنتفق.

كنت قد التقيت ذات ليلة بالمرحوم عثمان سيفي بك، الذي أصبح كاتباً خاصاً لديوان علي باشا، والذي كان قبلاً محصل كناهية[١] وتوفي سنة ١٢٦٤، التقيت به في الأستانة سنة ١٢٦٠ ورحنا نستعرض الماضي وحوادثه، فلما أنجر بنا الحديث إلى حصار داود باشا في بغداد قال:

لم يكن في بغداد حينذاك من يعرف دقائق الأمور. إن الرجال المسؤولين في الدولة كانوا قد استشعروا الخطر عند وقوع حادثة قاسم باشا، واحترازاً مما حدث في القرن الحادي عشر من نتائج قضية بكر صوباشي وبناءاً على متطلبات المصلحة وضرورة تسوية الأمور وتأمين عدم وقوع تمرد وما شاكل ذلك فقد تقرر السيطرة على بغداد، وإخراج داود باشا منها بالتي هي أحسن، ولم يكن أحد يعرف هذا القرار سوى اثنين: علي باشا وأنا. وعلى هذا الأساس أوفد حمدي إلى بغداد للتوسط لدى الحكومة المحلية بصدد فتح أبواب بغداد، وإفهام المسؤولين بواقع الأمر. ولقد صبرنا بعد ذلك عشرة أيام وتحملنا تلكؤ المسؤولين في الإجابة وفي فتح البلدة ثم كان ما كان. ولو لم تتلابس الأمور ولم يقم الأهلون بتلك الحركات والتصرفات التي تشعر أنهم من جانبنا، لكان من المقرر القفول والعودة من حيث أتينا، لا سيما وقد كنا على أبواب الشتاء، إذ يتعذر فيه القيام بالحركات الحربية.

وكان ما قاله المومى إليه عين الصواب، ففي ذلك الوقت كان داود

---

(١) كتاهية أو كوتاهية بلدة تركية في الأناضول. ومحصل كتاهية تؤدي معنى جابي ضرائب في كتاهية. (المترجم)

باشا محجوراً كما بينا آنفاً، وكان الوكيل الحاج صالح بك منصرفاً إلى لهوه ولعبه، يعاقر الخمرة مع ندمائه ليلاً ونهاراً، بالإضافة إلى كونه غير أهل للقيام بالأعمال الجليلة المطلوبة منه باعتباره قائماً مقام الوالي، وإلا لكان قد استغل الوضع وتصرف بما يلائم الظروف.

أما الباقون فليس بوسعهم القيام بأي عمل في هذا الصدد إذ ليس في يدهم شيء من الأمر. كما وأن القوات الأهلية سواء كانوا من المماليك أم من غيرهم لم يكن ليهمهم شيء فيما إذا تقلد أمورهم أناس منهم أو من غيرهم إذ ربما يكونون تحت إدارة الغير أحسن حالاً.

بالإضافة إلى هذا فإن بقية المماليك المستوطنين داخل البلد وخارجه قد غرر بأكثرهم رستم آغا وسعدون آغا ومالا بهم إلى جانب علي باشا بصورة سرية.

وقد لعبت المواعيد الخلابة والتمنيات الجذابة دورها الفعال في تحويلهم وانحيازهم إلى علي باشا. أما العشائر من العقيل فإنهم بطبيعة الحال يتبعون أوامر رؤسائهم أينما يميلون مالوا معهم. وأن داود باشا أيضاً لم يقم بعمل في مصلحته وترك الحبل على الغارب.

ولو كان على رأس الحكم رجل قدير غير صالح بك لتبدل الحال كما قال عثمان بك.

ومهما يكن من شيء فإن إرادة الله تعالى هي الغالبة، وأن الله سبحانه وتعالى ﴿يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء﴾ وعليه فقد انتزع الملك من أيدي العراقيين وحرموا من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها قبل ذلك، وأصبح كل امرىء منهم مشغولاً بنفسه.

وقد وقعت هذه الحادثة سنة ١٢٤٧ وحتى الآن أي سنة ١٢٧٧ لم يتقلد أحد من الأهلين أية وظيفة ذات أهمية، وكان حرص مصطفى نوري باشا على عدم إعطاء وظيفة ما للعراقيين عبارة عن إجراء لتنفيذ الإرادة الربانية، لأن إرادة الله تعالى هي الغالبة وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وكما سمعت القصة الآنفة الذكر من عثمان بك، فقد سمعت أيضاً القصة الآتية من حمدي بك في عدة مناسبات وهي: أنه لما أخرج داود باشا من بغداد وجاء به إلى المعسكر كان الاجتماع منعقداً في مجلس علي باشا، ومن المماليك الذين حضروا ذلك الاجتماع الكتخدا رستم آغا، وسعدون آغا، والكتخدا السابق الحاج أبو بكر آغا، وكثير من رؤساء الدوائر والوحدات وكانوا يتذكرون في أمر داود باشا وهل يقتل أو يُسفر حياً؟ وكان هؤلاء كلهم يصوتون على إعدام داود باشا.

كان في أوائل سلطنة السلطان محمود خان قد حدث تمرد واتهم به أحد الوزراء المشاهير، وهو علي باشا، والي يانية[1] الذي قتله خلفه الصدر الأسبق خورشيد باشا، ولكن هذا الوالي بقي طوال حياته منفوراً من قبل رجال الدولة العلية ومتهماً في إخلاصه، وعليه ولكي لا يكون مصير الوالي علي باشا مماثلاً لمصير خورشيد بك فلم يكترث بأقوال هؤلاء وحكّم عقله في أمر داود باشا وأكرمه وأنعم عليه بالأمان.

أقول إن داود باشا بعد وصوله إلى (بورصة) نال العفو من السلطان محمود خان ثم أنعم عليه بمنصب يليق به، وخلع عليه الأوسمة الرفيعة في الوقت الذي لم يكن من المؤمل أن تصدر من السلطان المشهور

(١) (يانية) ولاية من الولايات الأوروبية التي كانت تخضع للدولة العثمانية

بسرعة الغضب وقوة الشكيمة والميل إلى الانتقام هذه المراحم، ذلك لأن هفوة بسيطة صدرت من صادق أفندي، أحد وكلاء الدولة المشهورين، ويقال إنها كانت بتدبير من محمد علي باشا والي مصر، أدت به إلى الموت.

ولا شك أن ما ناله داود باشا إنما هو من الألطاف الربانية.

مذبحة المماليك

لقد تمكن علي باشا من دخول بغداد والسيطرة عليها بفضل السياسة التي اتبعها كما سبق بيانه، وقد امتزج المماليك من زملائهم في الجيش وتقاسموا المناصب فيما بينهم، وعلى الأخص رستم آغا وسعدون آغا وثالثهم صالح آغا المشهور بين الأعراب والبدو بلقب أخو شوكة. وراح هؤلاء وأمثالهم يعملون لمصالحهم الخاصة في الداخل والخارج بحيث تركوا علي باشا كلفظ بلا معنى أو كالببغاء، بينما الذين أتى بهم من حلب وديار بكر والرقة من موظفين ووجوه وأعيان بقوا يتلمضون ويقضون أوقاتهم سدى وبلا عمل، وهذا شيء لم يكونوا ينتظرونه.

ثم بدأوا يتململون ويتهامسون حتى وصل تذمرهم من المماليك وكيف أنهم استولوا على كل شيء، في الوقت الذي ظلوا وهم البطانة الخاصة للوالي، يعانون البطالة، إلى مسامع الوالي. وكثر الغمز واللمز في مجلسه عن المماليك وتصرفاتهم، إلى أن طفح كيل الوالي وامتلأ إناء صبره واحتماله وقرر التخلص نهائياً من المماليك في أول اجتماع بهم، وراح يستعرض أفعالهم ويجمع الأدلة التي تدينهم. فهذا من الذين كان داود باشا يعطف عليه ويقدمه، وهذا كان منفوراً ومطروداً بسبب سوء تصرفاته، وهذا من الذين ارتكبوا أعمالاً إجرامية. وذاك كان يأتي

أعمالاً مضرة أيام الحصار. وغير ذلك من التهم الوهمية التي تبرر إعدامهم.

وإن التهمة التي وجهها إلى بعض المماليك من أنهم كانوا يحاولون القيام بعمل لإخفاء داود باشا وإبعاده لا نصيب لها من الصحة. ولم يكن أحد من المماليك يتدخل بمثل هذه الشؤون السياسية سوى رستم آغا وسعدون آغا، وهذان كانا يأملان أن ينال كل واحد منهما منصب ولاية بغداد في وقت من الأوقات، وحتى هذان الشخصيان لم يكونا على استعداد للقيام بأية حركة صغيرة كانت أم كبيرة ضد الحكومة.

وبما أني كنت فتى صغيراً حينذاك، وكنت أحد أنجال المماليك وأتصل بصغيرهم وكبيرهم وأطلع على سرّهم وما في سرائرهم فلم أسمع في يوم من الأيام من أحدهم أنه قام أو سيقوم بما يضر مصلحة الحكومة.

ولقد كان كل من رستم آغا وسعدون آغا لا يفترون عن مدح علي باشا وترجيحه على سائر الوزراء الذين تقدموه.

وأخيراً وفي اليوم الذي تقرر عقد الاجتماع اتخذت الاحتياطات اللازمة للمحافظة على الأمن، وامتلأت شرفات السراي وسطوحه وأروقته الفوقانية والتحتانية بالجنود النظاميين المدججين بالسلاح ومن خلفهم الجنود المتطوعون المنبثون في كل زاوية من زوايا السراي. وقد حضر الاجتماع ما يقرب من العشرين نفراً من العلماء والوجوه.

أما سعدون آغا فلما رأوه قد تأخر عن الموعد في الحضور أرسلوا عليه من أتى به فوراً وحال وصوله سلّت السيوف من أغمادها وهوت على رؤوس المماليك وراحت تعمل عملها في أعناقهم.

أما الذين لم يحضروا فقد أرسلت بعض المفارز للتحري عنهم ونالوا ما كان ينتظرهم من مصير. وقد نجا بعض الذين كانوا قد حضروا إلى السراي متأخرين. لأنهم بمجرد رؤيتهم الإجراءات العسكرية التي تدل على حدث هام يوشك أن يقع عادوا من حيث أتوا وفروا من السراي واختفوا مع من اختفى من الذين سبقوهم إلى الفرار والالتجاء إلى أمكنة لم يهتد إليها المعقبون وبذلك نجوا من الموت المحتوم.

لقد كان الحاج أبو بكر الكتخدا السابق قد أرسل قبل الحادثة من يستدعي الحاج صالح بك للحضور إلى دار الحكومة من الدار التي كان قد اتخذها مسكناً له أيام العصيان، فلما حضر أخذه إلى مكان آخر، ولما أطلقت المدافع إيذاناً بتنفيذ الخطة المرسومة تقدم نحوه وقطع حبل حياته.

يقول أحد الذين حضروا هذا المشهد المرعب أنه كان ماراً باتجاه الميدان فشاهد جمعاً من الجنود المدججين بالسلاح يدخلون دار الحاج أبو بكر آغا، فلما اقترب من الباب أبصر الحاج صالح بك يخرج راكباً وبحالة اضطراب ظاهر، ولما وصل إلى خارج الباب احتشد حوله قسم من أولئك الجنود وأنزلوه قسراً ووقعوا به ضرباً وطعناً وقد سمعه يتلفظ بكلمة آمنت بالله وملائكته إلى آخرها ويرددها باضطراب ثم أعقبها بالشهادتين وخر صريعاً، فتقدموا منه وحزوا رأسه وأخذوه وتركوا جثته في أحد الأزقة مكشوفة ومطروحة على الأرض ولا شيء يستر عورته.

وسبحان الله أن المومأ إليه بعدما بلغ سن الرشد قد اختار حياة الاعتزال وعدم التدخل في الشؤون السياسية حباً بالسلامة والعيش براحة بال ومع كل هذا فلم ينقذ حياته مما قضاه الله، وشرب من الكأس التي شرب منها أخواه: سعيد باشا وصادق بك عليهم الرحمة.

ترجمة داود باشا

إن داود باشا والي بغداد السابق يرجع في أصله إلى (الگرج) وهو من الطائفة المعروفة بذوي الرؤوس المكشوفة (آجف باش)، استملكه سليمان باشا الكبير، وأتى به إلى بغداد سنة خمس وتسعين ومائة وألف، وقد تعلم القراءة والكتابة والفنون العسكرية في أقصر مدة وبذلك تفوق على أقرانه واكتسب ثقة سيدة فأناط به بعض الوظائف والأعمال، وأخذ يتقدم شيئاً فشيئاً ويعلو قدره وترتفع في النفوس منزلته وتقلد وظيفة (الخزينة دار) وهي من أرقى المناصب وأصبح صهراً (دامادا) وبذلك ازداد سمواً وعظم قدراً وبز أقرانه. وبعد وفاة سيده عزل من وظيفتيه الدفتردار والخزينة دار، وذلك على عهد علي باشا أباظة والي بغداد، ونفي إلى السليمانية بدسائس المغرضين، ثم أذن له بالعودة والإقامة الإجبارية في داره، ثم تقلد منصب الدفتردار عدة مرات على عهد سليمان باشا الصغير وهو عديل علي باشا، وكان داود باشا خلال ارتفاعه وانخفاضه ينصرف نحو الدرس والتعلم حتى بلغ في العلوم منزلة تفوق بها على غيره.

وفي سنة ١٢٣٢ تقلد منصب ولاية بغداد مع رتبة وزير، وأقبلت عليه الدنيا وسطع نجمه وازداد اسمه لمعاناً كلما تقدمت به الأيام، وقد تمكن ببراعته من تسوية القضية الإيرانية التي حدثت على عهده، وكذلك أنهى المشكلة التي أوجدها كل من صادق بك ومحمد الكتخدا، وأسس معملاً لصنع المدافع والبنادق ومصنعاً لصنع أقمشة الخام، وازدهرت البلاد في أيامه وعم الأمن والرخاء في ربوع العراق واتسعت حركة العمران والزراعة.

ومن الناحية العسكرية أدخل الفنون والأساليب العصرية على الجيش

أسوة واقتداء بما يفعله الأوروبيون، وجلب الخبراء والفنيين لتعليم الجيش وتدريبه وتنظيمه على أحدث صورة، وجهز صنفيه المشاة والمدفعية بآخر ما وصلت إليه أوروبا من أسلحة وعتاد، وعمل على صيانة القطر من أربع جهاته، وقد رفه عن السكان فتحسنت أحوالهم.

وفي سنة ١٢٤٦ كان قد ورد الفرمان السلطاني بإعدام صادق أفندي بسبب المخالفات الخطيرة التي بدرت منه وأوجبت غضب السلطان عليه ولكن داود باشا تمكن من تلطيف الجو والحصول على موافقة المقامات العليا بالاكتفاء بأبعاده وإقامته تحت المراقبة.

وبعد الحرب التي اندلعت بين الدولة العثمانية والمصريين، والتي تسمى بحرب (قونية) أطلق سراح الموما إليه إذ تكللت وساطته مع المقامات العليا بالنجاح.

وفي سنة ١٢٤٩ تقلد منصب الولاية في (البوسنة) وبعد ثلاث سنوات تخلى عن هذه الوظيفة وسكن الأستانة وكان موضع احترام الجميع. وفي سنة ٥٤ تقلد منصب (رئيس دار الشورى) في الباب العالي، وفي سنة ٥٥، بعد جلوس السلطان عبد الحميد خان، تقلد ولاية أنقرة، وفي سنة ٥٦ عزل عنها واتخذ بلدة بورصة محلاً لإقامته، ثم إن السلطان سمح له بعدئذ بالإقامة في داره بالأستانة. وفي سنة ٦٢ قلد المنصب المقدس الرفيع وهو (مشيخة الحرم النبوي الشريف) وهناك أي في سنة ٦٧ ارتحل إلى دار البقاء، ونقل إلى مثواه الأخير حيث دفن في البقيع بعدما وصل درجة من العلم ضاهى بها فحول العلماء في ذلك الزمان. وكان يتقن اللغات الثلاث: العربية والتركية والفارسية تكلماً وكتابة، وكان له نظم جيد في هذه اللغات بالإضافة إلى نثره البليغ الذي يشهد الجميع بجودته، وكان شجاعاً مقداماً، وفي الحياء والعفة لا يدانيه

أحد، ولكن مما يؤسف له أشد الأسف إن حكمه لم يكن خالياً من الظلم. وكان يغض النظر عن هفوات موظفيه في هذا الصدد، وكان ميالاً إلى حب الادخار والإثراء أكثر من أسلافه، وإن الرسوم والضرائب التي كان قد فرضها على قطر العراق ما زالت باقية، وهي أثر من آثاره، وعلى كل فإنه كان يؤدي صلاة الجمعة بدون انقطاع، وقد جدد وبنى كثيراً من المساجد والجوامع وخصص لإدامتها أوقافاً وخدماً وعين لها أئمة لإقامة الصلوات فيها.

ومع أنه كان له من الأولاد الذكور حوالي الأربعين ولداً فإنه لم يعش له واحد منهم، وذاق غصة وفاتهم الواحد بعد الآخر. ولعل هذا من العقوبات الربانية بسبب ما فعله بابن سيده سعيد باشا رحمهم الله.

ترجمة محمد آغا

لقد كان محمد آغا من أشراف قبيلة الأباظية وأبوه يسمى زهراب. ولما تولى علي باشا أباظة ولاية بغداد أتى به إليها وأسند له بعض المناصب بحكم صلة القرابة مثل منصب (الدويدار) و(الجوقدار) في القلعة وما شاكل ذلك. وتقلد على عهد سليمان باشا الصغير وظيفة (قپوجيلر كتخدالغي) ولكنه توقف تقدمه وترفيعه كسائر الموظفين من أمثاله على عهد سعيد باشا. ثم فر من بغداد والتحق بداود باشا حيث عينه بعدئذ بوظيفة الكتخدا.

وفي سنة ١٢٣٦ تقلد قيادة القوات المجهزة لصد تقدم الإيرانيين، وبعد اندحار هذه القوات وفراره من ميدان القتال من جهة، وخوفه من العقاب الذي يترقبه من داود باشا وانصياعاً لنصيحة بعض المغرضين من جهة أخرى، فقد اختار ذل التبعية الإيرانية والتحق بجيش الأعداء طمعاً

بنوال منصب ولاية بغداد على أيديهم. ولكن الصفاء قد تجدد بين الدولتين، وبذلك انهارت آماله وأسقط في يده وعاد بعد أمد إلى العراق واندمج بالعشائر القاطنة على الحدود، وراح يبث الفتن بينها. وقد استطاع أن يكون من بينها عصابة يغير بها هنا وهنا ويتحرش بهذا وذاك ويعيث في الأرض فساداً إلى أن اندحر أيضاً بوجه القوات التي تصدت لقمع حركته، وفي نهاية المطاف لقي حتفه سنة ١٢٤٥ وذلك بتدبير المرحوم داود باشا إذ حرض عليه أتباعه فقتلوه وكان عمره آنذاك خمسين سنة.

إن الموما إليه كان شجاعاً مقداماً، وقديراً في تأدية واجبات وظيفته وكريم الطبع ولكنه من ناحية ثانية كان مغفلاً لا يميز بين ما ينفعه وما يضره ولا بين العدو والصديق وتغلب عليه السذاجة وسلامة القلب تجاوز الله عن سيئاته. وقد أخلف ولداً ذكراً يسمى درويش بك يبلغ من العمر السادسة عشر ولكنه سلك طريقاً أهوجاً، ورافق بعض المفسدين وقليلي الأدب، وانحدر إلى زمرتهم وبذر كل ما ورثه من أموال في طريق الغواية ثم التحق بأفراد القوة الانضباطية في ديار بكر وهناك ارتحل عن الدنيا.

ترجمة الحاج طالب آغا

إن الموما إليه ينتمي إلى أسرة معروفة في الگرج، وكان قد جاء به المرحوم سليمان باشا الكبير وبعد تعلمه القراءة والكتابة عين بوظيفة كاتب خزينة بمعية سليمان بك الموصلي، ثم تقلد منصب (انختارجي) و(مهردار) وبعد ارتحال سليمان باشا إلى دار البقاء في السنة السابعة عشرة وتولى الولاية بمكانه علي باشا أباظة حدثت بينهما برودة لأسباب سابقة وقد غادر بغداد على أثرها وظل يتنقل ما بين الروم ايلي ومصر

والحجاز حتى وفاة الوالي المذكور وعندئذ عاد إلى العراق في عهد سليمان باشا الصغير وتقلب في عدة مناصب مثل (ايج چوقدار) و(مهردار) وبعد وفاة سليمان باشا اتّهم بميله نحو جهة سعيد بيك أفندي، وعلى هذا فقد قبض عليه ونفي إلى البصرة. وبعد مكوثه هناك حوالي السنة صدر العفو عنه وذلك بعد وفاة عبد الله باشا وعهدت إليه إمارة الحلة ثم وظيفة الخزينة دار بالوكالة وتدرج في وظائف أخرى أرقى منها.

وفي سنة ١٢٣٤ تقلد وظيفة الخزينة دار بالأصالة وتقلد على عهد داود باشا منصب الكتخدا وذلك سنة ١٢٣٨ ثم أنيطت به قيادة القوة التي كانت تحت قيادة الكتخدا محمد آغا لإعادة تنظيمها وتهيئتها لصد الاعتداءات الإيرانية. ولما كان موجود الجيش الإيراني أضعاف أضعاف القوة التي تحت قيادته بالإضافة إلى كون الجيش الإيراني يضم خمسة أفواج من المشاة المدربين تدريباً عصرياً، فقد كان يتحاشى التحرش بالإيرانيين. وقد بذل خلال ذلك جهوداً جبارة لإعادة تنظيم القوة المذكورة مما أوجب تقدير المسؤولين.

هذا ولما كان الموما إليه كثير الاعتراض على بعض تصرفات الوالي داود باشا بسبب فرضه الضرائب والتشدد في جبايتها ومعاقبة المذنبين بقسوة ومصادرة أموالهم، وعدم الانسياق إلى وجهات نظره في مثل هذه الأمور ومكالمته بشأنها بشدة وصرامة فقد حصل بينهما فتور أدى إلى تنحيته عن منصبه وملازمته لداره لمدة تتجاوز السنة.

ولما أغار الكتخدا محمد على الحلة واحتلها أحضره الوالي داود باشا واعتذر له وشمله بلطفه وبتوجيهاته وخصص له ما يزيد على كفايته من المخصصات المعاشية واتخذه مستشاراً له وراح يقضي أيامه براحة

بال واطمئنان. ثم أصيب بالطاعون سنة ١٢٤٦ وارتحل إلى دار البقاء وكان عمره قد تجاوز الخمسين سنة.

كان الموما إليه بارعاً في الإنشاء وبليغاً في التعبير وله مقدرة فائقة في الرياضيات والحساب، وكان شجاعاً جريئاً غير هياب وله طلاقة في اللسان.

وقد اشتهر بالوفاء بين عارفيه وكان يميل ميلاً طبيعياً إلى التدين والتعبد، ولا تأخذه في الحق لومة لائم. وكان يتجنب الظلام والاعتداء وكان باراً بأصحابه ومن يعاشره من الأقارب والأجانب، وكثير التسامح مع الذين يسيئون إليه وقد شيد مسجداً بالقرب من داره كما شيد جسراً في ناحية مهروذ[١] تغمده الله برحمته ورضوانه.

ترجمة أحمد باشا

إن هذا الرجل هو أخو داود باشا، ولما جاء إلى بغداد كان عمره حوالي الثلاثين سنة، وقد درس الآداب الإسلامية على أيدي المدربين والمصلحين، وبعد مرور برهة من الزمن عين آمراً لبلدة أربيل ثم متسلماً للبصرة مع رتبة (مير ميران). وبعد اعتزال الحاج طالب آغا الخدمة عين بمنصب الكتخدا بمكانه. ولم يمض عليه إلا بضعة أشهر ووافاه الأجل المحتوم وارتحل إلى دار البقاء. وبالنظر لعدم قابليته على إدارة واجبات وظيفته وجرياً على المثل المشهور الأعمش يقود الأعمى فقد كان عبد الغني آغا وهو من المماليك يقوم مقام المدرب والموجه له وبواسطة هذا الرجل كانت تدار أموره.

(١) كان يقال لها مهروت بالتاء المثناة وتسمى الآن ناحية كنعان وتقع على طريق بعقوبة ـ مندلي من لواء ديالى. (المترجم)

وخلال آمريته في أربيل أراد أحد السكان أن يبيع داره فاعترضه الموما إليه قائلاً: إن سيدنا (يعني أخاه) قد وهبني أربيل وما فيها فكيف تبيع هذه الدار من تلقائك؟ وراح يشدد عليه النكير ويحول دون تصرفه بداره، وبشق الأنفس تمكن وجوه البلدة وعبد الغني آغا من إفهامه بأن كل شخص حر في التصرف بأمواله وممتلكاته. وعندئذ قنع وسمح لصاحب الدار ببيع داره. وهذه الحادثة مشهورة تحكي في المجالس ويتناقل أخبارها الواحد بعد الآخر ومع ذلك فإن الرجل كان سخياً وله طلعة بهية وهيكل جميل ومنظر جذاب، وكان مربوع القامة. أما ما عدا هذا فإنه أشبه بباقل وحبنّقة(١) تجاوز الله عن سيئاته.

ترجمة أوزون موسى آغا

كان موسى آغا الطويل من (الكرج)، وكان أيضاً من مماليك سليمان باشا الكبير، وكان يمارس الخدمة في الخزينة ثم في الصالونات الخاصة ثم في دار الضيافة وأعمال أخرى مماثلة.

ولما توفي سليمان باشا وتولى بعده علي باشا كفّ يده عن العمل

(١) باقل وحبنقة أعرابيان اشتهر الأول بالسخافة والسفاهة، واشتهر الثاني بالحمق والبلاهة، حتى صار كل واحد منهما مضرب المثل فيقال أسخف من باقل وأحمق من حبنقة.
ومما يروى عن حبنقة أنه كان يلبس قلادة من الودع وكانت هذه القلادة بمثابة الهوية له، وكان لا يعرف نفسه أنه حبنقة إلا إذا تلمسها. وذات يوم سرقها أخوه وهو نائم فلما انتبه من نومه أنكر نفسه ولم يعد يعرف أنه هو حبنقة. وانصرف يبحث عن نفسه لا عن القلادة وصار لا يجيب النداء إذا نودي ثم رأى القلادة في عنق أخيه فجاء إليه وقال له يا أخي أنت أنا فمن أنا؟
ومع هذا فقد كانت له فلتات عجيبة إذ كان يمتنع عن رعي الإبل التي يصيبها السقام ويقول في ذلك لا أريد أن أصلح ما أفسده الله. وكأنه بهذا يسير على نظرية بقاء الأصلح قبل داروين بمئات السنين. (المترجم)

لما بين الاثنين من تنافر سابق. ولهذا ترك بغداد وسافر إلى (الروم إيلي) ثم تنقل بين البلاد العربية، وبعد مقتل علي باشا عاد إلى بغداد. وبالنظر لصلة القرابة بينه وبين سليمان باشا الصغير، فقد كان الباشا المذكور يعطف عليه ويمده بما يكفيه من المخصصات، ثم عينه بوظيفة رئيس المراسلين (قبوچيلر كتخدالغي).

وبعد اعتزال الحاج طالب آغا الخدمة عين وكيلاً له، وبهذا ارتفع قدره وعلت منزلته في أعين الناس، ولما عاد أحمد باشا من البصرة وتقلد منصب الكتخدا بالأصالة تأثر كثيراً. ثم لما توفي أحمد باشا عاد إلى وظيفة الكتخدا بالوكالة.

وفي سنة ست وأربعين أصيب بالطاعون وانتقل إلى رحمة الله. إن بقاء الموما إليه في ذلك المنصب بالوكالة كان نتيجة تذمر داود باشا من الأشخاص الذين يتولون هذا المنصب لأنهم كانوا حجر عثرة في طريقه إلى الاستبداد.

وكان موسى آغا الطويل خلال تقلده لهذا المنصب بالوكالة لم يمارس شيئاً من الأعمال المهمة لأن داود باشا قد احتكرها لنفسه.

لقد كان الموما إليه بديناً تغلب عليه السمنة ولكنه مقبول الشكل وحسن الصورة وفارساً وحليماً وله هيبة في النفوس ولكن سوء الظن كان غالباً عليه ويميل إلى الإدخار وجمع المال رحمه الله.

ترجمة فضل الله أفندي

إن السيد الموما إليه من وجهاء كركوك ومن أنجال محمد أفندي، وقد ولد في بغداد سنة ١١٦٦ ودرس أيام شبابه على أبيه، وبعد إتمامه الدراسة التحق بقلم (المصرفخانة)، ولما برع بالإنشاء والتحرير عينه سليمان باشا الكبير كاتباً للديوان خلفاً لأخيه لطف الله أفندي.

وإلى أن توفي الباشا المذكور كان موضع تقديره ورعايته. ولما تقلد علي باشا أباظة منصب الولاية عزله عن الوظيفة لكراهيته له قديماً فأقام في بيته، ثم لما أحس أن الوالي يضمر له السوء غير من وجهه وعاش مغترباً، وأخيراً التحق بيوسف ضياء باشا الذي عينه كاتباً لديوانه وظل في هذه الوظيفة حتى وفاة علي باشا وعندئذ عاد كأمثاله إلى بغداد فخصص له الوالي الجديد سليمان باشا الصغير ما يكفيه من المال.

ولما تولى عبد الله باشا ولاية بغداد اتهم بميله إلى سعيد بك أفندي، وألقي القبض عليه وسفّر منفياً إلى البصرة حيث بقي حوالي السنة. وقد تدهورت خلالها حالته الصحية والمالية وأشرف على الهلاك.

ولما عين سعيد باشا والياً عفا عنه وعينه متسلماً لكركوك، فكانت بذلك فرحته عظيمة وزال ما كان يساوره من هموم وآلام. ولكن لم يمض عليه أمد طويل في وظيفته هذه حتى عزل وفرضت عليه الإقامة الإجبارية في بيته إلى أن تقلد داود باشا منصب الولاية وعندئذ أعيد إلى كتابة الديوان.

وظل يمارس وظيفته حتى انفكاك الوالي المذكور، وأخيراً أصيب بالطاعون الذي حدث سنة أربع وستين وارتحل إلى دار البقاء وكان عمره حوالي الثمانين سنة.

كان الموما إليه لا يضارعه أحد في الإنشاء وكان ذا أخلاق حسنة وتصرفاته وأطواره من النوع المنتخب المثالي، وقد اختص بالخط الديواني فبرع فيه وأصبح وكأنه رجائي زادة مخترع هذا النوع من الخط، وكان ظريفاً مجاملاً وقد تفوق على أقرانه ببشاشته ودماثة أخلاقه، وله عقل راجح ويعترف له بالفضل الصغير والكبير، ومع كبر سنه، فإنه لم

تزايله هذه الصفات الحميدة، وكان كل من يتعرف عليه لا تطاوعه نفسه مفارقته. ولم يكن متعصباً لمذهب من المذاهب، وكان يقول إن هذه الطريقة إذا رافقها عقل راجح من أكبر أسباب دوام الإلفة والصداقة رحمة الله عليه.

ترجمة الميرآخور سليمان آغا

إن الموما إليه گرجي الأصل أيضاً، وكان تحت إمرة خالد آغا رئيس الانكشارية في كركوك. وبعد حركات الآغا المذكور، انتهز فرصة تولي سعيد باشا منصب الولاية وجاء إلى بغداد ليعرض له التبريكات والطاعة والإخلاص، فعهد له الوالي وظيفة في الخزينة.

وبعد انفصال الخزينة دار لطف الله آغا تولى رعايته رئيس الإنارة سليمان آغا ثم المترجم سليمان آغا أيضاً على التوالي، وكلاهما من أخوان المماليك، ولما كان في عنفوان شبابه وعليه مسحة من ملاحة فقد بذل الموما إليهما كل جهودهما للمحافظة عليه، والتحق بعد ذلك بجماعة داود باشا وانضم إلى حزبه لقناعته بأنه هو الذي سيتولى منصب الولاية في المستقبل. وعلى هذا خرج من بغداد، وتبعه كل من السليمانين، وراحا يتزاحمان على جذبه نحو أحدهما، وظل يتنقل من سليمان إلى سليمان وتقلد عدة وظائف إلى أن صار (مير آخور) فقام بواجب وظيفته خير قيام، وارتفعت منزلته ولمع نجمه وتولى آمرية إحدى المفارز العسكرية الأهلية، وبناءاً على ما أبداه من مهارة وتفوق عين قائداً لإحدى الفرق التي سيرت لقمع حركات الأعراب النمردية فكان النصر حليفه، ثم أصبح وله من الأتباع حوالي الألف شخص وكلهم مجهزون بالأسلحة والعتاد. وكان يتعهدهم برعايته ويكسيهم البدلات الفاخرة ويجهزهم بكل ما يحتاجون إليه من مؤون وذخائر

وبذلك صاروا أطوع من بنانه إليه يأتمرون بأمره، ويبذلون أرواحهم بين يديه، وينظرون إليه نظرهم إلى أعاظم الوزراء. وقد انتشر صيته، وذاع اسمه في الآفاق، وصار مضرب المثل في الشجاعة بين سكان العراق.

وأخيراً لم يستطع أن يصدّ عن نفسه سهم المنية فقد أصابه الطاعون سنة ست وأربعين وكان عمره آنئذ حوالي الأربعين سنة.

كان الموما إليه حسن الخلقة والخلق وله شخصية جذابة وكرم حاتمي ولكنه من ناحية ثانية لا يبالي في اغتصاب الأموال وإيقاع الأذى بمن يلقيهم سوء حظهم في طريقه. عامله الله بفضله ولطفه.

أما من ناحية تفوقه على عشائر الخزاعل والشامية وتلك الجهات وإخضاعها، وذيوع شهرته في العراق، وتقدمه في الوظائف العسكرية المهمة، وتقلده قيادة القوات، فإن الفضل في كل ذلك يرجع إلى الجنود النظاميين الذين كانوا تحت قيادته، أولئك الجنود الذين اكتسبوا خبرة وعلماً وتنظيماً في الفنون العسكرية، فإلى أولئك الجنود البواسل يرجع السبب في تقدم الموما إليه وفي الشهرة التي اكتسبها.

ترجمة مصرف أفندي

إن محمد أفندي مصرف من أهالي إجارة. وكان من الذين وفدوا على بغداد حديثاً وقد قضى معظم حياته بوظيفة (ايچ آغا) أي رئيساً للمابين، وبعد وفاة والده مصطفى آغا بقي على وظيفته في عهد سليمان باشا الصغير.

وبما أنه لم يكن كأبيه الذي مارس هذه الوظيفة بإخلاص ورغبة فقد تركها والتحق بخدمة داود باشا عندما كان دفترداراً، وفي ولاية الباشا

المذكور عينه بوظيفة كتابة المصرف وشمله برعايته، وعند وقوع الطاعون سنة ست وأربعين انتهزها فرصة وخرج من بغداد بصحبة محمد باشا آل خالد باشا بحجة الدعاية وجمع الأتباع لداود باشا حسب الظاهر، بينما الحقيقة هي الابتعاد عن الباشا ليكون في نجوة مما عسى أن يحدث من العواقب السيئة.

وعند عبوره نهر ديالى تصدى له الأعراب وهجموا عليه ونهبوا كل ما كان معه من أموال، وجردوه حتى من ألبسته، وقد أنقذ نفسه من أيديهم ونجا من الموت بأعجوبة ثم التجأ إلى عشائر بني لام، ومن هناك راح ينفث سمومه ويحرض العشائر والأهلين على التمرد وعدم إطاعة الحكومة المركزية في بغداد. وتمكن من لمّ شعث المشردين من المماليك والفارين من بغداد من العثمانيين، وألف منهم جمعية ضد الحكم القائم في بغداد. ولكن علي باشا تمكن بعدئذ بحسن تدبيره من القضاء على هذه الجمعية وتشتيت أفرادها، والتجأ الموما إليه إلى سليمان باشا متصرف السليمانية وبهذا تخلص من العقاب الذي كان ينتظره.

وأخيراً، ولكثرة ما بذله المتصرف الموما إليه من شفاعة والتماسات، استطاع أن يحصل له العفو عن جرائمه الماضية وسمح له بالعودة إلى بغداد وعند مجيئه شمله الوالي بعطفه ورعايته وأعاده إلى داره متمتعاً، وذلك تنفيذاً للوعد الذي قطعه على نفسه. وبقي الموما إليه متمتعاً بالحرية وراحة البال حتى توفي في أواخر سنة ثمان وأربعين بعد إصابته بمرض أعيا الأطباء. ولا أريد أن أدخل في الكلام عن مساوئه وسوء أفعاله وأخلاقه بعد وفاته، تجاوز الله عنه.

ترجمة مولانا الشيخ خالد أحد العلماء الأعلام

لقد ذكرنا تراجم بعض كبار الموظفين البارزين على عهد داود باشا، ولما كان ذكر تراجم العلماء الأعلام والشخصيات التي لا ينقطع الحديث عنها في مجلسه من الكثرة بحيث لا يتسع المجال للكلام عن كل واحد منهم. ولكي نتجنب الملل من الإطالة نكتفي بالتبرك بذكر ترجمة أحد العلماء العظام والصالحين الكرام الذي عاصر الوالي المذكور، ألا وهو مولانا خالد حفيد أحمد آغا الذي يرجع نسبه إلى أمير المؤمنين وثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

إن مولانا الشيخ من سكنة السليمانية، مركز لواء شهرزور، وكان متصرفها آنئذ عبد الرحمن باشا، وقد ولد الشيخ الجليل في (قرة داغ) التي تبعد خمسة أميال عن السليمانية تقريباً وذلك سنة تسعين ومائة وألف، ولما تجاوز سن الطفولة انصرف إلى الدرس وتحصيل العلوم والمعارف ومبادىء الدين الحنيف. ومال بصورة خاصة نحو التعبد وأداء الواجبات الشرعية، ثم تنقل إلى أماكن أخرى من لواء السليمانية لتلقي العلم على أيدي العلماء القاطنين هناك، ولا سيما علماء برزنجه وساداتها، مثل الشيخ عبد الكريم، والشيخ عبد الرحيم، والملا صالح، وغيرهم وارتحل أيضاً في سبيل طلب العلم إلى كوي وحرير. ودرس على الملا زادة عبد الرحيم ثم عاد بعد هذه الجولة إلى السليمانية ومنها إلى بغداد حيث درس بعض العلوم مدة من الزمن عاد بعدها إلى السليمانية ومنها إلى (سنه) الواقعة على الحدود الإيرانية والتي كانت تسمى (سندج) قبل ذلك.

وهناك درس علوم الهندسة والحساب والهيئة على الشيخ محمد

قسيم، أحد فحول العلماء في ذلك العهد، وبعد حصوله على الإجازة عاد إلى السليمانية.

وفي سنة ١٢١٣ عين هناك مدرساً وظل يدرس العلوم العقلية والنقلية قرابة الثماني سنوات، واشتهر خلال هذه الفترة بالزهد والتقوى. وفي سنة ١٢٢٠ أخذه الوجد والشوق لحج بيت الله الحرام، فسافر عن طريق ديار بكر والشام. وكل بلد يمر به يتصل بعلمائه والصالحين من رجاله وينتفع من علومهم، ويتزود من بركاتهم وأدعيتهم. ثم درس على بعض المشايخ الكرام الطريقة القادرية وعاد إلى وطنه منشرح الصدر.

وكان قبل أداء فريضة الحج قد عرج على المدينة المنورة فزار مسجدها، وتمتع بالأنوار النبوية، واتصل ببعض الصالحين الذي أوصاه بألا يتعرض لأحد في المسجد الحرام إذا رأى منه عملاً أو تصرفاً لا يتفق وظاهر الشريعة المطهرة.

ولما توجه مولانا الشيخ إلى (مكة المكرمة) واستقبل الكعبة المشرفة، وكبّر وهلل، رأى وهو يؤدي الشعائر أحد الأشخاص بزي العوام قد أدار ظهره نحو البيت الحرام، وجلس هناك، الأمر الذي استغرب منه كثيراً وكاد يهم بزجره ويعترض عليه ولكنه تذكر في تلك اللحظة نصيحة ذلك الرجل الصالح في المدينة المنورة فكف عن الاعتراض، والتزم السكوت، ثم دنا منه ذلك الرجل وقال له أيها الإنسان المسكين المقيد بالعلوم والأوامر الظاهرية ألا تعلم أن النظر إلى وجه رب البيت أشرف من النظر إلى البيت؟ أنسيت أيها المسكين نصيحة ذلك الرجل الذي التقيت به في المدينة المنورة؟ فلماذا أشغلت قلبك بالاعتراض علي لاستدباري البيت الذي هو عبارة عن حجارة وتراب بناه وأسسه إبراهيم الخليل عليه السلام؟ فلما سمع مولانا الشيخ هذا

الكلام، وأدرك أن المتكلم إنما هو أحد أرباب المكاشفات والكرامات، وأنه من أولياء الله الصالحين، ألقى بنفسه عليه، وأخذ يقبله ويتبرك به، والتمسه أن يسمح له بمرافقته ليكون له مريداً، ويتزود منه بالعلوم الروحانية. فدعا له بالخير والبركة وقال له: إن أبواب الأسرار الربانية ستفتح بوجهه عندما يصل بلاد الهند.

وقد ظلت هذه الكلمة يرنّ صداها في أذنه وعاد بعد إتمام مناسك الحج إلى السليمانية عن طريق الشام، وحلب، وديار بكر، وعند وصوله انصرف كعادته إلى العبادة والدرس. وذات يوم زاره درويش اسمه محمد زاهد وتحدث معه كثيراً، ثم راح يصف له مناقب وفضائل شيخه الشاه عبد الله الدهلوي، وعندئذ تذكر ما سمعه في مكة المكرمة من كلام ذلك الولي، وهاجت نيران الشوق في قلبه، واعتزم السفر إلى الهند. وقد نفذ عزيمته سنة ١٢٢٤ وكان يزور علماء كل بلدة يمر بها في طريقه حتى وصل (لاهور) وجاء إلى مجلس الشاه القطب عبد الله دهلوي ونال من لدنه كل ترحاب وإكرام.

يقول مولانا الشيخ أنه بات في البلدة المذكورة ورأى في تلك الليلة رؤيا عجيبة وهي أنه شاهد القطب بعضه من خديه ويجذبهما إليه جذباً قوياً، ولما انتبه تعجب من هذه الرؤيا، وبقي يفكر فيها وفي تأويلها ثم لما ذهب لوداع الشاه عبد الله دهلوي تلقى المزيد من ألطافه ولما قص عليه رؤياه بشره بالخير والبركة، ودعا له، وزوده بتعاليمه وإرشاداته، وأمره أن يذهب حالاً إلى جهان أباد حيث مقر القطب الأكبر لينال بركته، وقبل وصوله البلدة المذكورة بأربعين مرحلة هبت عليه النفحات القدسية المنبعثة من ذلك القطب الذي كان قد أخبر الخواص من خلفائه ومريديه قبل أربعين يوماً بأني سأقدم عليهم. ومجمل القول فإني وصلت

إلى مقر القطب الأعظم ولازمته مدة سنة كاملة نلت من لدنه من المعارف والعلوم ما أوصلني إلى مرادي، وبلغني الدرجة التي كنت أتوق إليها، وهي الولاية والخلافة، وأنه أجازني بالطرائق الخمس وهي النقبشندية، والقادرية، والسهروردية، والكبروية، والچستية، وأمرني بمواصلة الوعظ والإرشاد في البلاد العثمانية والعودة إلى موطني وخرج لتوديعي ومشى معي مسافة أربعة أميال.

وفي سنة ١٢٢٦ عاد مولانا الشيخ إلى وطنه متمتعاً بما كان يصبو إليه من العلوم الربانية، وراح ينشر طريقته على الناس، ويعظهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيم، وقد أحيا القلوب الميتة في القطر العراقي بمواعظه وعلومه ومعارفه، وانتفعت من فيضه وبركاته كل البلاد الإسلامية وذاع صيته وانتشر ذكره على كل لسان.

ولما كان الحسد بين الأقران من طبائع النفوس في الإنسان فإن مقلدي أهالي السليمانية من سادات البرزنجة قد دب الحسد في قلوبهم وأخذوا يشوهون سمعة مولانا الشيخ ويرمونه بالتهم الباطلة، لكي يصرفوا الناس عنه ولكن هيهات:

كم حاولوا أن يخمدوا أنواره   فكأنما الإيضاء بالإخماد

وكانت أنواره تزداد تلألؤاً وسطوعاً. أما هو فقد تمسك بالصبر الجميل وقابل إساءتهم بالإحسان إليه ولكن:

كل العداوات قد ترجى إزالتها   إلا عداوة من عاداك بالحسد[1]

---

(١) المعروف أن هذا البيت يروى هكذا:
كل العداوات قد ترجى مودتها   إلا عداوة من عاداك في الدين (المترجم)

وقد ازدادوا حقداً عليه وحسداً بينما ازداد هو رفعة وفضلاً، وأخيراً ولما أعياهم أمره، نسبوا إليه ما ليس فيه من مخالفة الشريعة الإسلامية، وأصدر شيخهم الكبير وهو الشيخ معروف[١] فتوى بتكفيره، فاضطر عندئذ إلى إرسال كتاب إلى والي زمانه أسعد باشا يعرض فيها الأمر وما يلاقيه من هؤلاء من ضروب الأذى.

فلما وصلت رسالته عرضها الوالي على العلماء الأعلام في بغداد، فاستنكروا عمل القوم، وقالوا سبحانك هذا بهتان عظيم.

وقد تصدى للرد عليهم مفتي الحلة محمد أمين أفندي الذي فند دعواهم وأسقط فتواهم وذلك في رسالة مطولة وقع عليها وأيدها العلماء الأعلام، وأرسلها إلى الشيخ معروف بصحبة أحد الفضلاء بعدما زوده بالتعليمات وأوعزوا إليه أن ينصح الشيخ المذكور بلزوم اتباع أوامر الشرع الشريف، وأن يتجنب التعرض لهذا الرجل الصالح الذي يشبه الملائكة في ظاهره وباطنه.

وأخيراً فقد سطعت أشعة شمسه في طول البلاد العثمانية وعرضها، ونال على يديه ما يزيد على العشرين ألفاً من مرضى القلوب الشفاء والهداية، وكثر أتباعه ومريدوه، وصار مرجعاً للخاص والعام، بحيث أصبح رجال الدولة المسؤولون ينظرون إليه باهتمام، ويخشون أن يصل به الحال كما وصل بمشايخ الصفوية الذي قفزوا إلى كرسي الحكم عن هذه الطريقة.

وعليه فقد كتبت الجهات المسؤولة في الأستانة إلى الوالي داود باشا يستوضحونه عن أحوال وأطوار وميول الشيخ، فقام بالتحقيق الدقيق

---

(١) هو الشيخ معروف النودة هي البرزنجي. (المترجم)

والسؤال عنه من مختلف الجهات والعلماء، فكانت نتيجة الاستفسارات أن مولانا الشيخ إنما هو من العلماء السالكين طريق الصلاح، وأنه بأعماله وتصرفاته لا يتوخى سوى إحياء سنة سيد المرسلين، وإنه عديم الرغبة في المناصب الحكومية وفي الأمور الدنيوية، وبعيد كل البعد عن السياسة، وأنه لم يقم بأي عمل يخالف وجهات نظر الدولة العثمانية. وقد كتب كل ذلك وأرسله إلى المقامات العليا وشفع كتابه بتعهد منه عن مولانا الشيخ.

وعلى هذا اطمأن المسؤولون من ناحيته غير أن مولانا الشيخ استاء بعدئذ من سوء معاملة الحكام للناس، وكثرة الضرائب التي تفرض عليهم بغير حق وكثرة البدع والمخالفات الشرعية وقرر الهجرة من هذه الربوع، والسفر ثانية إلى بيت الله الحرام، وزيارة روضة خير الأنام وسافر من بغداد سنة ١٢٣٩ عن طريق الشام[١] ثم سافر مرة أخرى سنة ١٢٤١ وأثناء عودته عن طريق الشام أيضاً انتشر وباء الطاعون سنة ١٢٤٢ في ذلك البلد فأصيب به واستقبل القبلة وراح يتلو قوله تعالى:

﴿ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾.

وبعد الانتهاء من تلاوتها أسلم روحه الطيبة إلى خالقها فارتفعت إلى عليين. وهكذا وفد على ربه الكريم قرير العين، وورى جسده الشريف

(١) جاء في مقال للأستاذ عباس العزاوي نشره في الجزء السادس والعشرين للسنة الثانية من مجلة المعرفة التي تصدرها في بغداد وزارة المعارف قوله:
ولما ورد بغداد قربه الوزير سعيد باشا ورحب به كثيراً وعمر له (المدرسية الأحسائية) فجعلها (تكية) له ولا تزال تسمى (التكية الخالدية). (المترجم)

في مقبرة الصالحية، وصار ضريحه مثابة للناس، يزوره الصالحون ويتبركون به قدس سره العزيز.

لقد كان الشيخ الجليل فريد عصره في علوم الظاهر والباطن وكان كريماً شجاعاً، وقد بلغ الغاية في رحابة الصدر ورجاحة العقل، وكان مناراً للهداية والإرشاد وقد تجرد عن حب الدنيا ومتاعها وتركها لأهلها وانصرف لتعمير الروح وتهذيب القلب من الأدران والتهيؤ لقبول الفيوضات الروحانية والتجرد عن الأهواء والنزعات وبذلك صار سلطان الواصلين، وكانت بين صحوه ومحوه تصدر عنه بعض الكرامات وقد اشتهرت وانتشرت بين مريديه وأتباعه، وله ديوان باللغة الفارسية وبعض رسائل وحواش وتعليقات يتداولها مريدوه.

وبهذا نختتم الحديث عن تسطير الوقائع والحوادث التاريخية التي التزمنا فيها جانب الحق والحمد لله والمنة.

والآن نبدأ بسرد ما وقع في زماننا الذي نحن فيه.

العراق على عهد المؤلف

يدير دفة الحكم في العراق من الناحية الإدارية والسياسية بعض الأسر العراقية مثل آل بابان وآل شبيب وأبناء العمادية وزهاب. وفي الموصل آل عبد الجليل. وبالقرب منا الوهابيون وكل هؤلاء مرتبطون بالحكومة المركزية في بغداد منها يتلقون الأوامر والتوجيهات وإليها يرجعون في الأزمات والملمات.

أما إيران، الدولة المجاورة، فإنها تحت حكم فرمان فرماً الذي ينتسب إلى الأسرة القاجارية وسنتكلم عن هؤلاء واحداً بعد الآخر مع ذكر الوقائع العراقية مبتدئين من السنة التي قضي فيها على المماليك

وحكمهم أي سنة سبع وأربعين إلى السنة التي نحن فيها الآن وهي سنة سبع وسبعين.

وخلال هذه الإحدى وثلاثين سنة سنتناول بالبحث أيضاً الإضرار والمنافع التي تعرضت لها السلطنة السنية ثم نعقب ذلك بالكلام عن أحوال العراق بصورة إجمالية وعلى قدر ما يسمح لنا به الوقت وبالله نستعين.

أسرة آل بابان

لما كان المؤرخ جودت أفندي على علم تام بهذه الأسرة فإني سأنقل ما كتبه عنها في تاريخه حرفياً. على أني بسبب صلتي بهذه الأسرة، وقرابتي منها، سأتدارك ما فاته من المعلومات التي تدعو الضرورة إلى تدوينها وإضافتها إلى كلام المؤرخ الموما إليه:

إن الأسرة البابانية يرجع نسبها إلى الفقيه أحمد من قضاء يوزور[١] وقد استولى ولده ما ورد على (شهربازار) والأقضية المجاورة ثم أضاف إليها ابنه سليمان بك (قرة چولان) وما حولها وذلك سنة ١٠٨٠ وجعل هذه المنطقة تحت حكمه.

إن سليمان بك هذا كان قد تابع الجيش العثماني عند عودته إلى هذه الجهات ثم توفي في أدرنة وتعاقب أبناؤه من بعده على حكم تلك المنطقة يلقب منصرف ثم تولاها من بعدهم بعض الوجوه من عشيرة زنگنة. وبعد مدة من الزمن ألحقت بقرة چولان، صاووق بولاق، وما يتبعها وذلك أثناء الحرب الإيرانية، وأسند حكم تلك المنطقة إلى أحد

---

(١) كتبها المؤلف هكذا بالباء والزاي التركيتين المثلثين. ولعل هذا القضاء هو الذي نسميه الآن (پشدر) في الوقت الحاضر. (المترجم)

أبناء سليمان بك مع لقب باشا. وبعدها تولاها ابنه خالد باشا ثم ابنه سليمان باشا وفي وقته انضم إلى (قرة چولان) وكوي وحرير.

وخلال تولي الحكم من قبل هذين الاثنين تقدم نادر شاه في تلك الجهات ونصب أحد أبناء أخوة خالد باشا، المسمى سليم باشا، حاكماً على المقاطعة المذكورة على أن يكون خاضعاً للدولة الإيرانية. فهو والحالة هذه لا يعتبر من متصرفي المقاطعة ولا ينبغي ذكر اسمه مع أسماء متصرفيها ولا مع الشخصيات التي تناولها التاريخ ولا يعترف بحكمه وحكم أمثاله من الذين جري تعيينهم من قبل الدولة الإيرانية. وبعد سليمان باشا تولى الحكم أخواه محمد باشا وأحمد باشا وأبناؤهما إبراهيم باشا وخالد باشا، وأبناء محمد باشا، عثمان باشا سليمان باشا، وخالد باشا ابن محمد باشا.

أما أبناء عبد الرحمن باشا فمن الذين اشتهرت أسماؤهم في زماننا سليمان باشا ومحمود باشا وعزيز بك.

وأما أبناء سليمان باشا فهم أحمد باشا وعبد الله باشا وقادر بك ومحمد بك.

وفي زمن إبراهيم باشا انضمت إلى (قرة چولان) درنة وورتك أي زهاب، وقصر شيرين، وخانقين. أما البلدة التي تسمى الآن باسم السليمانية فإنها كانت قلعة من قلاع شهرزور تابعة لسرچنار وقد شيدها إبراهيم باشا وسماها باسم سليمان باشا والي بغداد. وقد انتقل إليها من (قرة چولان) واعتبرها مركز لواء ومقراً للمتصرف، ولكنه لكي يثبت مركزه ويبقى في منصب المتصرفية، ويجمع له الأصدقاء الذين يأمل منهم المساندة والعون فقد كان يقضي معظم أيامه في بغداد، وفي المدينة المذكورة أخذ يستميل إليه كل من يرى فيه رغبة في تولي منصب

المتصرفية ويستألفهم مخافة أن يزاحموه، وكانت له دار في بغداد قد اتخذها مجلساً للاجتماع فيها بأمثال هؤلاء وقضاء أيامه معهم.

وكان إبراهيم باشا في أيام شبابه قد أقام في بغداد مدة غير قليلة وتعرف على الكثير من أهلها واشتهر بينهم، وكان من أصدقائه الخزينة دار علي بك السالف الذكر. وكان محمود باشا قد أرسل ابنه عثمان باشا إلى بغداد مرشحاً نفسه لمتصرفية السليمانية. وبما أن والده لم يكن بين المستقبلين للوالي سليمان باشا ولم يحضر لزيارته فقد نفر منه الوالي، وظل علي بك يشد أزر إبراهيم باشا ويعاونه ويسانده في المكوت بمنصبه إلى سنة ١١٩٥ حيث قرر سليمان باشا أن يتوجه شخصياً إلى كردستان لتأديب محمود باشا غير أن بعض الموانع حالت دون سفره وبقيت البرودة والنفرة بينهما تزداد رويداً رويداً إلى أن سافر الوالي إلى السليمانية، الأمر الذي حمله على الهروب من (قرة چولان) وذلك سنة ١١٩٧ وبقي إبراهيم باشا على دست الحكم مع كونه مقيماً في بغداد.

وبما أنه قد تعود حياة الترف والنعيم، ولم يعد يستطيع الاستقرار في تلك المنطقة القاحلة الباردة بين الأكراد الذين ما زالوا على بداوتهم وخشونتهم، فقد اعتزل الحكم سنة ١٢٠١ ثم أعيد إلى منصبه بمساعدة الخزينة دار علي بك.

إلى هنا ينتهي كلام جودت بك في تاريخه عن هذه الأسرة.

والذي ينبغي أن نقوله تعليقاً أو امتداداً لما سطره الموما إليه هو أن ميلان بعض رجال هذه الأسرة الكريمة نحو الإيرانيين مما لا يمكن نكرانه.

غير أن ميل أحد أبناء أخوة خالد باشا وهو سليم باشا نحو إيران لم

يكن مبعثه الخيانة الوطنية أو حب الجاه والحكم، بل لأن نادر شاه كان قد وجه جيوشه الجرارة نحو هذه البلاد طمعاً في الاستيلاء عليها. ولما كان لا قبل لهم بصده، وأن خالد باشا قد عجز عن الصمود بوجه هذه الجيوش الزاحفة، وقرر الفرار هو وأعضاء حكومته وعوائلهم والمقربين إليهم من هذه الديار التي يحيق بها الخطر من كل مكان إلى جهات الموصل والرقة، وقد ترك الكثير ممن لا قدرة لهم على السفر خلفه تحت رحمة القدر، ولذلك مال سليم باشا إلى جانب نادر شاه لكي يضمن إنقاذ هذه العوائل الإسلامية من الموت والتشريد والمحافظة على أعراضها وأنفسها من بطش الشاه وجنوده، قبل تولي الحكم في هذه المنطقة، كما وأنه أوعز بصورة سرية إلى أخوانه الذين بقوا في أماكنهم بأن يتابعوه ويعرضوا استسلامهم وانقيادهم للشاه المذكور عند اقترابه منهم، وبهذه التدابير حملوا نادر شاه على أن يتصل بعشائر بابان وأهالي منطقة (قرة چولان) ويطمئنهم على حياتهم قائلاً: إنكم في كنفي ورعايتي لأن هذه المنطقة ستكون من ضمن أملاكي.

ومن باب (وهب الأمير ما لا يملك) فقد عين سليم باشا حاكماً على المنطقة المذكورة مع رتبة الباشوية.

غير أن هؤلاء الذين أعلنوا له الخضوع والطاعة خشية من بطشه سرعان ما انقلبوا عليه هم ورؤساؤهم بعدما أنقذوا بهذه الطريقة أرواحهم وعوائلهم.

إن الذين تولوا منصب المتصرفية منذ ١١٩٧ لم يذكرهم جودت أفندي على الترتيب من حيث الاسم ومدة الحكم. أن هؤلاء قد تقلدوا الحكم على الوجه التالي:

بعد محمود باشا بن سليمان باشا آل خالد باشا تولى الحكم أبناء

أخيه أحمد باشا وهم: إبراهيم باشا، وعثمان باشا، وعبد الرحمن باشا، ثم من بعدهم خالد باشا، وبعده مكرراً إبراهيم باشا وعبد الرحمن وسليمان باشا ومن بعدهم أيضاً عبد الرحمن باشا. وبعد وفاته تولى الحكم ابنه محمود باشا وبعده عبد الله باشا أخو عبد الرحمن باشا وفي سنة ٤٠ تولى الحكم محمد باشا بن خالد باشا لمدة سبعة أيام، ومن بعده محمود باشا أيضاً وأخوه سليمان باشا. وكلمة خان بدل الباشا التي كانت تطلق على أبنائهم إنما هي كانت من بقايا الألقاب التي فرضها الإيرانيون منذ عهد سليمان باشا.

وكانت أردلان وصاوق بولاق من ضمن مقاطعة شهرزور كما وأن كوي وحرير والجانب الشمالي من السليمانية وسردشت التي تبعد ١٤ ساعة عن السليمانية من ملحقات (قرة چولان).

وأن زهاب وكوى وحرير كانت تنفصل في بعض الأحيان ويعهد حكمها إلى بعض الذوات بعد وفاة سليمان باشا.

وبعد ذلك حاول الإيرانيون الاستيلاء على السليمانية فكان الفشل في كل مرة يهجمون عليها، وأخيراً تمكنوا في مرة من المرات احتلالها وإخراج سليمان باشا منها، ولكنه جمع عشائره وأتباعه وظل يقاوم ويدافع حتى استردها وطرد محمود باشا منها، دون أن يتلقى أية معونة أو مدد من بغداد. ولما كان قد تعذر عليه طرد القوة الإيرانية النظامية التي كانت قد تحصنت فيها على عهد محمود باشا، وأن الحكومة المركزية في بغداد لم تسارع إلى مده وشد أزره، فقد ترك هذه القوة محصورة في استحكاماتها وحصونها واضطر إلى أن يؤدي لها أرزاقها وتعييناتها.

هذا وبالنظر لوفاة فتح علي شاه سنة ١٢٥٠ وشبوب الخلافات

والمنازعات بين أمرائه فقد انسحبت تلك القوات التي كانت مرابطة في السليمانية بإيعاز من محمود شاه الذي تسنم كرسي الحكم في إيران، وبهذه المناسبة قام سليمان باشا بجمع وتجنيد قوة كبيرة من الأهالي والعشائر تقدر بثلاثة أفواج من المشاة وبطرية مدافع وجهزها بما تحتاج من عتاد وسلاح وجعل عليها ضباطاً من المحاربين القدماء المتقاعدين لتدريبها، وقد خوله الوالي علي باشا حق التصرف بهذه القوة، وبعد إكمال تدريبها على الفنون العسكرية وتقويتها ببعض الجنود النظاميين المدربين قسمها على المواقع المهمة، وبهذه الأعمال التي تدل على غيرة سليمان باشا ووطنيته وهمته وإخلاصه، استطاع أن يقطع طمع الإيرانيين بهذه المنطقة بصورة عامة والسليمانية بصورة خاصة ولم يعودوا بعد هذا يتحرشون بها.

وبعد وفاة الموما إليه سنة ١٢٢٥ تولى المتصرفية أكبر أولاده، وهو أحمد باشا، وبعد مرور أحد عشر شهراً عهد بها إلى عمه محمود باشا، ثم أعيدت إليه بعد تسعة أشهر، وعلى العادة القديمة التجأ محمود باشا إلى إيران. أما أحمد باشا فقد سار على آثار أبيه وجند له فوجاً من المشاة ومقداراً من الجنود النظاميين وجهز هذه القوة بما تحتاج إليه من المدافع والعتاد ودربها تدريباً كاملاً، ثم راح يتعقب محمود باشا ويكاتب الإيرانيين بوجوب إعادته. ولما كان الإيرانيون قد يئسوا من السليمانية في تلك الجهات، فقد نفضوا أيديهم من مساعدة محمود باشا.

ولما كان أحمد باشا من ذوي الهمم العالية وأنه ـ كأبيه ـ لم يغرر به الأجنبي، ولم يتمكن من جذبه، فلم تقع في عهده تلك المنازعات التي كانت تقع على حدود الدولتين بين العشائر، بل على العكس أخذ كل منهما يستضيف الآخر الأمر الذي جعل الدولة العثمانية ترتاب من نوايا

الموما إليه. وعليه فقد صدرت الأوامر بجلبه إلى بغداد وعزله عن منصبه ثم وضع داخل القلعة تحت الحراسة المشددة وذلك سنة ١٢٥٨ وعين قادر بك بن إبراهيم باشا بدلاً عنه، وكان هذا يقيم في بغداد منذ أمد طويل وكان كأبيه يحب بغداد ويهواها ولا يقوى على مفارقتها، ويحب التقرب من الجهات العليا. وقد منح لقب باشا وجعلت الحكومة تحت إدارته قوة عسكرية تقدر بستة آلاف جندي.

ولما وصل السليمانية قام عبد الله بك، أخو أحمد باشا، وجمع قواته وأتباعه وغادر إلى (بازيان دربند) حيث استولى عليه وعسكر هناك خوفاً من أن يلقى القبض عليه هو أيضاً ويودع السجن كما أودع أخوه.

أما الإيرانيون فلما بلغهم خبر عزل أحمد باشا وغيابه عن السليمانية عادوا إلى عادتهم واغتنموها فرصة سانحة لاحتلالها ولتعيين محمود باشا من قبلهم حاكماً عليها. وعليه فقد قام والي (سنه) على رأس قوة تقدر بحوالي العشرة آلاف جندي ما بين مشاة وخيالة واتجه نحو الحدود وتخطاها.

ولما بلغ الخبر مسامع عبد الله بك استعد لمقابلته، وكتب إلى قادر باشا يعلمه بالخطر الداهم، ويطلب إليه أن يخبر أمراء الجيش الذين رافقوه من بغداد ليكونوا على حذر ويلتمسه بألا يدع قواته تتقدم لأنه يتعهد هو وقواته بالتصدي للعدو القادم ورده على أدباره. ثم اندفع بالقوات التي معه وقدرها ألفان وثلاثمائة جندي نحو الحدود كالبرق الخاطف وهبط على الأعداء هبوط الصاعقة وراح يحصدهم حصداً ويهجم عليهم هجوم الأسد الضرغام، وظل يضربهم ويمزق تجمعاتهم حتى هزمهم وراح يطاردهم إلى منتهى حدودهم.

ولما وردت أخبار هذا النصر الباهر إلى بغداد كانت الأوامر قد

صدرت بنقل والي بغداد إلى ولاية الشام وتعيين نجيب باشا والي الشام والياً على بغداد. ولما رأى أمراء الجيش ما فعله هذا البطل، أودعوا متصرفية السليمانية إليه بالوكالة، وعادوا إلى بغداد.

وعند مجيء نجيب باشا وجلوسه على كرسي الحكم وإطلاعه على قضية أحمد باشا، أطلق سراحه فوراً، وأعاده مكرماً محترماً إلى منصب متصرفية السليمانية. ولما وصلها أخذ يبذل قصارى جهده في سبيل تحسين أحوال البلد، ومضاعفة وارداته، وتشجيع السكان على الزراعة، ووفر لهم وسائل العيش الرغيد والراحة والأمن كما وانصرف أيضاً إلى تحسين وتقوية الجيش وزاد في عدده ومهماته واستطاع بكل يسر أن يقدم ألف بدرة سنوياً إلى الحكومة المركزية في بغداد تنفيذاً للوعد الذي قطعه على نفسه وبقي يقدم هذه المبلغ مدة حكمه.

لقد كان متصرفوا السليمانية إلى آخر حكم والده سليمان باشا لم يستطع أحد منهم أن يوفر مثل هذا المبلغ ويقدمه إلى الحكومة المركزية في بغداد بل على العكس كان المتصرفون يأتون إلى بغداد هم وأبناءهم وأتباعهم ويكونون عالة على الحكومة ويضطرونها إلى إسناد بعض المقاطعات الصغيرة إليهم لكي يقتاتوا منها.

أما سليمان باشا فإنه فضلاً عن كونه قد وقف حائلاً بوجه الإيرانيين فقد كان يوفر للخزينة المركزية في بغداد حوالي الخمسمائة بدرة سنوياً وبناءاً على مدح جهوده من قبل الوالي علي باشا وتوصياته بحقه فإن الدولة العثمانية قد حبته بأكرامها وأنعمت عليه بالخلع السنية والأوسمة الرفيعة تقديراً وتشجيعاً، وأخيراً منحته رتبة فريق ولكنه قبل تلقي هذه الرتبة التي كانت في طريقها إليه أدركه الأجل الموعود وانتقل إلى جنان ربه.

أما نجله أحمد باشا فكما ذكرنا آنفاً قد سار على نهج أبيه وبذل المساعي والجهود حتى تمكن أن يقدم للخزينة المركزية ضعف ما كان يقدمه والده المرحوم ودلل بذلك على إخلاصه لحكومته وحبه لوطنه. ومع كل هذا فسنأتي إن شاء الله على بيان كيفية عزله في مكان آخر.

وقد عين بدله أخوه السالف الذكر عبد الله بك وتقلد رتبة ميرميران ولكن بعنوان قائمقام السليمانية إذ اعتبرت قضاءاً كسائر الأقضية. وكانت احتياجات ورواتب لواء المشاة والمدفعية المقيمين فيها وعتادهم وألبستهم تجهز وتدفع من قبل خزينة بغداد. وبدلاً من الألف بدرة التي كانت تجبى من السليمانية زيدت إلى الثلاثة آلاف بدرة. ثم عزل عبد الله بك سنة ١٢٦٧ وعين بمكانه المير لواء إسماعيل باشا. وقد انقرض الحكام البابانيون وعادت السليمانية كأحد الأقضية تدار دفة الحكم فيها من قبل رجال الدولة العلية وألغيت إقامة لواء المشاة والمدفعية منها وقسمت وحداته على بقية الأقضية وتلاشي هذا اللواء بعدما كان قد بلغت أفراده العشرة آلاف محارب وبعدما كان يستطيع الوقوف بوجه أكبر جيش.

ثم تضاءلت واردات السليمانية إلى درجة لم تعد تكفي لسد احتياجاتها المحلية. وأخذت تستجدي العون من الأمكنة الأخرى ثم تسلط عليها الهماوند فزادوا في خرابها وصار أهلها في فقر مدقع وأخذت الأمراض تفتك بهم ولا يملكون لها دفعاً ولا علاجاً.

وهكذا انحط هذا اللواء من منزلته الشامخة، ولو كانوا قد تركوه تحت إدارة هذه الأسرة بضعة سنوات لانتعشت الأحوال فيه ولازدادت قواته الدفاعية التي كانت فيه ولساعدت الدولة العلية في حربها مع روسيا وفي حربها الأخيرة في أرضروم.

أما محمود باشا فقد بقي لدى الإيرانيين بضعة سنوات أخرى ثم سأم الإقامة في ديار الغربة وكأبيه أحمد باشا وأخيه عبد الله باشا ضاقت نفسه بالابتعاد عن الوطن وازداد حنينه إليه ثم وجد فرصة تمكن بها من الفرار من إيران والمجيء إلى بغداد لاجئاً. وبالنظر لمنزلته ومنزلة أسرته ولبلوغه سن الشيخوخة فقد صدر العفو عن تصرفاته السابقة وخصص له مرتب يكفي لسد نفقاته واحتياجاته، ثم اختار الإقامة في الأستانة وهناك وافته المنية وانتقل إلى رحمة الله.

أما أحمد باشا فإنه لم يأت إلى بغداد بعد عزله وإنما توجه مباشرة إلى الأستانة وأقام فيها وقد خصصت له الحكومة مرتباً يعتاش منه.

ولما كان الموما إليه من الرجال المثقفين ويحمل أفكاراً راقية فإنه لم ينفق وقته سدى بل راح يتعلم اللغة الإفرنسية حتى أتقنها وتعلم أيضاً بعض العلوم العصرية ثم اتجهت عزيمته إلى السياحة في أوروبا للإطلاع على ما وصلت إليه من التقدم والرقي ومكث هناك مدة عاد بعدها إلى الأستانة وقد أنعمت عليه الدولة برتبة بكلر بكى في الروم ايلي وبعدئذ عين متصرفاً على اليمن فأظهر كفاءة ومقدرة وتوفق في أعماله وكسب مرضاة المقامات العليا في الدولة وكانت له منزلة رفيعة بينهم.

أما عبد الله باشا فإنه بعدما مكث بضعة سنوات في وظيفة القائممقامية تعرض لقالة السوء وراح المغرضون يشوهون سمعته وأخيراً صدر الأمر بعزله وتركه تحت الحراسة بضعة أشهر وبعدها تبين بنتيجة التحقيق أن ما أسند إلى الموما إليه عبارة عن مفتريات لا أساس لها من الصحة، وبينما كان الوالي عمر باشا يفكر في رفع الحيف عنه ومكافئته انفصل عن الولاية مما أدى إلى بقاء الموما إليه تحت الإقامة الجبرية في بغداد.

إن عبد الله باشا كان كأخيه ذكياً ألمعياً وكان يتقن أيضاً اللغة الإفرنسية، وكان ثالث أبنائه محمد بك من الذكاء بحيث لا يختلف عن أخوته، وقد أتقن أيضاً اللغة الإفرنسية ونال تفوقاً في بقية العلوم، وقد أناط به الوالي رشيد باشا بعض الوظائف ومنها وظيفة القائممقام والميراخور ولكنه سحب كما سحب أخوه ووضع تحت الحراسة العسكرية ظلماً، وبقي مدة في التوقيف ثم أطلق سراحه وأنعم عليه بلقب سردار وسمح له بالإقامة في السليمانية.

وبالنظر لخدماته ومقدرته فقد عهدت إليه الحكومة ببعض الوظائف الرفيعة. وفي الوقت الذي كانت تجري الترتيبات لترفيعه إلى رتبة أعلى انفصل الوالي المشار إليه وانفصل هو أيضاً وفرضت عليه الإقامة الإجبارية في بيته.

وما عدا هؤلاء من أبناء سليمان باشا فقد كان هناك قادر بك وحسن بك وغيرهما من أبناء البشوات والبيكات وكلهم تعرضوا إلى مصائب الدهر وتقلباته ونعوذ بالله من الجور والطغيان.

أسرة آل شبيب والحرب بين قبيلتي الأجود وبني مالك

إن رأس هذه الأسرة أحد شرفاء مكة المكرمة وهو الشريف مهنا. وقد غادر الحرم وبطحاء مكة مضطراً على أثر حدوث نزاع وتنافر ما بين الشرفاء (قد تنزح الآساد من غاباتها والطير من وكناتها) واختار الإقامة بين قبيلة بني مالك، وهي من القبائل المشهورة بالقوة في لواء البصرة وكانت تناقشها على الرئاسة عشيرة أخرى تجاورها وهي عشيرة الأجود، وبعد جدال ونزاع اتفق وجوه الفريقين على انتخاب شيخ لكلتاهما بشرط أن يتجرد عن الانحياز والميول والأهواء وأن يلتزم جانب العدل والحق

في أحكامه. وأخيراً ولما كان الشريف مهنا من سلالة الدوحة الهاشمية وغصن من أغصان الشجرة النبوية فقد وفق اختيار القبيلتين عليه، وقد استطاع بحنكته وخبرته ورجاحة عقله من فض الخلافات بينهما وتوحيدهما ومعالجة شؤونهما بالحق والعدل وبذلك أزال أسباب الجفاء منهما. ولكنه تزوج بعدئذ من امرأة مالكية وأخذ بطبيعة الحال يميل إلى قبيلة امرأته ويرجحها على قبيلة الأجود في أحكامه. وقد أثار هذا الزواج ضغينة قبيلة الأجود وزاد في غيظها وحقدها وحسدها فأضمرت له السوء ثم اغتالته بخنجر غدرها، ولم تكتف بهذا بل حاولت قتل ابنه شبيب البالغ من العمر خمس سنوات.

غير أن أخواله حالوا دون ذلك ولم يسمحوا لأحد بالدنو منه، والتحمت القبليتان في حرب ضروس بحيث أعادت إلى الأذهان حرب البسوس. ثم غلب بنو مالك على أمرهم واضطروا إلى النزوح من ديارهم واختاروا نجداً حيث أقاموا هم وعوائلهم وأموالهم.

وبما أن الأراضي النجدية عبارة عن صحاري وبراري لا زرع فيها ولا خصب، وسكان نجد معظمهم من الأعراب الصعاليك وضعيفي الحال فإن هذه الديار التي نزحوا إليها لم ترق لهم، ومع ذلك احتملوا شظف العيش فيها مكرهين إلى أن تردت حالتهم وأخذت تسوء سنة بعد أخرى، وبعد مرور سبع سنوات على إقامتهم في نجد أرسلوا من بينهم رسولاً إلى قبيلة الأجود لكي يمهد لهم أمر الصلح عسى أن يتمكنوا من العودة إلى وطنهم الذي جروه مضطرين.

ولما لم يعد هذا الرسول غرزوه بثان وهذا أيضاً لم يعد مما بعث إلى نفوسهم اليأس والقنوط.

أما شبيب نجل الشريف مهنا فقد انعقدت أواصر الصحبة والمحبة

الأخوية بينه وبين حفيد شيخ القبيلة المدعو ماجد، وتوطدت بينهما الإلفة بحيث أصبحا كأخوين شقيقين لا يستطيع أحدهما الافتراق عن الآخر.

ومع أنهما لم يتجاوزا الرابع عشرة من العمر فقد كانا على جانب كبير من رجاحة العقل والفطنة والذكاء. ولما كانت أم ماجد من عشيرة الأجود فإن القبيلة اختارت ابنها ماجداً للسفر نحو ديار قبيلة الأجود لسبر الأحوال ولمعرفة ما حل بالرسولين الذين ذهبا ولم يعودا.

وبناءاً على هذا فقد سافر ماجد نحو ديار أخواله، ولما وصل إليها واقترب من دار خاله، وكان آنذاك هو شيخ القبيلة، تلثم وعقل ناقته بالباب ولم يدعها تشرب من الماء الذي يجري بقربها. ثم تقدم من خاله وكشف اللثام عن وجهه فعرفه ولكنه اضطرب وأخذته الحيرة واعتذر عن قبوله وأمره بالعودة خشية عليه، فما كان منه إلا أن ركب ناقته وكر راجعاً دون توقف غير أن بعض الأفراد تبعوه ولما علموا بأنه ابن أختهم أخذتهم الرأفة به وجمعوا له مقداراً من الطعام والهدايا له ولأمه وسلموها إليه في مكان بعيد عن العشيرة وفي أثناء ذلك سألهم ماجد عن أحوالهم وميولهم تجاه بني مالك والأمكنة التي ترعى فيهم إبلهم وأنعامهم، ولما علم منهم كل ذلك وعلم أيضاً بأنهم قد غدروا بالرسولين وقتلوهما عاد من الطريق الذي أتى منه.

فلما وصل إلى قبيلته هرع قبل كل شيء لملاقاة شبيب وأنبأه بكل ما حصل عليه من معلومات وبعد المذاكرة اتفق الاثنان على عدم البوح بشيء مما ذكره ماجد إلى أي أحد بل على العكس فقد صرح لهم أن عشيرة الأجود بانتظار قدومهم، وأن العشيرة المذكورة قد احتفظت بالرسولين عندها وزوجتهما وعاملتهما بمنتهى اللطف والكرم ريثما

تعودون إلى دياركم وأنه أيضاً تلقى من الترحاب والإكرام ما لا مزيد عليه. وبهذه الأخبار أدخل السرور على قلوبهم، وجعلهم في فرح لا يوصف، وراحوا يستعدون للعودة إلى ديارهم بأسرع ما يمكن.

وخلال مدة قليلة أكملوا فيها استعدادهم وسافروا جملة واحدة يحدوهم الشوق إلى الوطن حتى بلغوا أبواب الصفر التي تبعد عن ناحية الزبير حوالي الستين ساعة. وهناك حطوا رحالهم وأولم لهم ماجد وليمة عامة حضرها رجال القبيلة ومن تبعهم من عشائر نجد وصعاليكها وبعد الفراغ من تناول الطعام باغتهم بالخبر اليقين عما لاقاه من بني الأجود، وما سمعه منهم أثناء سفره إليهم، وكيف أنهم غدروا برسل بني مالك وأوردوهم الهلاك وصرح لهم بفكرته ووجوب الأخذ بالثأر وجعل القوم في موقف حرج وقد خير الذين يخافون على أنفسهم بين العودة من حيث أتوا وبين الإقدام على الفوز المنتظر، وبما أن العودة بعدما قطعوا هذه المسافات الشاسعة أصبحت من المستحيلات لاحتياجهم إلى الراحة والزاد والسفر المضني، فقد اختاروا الوطن ومقاتلة بني الأجود حتى النفس الأخير. وعليه واصلوا السفر وكل من ماجد والشريف شبيب في طليعتهم إذ تقدما أمام القوم مسافة بعيدة، واقتربا قبلهم من ديار بني الأجود. وبعد التأكد من غفلتهم وغفلة الرعاة الذين يرعون ماشيتهم وأنعامهم وعددهم، عادوا مسرعين نحو القبيلة وبعد الاستعداد هجموا على الرعاة والحراس وقتلوهم عن بكرة أبيهم، واستاقوا الحلال ثم واصلوا غارتهم نحو مقر قبيلة الأجود وباغتوها ليلاً وكانت مطمئنة ومتفرقة هنا وهنا ولم يخطر ببال أحد منهم عودة بني مالك أو قدرتهم على مهاجمتهم، فلم يروا إلا وبنو مالك تطوقهم من جميع الجهات وتضع السيف في رقابهم، وتقع بهم فتكاً وقتلاً، وهكذا (إن الحوادث

قد يطرقن أسحاراً[١] وأخيراً انتصروا انتصاراً باهراً على بني الأجود وتغلبوا عليهم، واستولوا على أموالهم وأراضيهم وشتتوا رجالهم وجعلوا الأحياء منهم شذر مذر.

وبعدما هدأت الأحوال، وعادت الأمور إلى مجاريها الاعتيادية، واستقرت بنو ملك في ديارها جرى انتخاب شبيب نجل الشريف مهنا شيخاً للعشيرة بإجماع الآراء. وقد استطاع أن يضم الأراضي والعشائر المجاورة إلى لوائه وتحت رئاسته بموافقة تلك العشائر نفسها.

وبعد وفاة شبيب، تقلد الرئاسة ابنه مانع، ثم شبيب الثاني ابن مانع، وبعده مانع الثاني، وبعد مانع الثاني تولى الرئاسة أبناؤه: محمد وحمود وسعدون المحمد وعبد الله المحمد وثامر السعدون وثويني العبد الله وحمود الثامر وعجيل المحمد وماجد الحمود وعيسى المحمد وفيصل الحمود وعيسى وبندر المحمد وفهد المحمد ومنصور الراشد وفارس العجيل وصالح العيسى وكذلك منصور الراشد مكرراً وبندر الثامر ومنصور.

ثم في وقتنا هذا صدرت الأوامر في ولاية بغداد بتعيين بندر شيخاً على عشائر المنتفق.

لقد كان هؤلاء يدفعون إلى الخزينة المركزية في بغداد اثنا عشر ألف شامي سنوياً أي ما يعادل مائة واثني وثلاثين ألف غرش صاغ من نقود وقتنا هذا.

---

(١) أصل البيت:

يا راقد الليل مسروراً بأوله   إن الحوادث قد يطرقن أسحاره

(المترجم)

ومع أن نفوسهم تبلغ المائتي ألف فإنهم ظلوا على طاعتهم لولاة بغداد بصورة ظاهرية ولكنهم يمارسون سلطتهم كرؤساء عشائر كحكومة مستقلة. وبالنظر لنفوذهم فإن عزلهم وتبديلهم ليس من الأمور السهلة، حتى أن أحد رؤسائهم وهو الشيخ ثويني، قد تمرد على الحكومة المركزية في بغداد، واحتل البصرة، وادعى بأنه ما زال على طاعته للدولة العثمانية، غير أنه ابتعد شيئاً فشيئاً حتى أعلن انفصاله واستقلاله، وقام بتشكيل دولة عربية مستقلة، وكان ذلك على عهد والي بغداد المرحوم سليمان باشا الكبير. وقد خرج الباشا المذكور على رأس قوة كبيرة وتمكن من قمع هذه الفتنة، وإخماد ثورة العشائر، وقد عزله عن المشيخة، وعين بمكانه حموداً، ومع كل هذا فإنه ثار مرة أخرى، واستنجد بالوهابيين الذين يحكمون ديار نجد، واستنجد أيضاً بالإيرانيين. ولما لم يفز بمرامه، ولم ينجده أحد، عاد وأعلن استسلامه وخضوعه للدولة العثمانية والتمسها أن تمنحه رئاسة لواء البصرة.

ولأجل الحصول على بغيته حضر إلى بغداد بعد صدور العفو عنه، ولكن الوالي أبقاه في بغداد وخصص له ولأتباعه ما يكفيهم من الرواتب والمخصصات.

وبعد مضي سبع سنوات، وبينما كان الوالي يقوم بزيارة مرقد الشيخ معروف الكرخي ألقى الشيخ المذكور بنفسه عليه متوسلاً ومتشفعاً بصاحب المرقد الشريف، وملتمساً إعادته إلى مشيخة المنتفق، ومتعهداً بعدم الخروج على الدولة مرة أخرى، وبأنه سيكون عوناً لها على أمراء الوهابيين المتمردين.

ولما كان الوالي يرغب في إضعاف الجهتين فقد أجابه إلى طلبه. وحال عودته إلى المنتفق جمع عشائره وجهزهم بالأسلحة، وبالمدافع

الإيرانية التي استولى عليها آل شبيب عند احتلال الإيرانيين لمدينة البصرة، وسار بعشائره وأتباعه نحو ديار نجد، وتمكن من محاصرة ابن سعود في الدرعية، ولكن ابن سعود استدعى عبده الزنجي وكلفه باغتيال شيخ المنتفق، فخرج العبد من الدرعية بزعم أنه فر من ابن سعود، ولما اقترب من الشيخ ثويني قذفه بحربته وقضى عليه. وعندئذ عادت مشيخة المنتفق إلى حمود الثامر، وهذا أيضاً لم يعد يكترث بحكومة بغداد بعد وفاة سليمان باشا.

وفي سنة ١٢٤١ أنيطت مشيخة المنتفق من قبل الوالي داود باشا بعهدة عجيل وهو أحد أبناء أخوة حمود الثامر. وقبض على حمود الثامر أثناء العمليات الحربية وجيء به إلى بغداد.

وبقي الشيخ عجيل على طاعته للدولة. يدفع لها سنوياً مائة ألف شامي، عدا المخصصات العينية.

وقد استمر الوضع على ما هو عليه إلى ما بعد انفكاك داود باشا وانقراض المماليك.

وعند تولي نجيب باشا خفض هذه الضريبة إلى ستين ألف شامي، غير أن رشيد باشا تمكن من جعلها مائة ألف، ثم أبلغها إلى الثلاثمائة ألف شامي بسبب احتياج الوالي إلى الأموال لصرفها على مشاريعه الجديدة في مختلف النواحي كما سنذكره في محله إن شاء الله.

وما عدا الرسوم الآنفة الذكر، فإن الوالي اقتطع من مشيخة المنتفق بعض القرى والمقاطعات التي تجاور البصرة والسماوة وكانت هذه تدر سنوياً ما يقارب التسع آلاف بدرة وأسس موقعاً عسكرياً في سوق

الشيوخ، وأبدل اسم مشيخة المنتفق وجعلها قائمقامية. وبهذا تمكن من إضعاف نفوذ رؤساء المنتفق.

وبقي قائممقاموا المنتفق يتداولون الحكم فيما بينهم، ويدفعون بالالتزام ثماني آلاف بدرة سنوياً. وقد انصرفوا كسائر العراقيين إلى زراعة الحنطة والشعير والأرز وبعض البقول الأخرى. وبسبب هذا التقدم في الزراعة بلغت الإيرادات من هذه المنطقة خلال خمس سنوات عشرة أضعاف ما كانت عليه.

الأسرة الوهابية

إن مؤسس هذه الأسرة رجل يسمى محمد بن سعود، وذلك أن السلطان سليمان القانوني بعدما استرد بغداد من أيدي الأعجام، تمكن من جعل الجزيرة العربية كلها تحت الراية العثمانية، وأن البحرين، ومسقط أيضاً أخضعهما وجعلهما تابعتين للدولة المذكورة، تتلقيان الأوامر والنواهي والتوجيهات منها مباشرة.

وبعد سنة ألف ضعف مركز الدولة العثمانية في هذه الجهات، واختلت الأنظمة والقوانين، وشيئاً فشيئاً أخذ الأمر يفلت من يدها.

ولما كانت «الدنيا لمن غلب» فقد انبرى بعض وجهاء ورؤساء هذه المناطق بالاستيلاء على دست الحكم كل في منطقته، ومنهم مشائخ نجد.

وبقيت هذه المناطق بوضع مضطرب فلا هي تخضع تماماً للدولة العثمانية ولا هي قد تمكنت من الاستقلال والحكم الذاتي وسن القوانين والأنظمة التي ترغب في السير بموجبها، وإنما بقيت في تذبذب وجهل مطبق، وتحت إمارة أناس غرباء عنها كما كانت الحالة في أمريكا.

وفي سنة ١١٦٥ هبط على دمشق رجل يسمى عبد الوهاب، وأخذ يدرس العلوم الدينية على المذهب الحنبلي، وبسبب بعض اعتراضاته الغريبة على شيخه، مفتي الحنابلة، فقد نفر منه الشيخ المذكور، ومنعه من الحضور لمجلسه، أو تلقي الدرس عليه. وعندئذ توجه نحو (نابلس) وهناك أيضاً تعرض لكراهية العلماء، ونفروا منه لتطرفه، فولّى وجهه تلقاء بغداد، ومنها سافر إلى قرية (الشنافية) التابعة لقائممقامية الديوانية. وبما أن سكان هذه الديار من الذين يقلدون علماء الشيعة، ويتعصبون لهذا المذهب، وأن سلوكه وتصرفاته ونظرياته تختلف تماماً عن تعاليم هذه الطائفة، فقد أجمعوا على قتله والتخلص من البدع التي حاول بثها بينهم، ولكنه فر من بين أيديهم، وسافر إلى البصرة، ولما أعياه الاستقرار هناك أيضاً اتخذ طريقه إلى نجد.

وفي نجد بالنظر للجهل الضارب أطنابه على سكانها، فقد آووه، والتمسوا من أحد أمرائهم أن يكون في عونه، إلا أن الأمير المذكور لم يوافق على بقائه بينهم، فالتجأ إلى شيخ إحدى قرى الدرعية المسماة جزعة وهي تتكون من أربعين بيتاً تقريباً. وهذا الشيخ هو الشيخ محمد السعود فقد أجاره وسمح له بالإقامة في قريته على شرط أن يعلم سكان نجد أمور دينهم ومذهبهم، فشمر عن ساعد الجد، وراح يدعو لمذهبه واتجاهاته بكل حماس واهتمام.

لقد أقبل عليه أهل قرية جزعة واحداً واحداً، واثنين اثنين، يتعلمون على يديه شروط وأركان الشريعة الإسلامية، فكان في بداية الأمر يعلمهم العقائد والأصول على المذهب الحنفي مما جعل الإقبال عليه كبيراً، لا من هذه القرية فقط بل ومن القرى المجاورة، واستطاع أن يستميل الشيخ محمد بن سعود، وأن يؤثر فيه حتى انقاد إليه، وأخذ هو

أيضاً يدرس عليه ويتعلم منه أمور دينه. ثم اتفق الاثنان على وجوب القيام بحركة إصلاحية لتعليم سكان نجد أمور دينهم، وسوقهم إلى التعليم طوعاً أو كرهاً وحملهم على اعتناق التعاليم الجديدة ومحاربة كل من يمتنع عن ذلك.

وبالنظر لما للدين والمذهب من منزلة رفيعة في قلوب الأهلين، بالإضافة إلى الأجر الذي ينالهم من الله إذا تعلموا العلوم الدينية، فقد أقبلوا على التعليم إقبالاً شديداً، وبالوقت نفسه انضووا تحت راية محمد آل سعود، وانصاعوا لأوامره، وبذلك كثرت أتباعه وأطلقوا عليه لقب أمير نجد.

وكان أمير نجد الحقيقي المعين بفرمان من السلطان العثماني على جهل تام بهذه الحركة، وكان غافلاً عما يدور حوله، وما يقوم به محمد آل سعود، حتى وردته أوامر هذا الشيخ تدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه سلطان نجد. وعندئذ هب من رقدته، وامتنع من تلبية الدعوة، وجمع جموعه وتهيأ للحرب.

ويقال إن هذه الحرب استمرت بينه وبين ابن سعود أربعين سنة، ثم انخذل أمير نجد الحقيقي وتلاشت قواته، وأجمعت العشائر النجدية كلها من أولها إلى آخرها على الخضوع للأمير محمد بن سعود، واعتنقت المذهب الوهابي، وتشكلت في هذه الربوع حكومة مستقلة تحت إمرة الأمير المذكور، وبعد وفاته تقلد الحكم ابنه عبد العزيز، ثم سعود بن عبد الله بن سعود، وبعده تركي أحد أبناء أخوة سعود، وبعده فيصل بن تركي.

وخلال حكم عبد العزيز بن محمد اتسعت رقعة الإمارة، وأصبحت لها قوة وصولة، واستولى الموما إليه بالقوة على (الأحساء) وما

جاورها، وقتل من العلماء الذين لم يفارقوا اعتقادهم ولم يقتنعوا بصحة المذهب الوهابي ما يبلغ عددهم المائتين، واندفع ينشر تعاليم هذا المذهب الجديد بالقوة.

ولأجل إنقاذ البلاد والعباد من شره، قام الوالي سليمان باشا الكبير بتجريد حملة عسكرية لإخضاعه بقيادة الكتخدا علي باشا، وكانت حملة كبيرة ومجهزة بمختلف الأسلحة والمعدات العسكرية.

وقد سافر علي باشا إلى تلك الديار سنة ١٢١٣ وكاد يتغلب على خصمه، ولكن عبد العزيز اتخذ موقف المدافع، وتحصن ولم يخرج لمقابلة هذا الجيش العرمرم، وابتعد عن مرمى قذائف المدافع العثمانية وبنادق جنودها، وظل الجيش يضيق عليه الحصار مدة أربعة أشهر تقريباً إلى أن أدرك جنوده السأم والتعب وقلة المؤون، وقد نفقت معظم الحيوانات وتعرض الجنود إلى الهلاك من تكاليف وثقل وطأة هذه الحرب التي لا جدوى منها، الأمر الذي حملهم على العودة إلى العراق بعدما اتفق قائد الجيش مع ابن سعود على وجوب عدم التعرض لحجاج بيت الله الحرام والمسافرين عند مرورهم بهذه الأمكنة.

أما الوهابيون فإنهم لم يوفوا بعهدهم، ولم يلتزموا بشروط الاتفاق المذكور، وعادوا إلى أعمالهم التعسفية، وأما الوالي سليمان باشا فقد غضب على كتخدا علي باشا، الذي أنفق بدون فائدة تلك المبالغ الطائلة، وعرض جنوده لمخاطر كثيرة، ثم ذهبت كل تلك الجهود والأتعاب أدراج الرياح، وكل ذلك بسبب عجز وتقصير الكتخدا المذكور، وعدم قدرته على إنجاز المهمة التي أوفد من أجلها.

وبعد عودة الجيش ازدادت شرور الوهابيين وقاموا بإرسال حملات

متفرقة تتعرض بالعشائر العراقية، وأخيراً هجموا على مدينة كربلاء ونهبوها، وأعملوا السيف في أهلها ثم عادوا من حيث أتوا.

أما رجال الدولة المسؤولون في ذلك الوقت فقد كانوا في شغل شاغل عن هذه الأحداث، وكانوا منصرفين إلى معالجة أمور أخرى من داخلية وخارجية وليس لهم من الوقت ما يحملهم على النظر في القضية النجدية لا سيما وأن نجداً تبعد عن الأستانة بمسافة خمسمائة ساعة، وعن بغداد ما يزيد على المائتين ساعة. ومن الصعوبة بمكان تجهيز القطعات العسكرية التي ترسل إلى هناك بالمؤن والذخائر عبر هذه المسافة الشاسعة.

وقد استفاد ابن سعود من انصراف الدولة عنهم وراحوا يبثون الدعوة لمذهبهم الجديد، ووسعوا رقعة حكمهم، وشجعتهم الظروف والفرص المؤاتية فهجموا على الحجاز، ومنعوا المسلمين من تأدية فرائض الحج، وزاد خطرهم، وعندئذ فقد انتبه المسؤولون من غفلتهم وأدركوا ما يترتب على توسع هذه الحركة من نتائج وخيمة، وصدرت الإرادة السنية من السلطان بتكليف والي مصر محمد علي باشا بقمع هذه الحركة، وقد قام المومى إليه بما يقتضي، وشمر عن ساعد الجد، وجهز حملة قوية تحت قيادة ابنه البطل المشهور إبراهيم باشا الذي ذاق الوهابيون على يديه الأمرين، إذ أخرجهم من القطر الحجازي، وبقي يطاردهم ويلاحقهم ويقتفي آثارهم وهم يفرون منه حتى بلغوا الدرعية وهو من خلفهم، وقد حاصرهم هناك وتغلب عليهم وشتت جموعهم وأسر أميرهم عبد الله وبقية أمراء آل سعود وسيرهم مكبلين بالحديد إلى مصر، ومن هناك أرسلوا إلى الأستانة، حيث أعدموا وبذلك كادت تنتهي القضية النجدية غير أن أحد أبناء عبد العزيز آل سعود، المسمى تركي،

نض بعد عودة الجيش من ديار نجد، ولمّ شعث رجاله، واستولى مجدداً على نجد، وأعاد تأسيس الإمارة السعودية هناك للمرة الثانية.

ومع أن الجيوش المصرية قد تصدّت للقضاء على هذا الأمير، فإنها لم تتمكن من التغلب عليه، كما وأن فيصل بن عبد الله الذي كان قد بقي أسيراً في مصر تمكن من الهرب والتحق بأهله يحارب في صفوفهم، وأخيراً استطاع الوهابيون من انتزاع الأراضي والمواقع من أيدي المصريين، وواصلوا تقدمهم إلى حدود الحجاز وبر الشام، ولما رأت الدولة العلية أن لا قبل لها بالقضاء عليهم، فقد وافقت على اعتبار نجد قضاءاً، وعلى تعيين فيصل بن عبد الله قائممقاماً فيه، وانسحبت عندئذ القوات المصرية.

إن معتقدات المذهب الوهابي وإن كانت لا تختلف عن معتقدات مذاهب أهل السنة والجماعة وسيرة السلف الصالح من العلماء الذين مالوا إلى الأخذ بالأحوط، إلا أن التعصب المذهبي قد انحرف بهذه الفرقة عن النهج القويم، وراحت تحلل وتحرم حسب ميولها وأهوائها، حتى أنهم حرموا زيارة قبور الصالحين، والتبرك بروحانيتهم، وأفتوا بتكفير المدخنين، ثم اشتد تعصبهم وانحرافهم إلى درجة أنهم اعتبروا المسلمين قاطبة كفاراً ما عداهم والعياذ بالله.

وبتعصبهم الأعمى هذا قد ضارعوا الصفويين في شق عصا المسلمين بترويج المذهب الشيعي بين الشعوب الإسلامية، وتفريق كلمتهم، والحث على زيارة قبور الأولياء والصالحين، والاستعانة بهم، واتخاذهم شفعاً، عند الله في أدعيتهم، والتقرب إليهم بتقديم القرابين والنذور، وبذلك ساروا على خط معاكس تماماً للخط الذي يسير عليه الوهابيون،

وأخذت كل فرقة من هاتين الفرقتين تهدم دون أن تشعر ما بناه الإسلام من وحدة وتصاف وإخاء ومساواة بين صفوف أفراده.

ولو كان بين منتسبي الفرقتين أناس يدركون مغبة هذه الأمور، ونهضوا لتوجيه المنحرفين وإعادتهم إلى جادة الحق، وتصدوا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الأخذ بما يلائم العصر ولا يتعارض مع لباب الدين، لما تمزّق شمل المسلمين، ولما صاروا فرقاً يكفر بعضهم بعضاً، ولأصبحت في الكرة الأرضية دولة إسلامية واحدة كبرى تجمع شمل الأمة، وتوحد كلمتها، وتسير بها على هدى القرآن والسنة النبوية.

ولكن الإفراط والتفريط في الاتجاهات والتعصب الأعمى في الاجتهادات، قد أدى بكل فرقة إلى الانحراف عن الصراط المستقيم.

هذا ولما كانت الفرقة الوهابية قد اعتبرت المسلمين قاطبة كفاراً ما عداها فقد نفرت منها الفرق الأخرى واعتزلتها، وراحت تنظر إليها نظرتها إلى العدو اللدود، وقد استطاع المصريون أن يكبحوا جماحها، ويجعلوها في عزلة تامة عن المدن المجاورة كبغداد والشام وحلب وغيرها فلم تعد تجسر على الدنو منها والتحرش بها.

لقد ذكر رفاعة بك في مؤلفه الجغرافي أن الوهابيين يملكون جيشاً قوامه مليون ومائتي ألف جندي أو يزيدون.

وهذا العدد مما نستنكره ونستكثره ولا نميل إلى صحته، ذلك لأن الدولة التي تملك هذا العدد من الجيوش يجب أن تكون نفوسها أضعاف أضعاف العدد المذكور، وأن تشغل مساحة من الأرض بقدر مساحة

أوروبا، بينما لا يتجاوز عدد نفوس الوهابيين من حيث المجموع عشر هذا العدد على أكثر الاحتمالات كما هو معلوم.

لقد كان المؤرخون القدماء يميلون إلى المبالغة في سرد المعلومات وتستحوذ عليهم الواهمة فيقعون فيما لا يقبله العقل، ولا يصدقه المثقفون، وكثيراً ما يذكرون الوقائع والأشياء غثها وسمينها دون محاكمة عقلية، ولا يمتنعون عن ذكر أي شيء يسمعونه دون تمحيص.

ولما كان أمثال هؤلاء المؤرخين ليسوا على شيء، من المعرفة بالحساب والهندسة والهيئة والجغرافية فإنهم معذورون إذا ذكروا ما لا يقبله العقل السليم. ولكننا لا نستطيع أن نعذر رجلاً مثل رفاعة بك الذي درس مختلف العلوم في أوروبا إذا تطرق إلى ذكر أشياء لا تمت إلى الحقيقة بصلة في كتابه الذي ملأه بمثل هذه الأساطير والأكاذيب والمختلقات لمجرد التقرب من محمد علي باشا، والي مصر، الأمر الذي ننتقده عليه ونلومه.

شخصيات الدولة القاجارية

إن القاجار عشيرة كبيرة من العشائر التركية القوية التي لعبت دوراً في تاريخ إيران، وكانت قبل توليها الحكم تنتقل كسائر القبائل والعشائر من مكان إلى مكان، وتجوب الديار الإيرانية في غدوها ورواحها. ولما تولى الحكم في إيران كريم خان زندي، بعد نادر شاه، أخذ يتقرب إلى هذه العشيرة ويتودد إليها، ويستميل رئيسها محمد خان إلى جانبه للاستعانة به. ولكنه بعدما قربه إليه غدر به مخافة أن يؤول تاج إيران إليه، وقد قبض عليه وأمات فيه آلة تناسله، وتركه في السجن. وعند وفاة كريم خان، هرب محمد خان من السجن، والتحق بعشيرته، ولما

كانت إيران في ذلك الوقت قد شملتها الفوضى من أربع جهاتها، وراح كل من يرى في نفسه المقدرة والقوة يسعى للحصول على التاج، فكان هؤلاء الطامعون ينادون بأنفسهم حكاماً على إيران ويحاربون بعضهم بعضاً.

ولما رأى الآغا محمد خان رئيس عشيرة القاجار هذه الحالة، وأن الفرصة مواتية، هجم بعشائره القوية على الديار الإيرانية وأخضعها واستولى على عرشها.

وبما أن الموما إليه لم يكن من ورثة نادر شاه، وأن كريم خان كان قد اتخذ ما يحول دون نواله لقب شاه، فقد لقب نفسه بمحمد خان حاكم إيران، وبقي في الحكم مدة طويلة يفعل ما يشاء ويختار ما يشاء، وقد تقدمت البلاد على عهده، وصارت له منزلة تضاهي منزلة سلاطين آل عثمان واستولى على بلاد كرجستان التي كانت تدفع الجزية التي كانت تدفع الجزية للدولة العثمانية وتغلب على حكام تلك المنطقة، وجعلهم تحت حكمه وهدم عاصمتهم، تفليس «التي كانت روسية تضع يدها عليها وتحاول إدماجها بممتلكاتها، ولذلك كانت قد ساعدت على تقدمها من الناحية العمرانية».

وبعد وفاة محمد خان تولى الحكم ولي عهده، وأحد أبناء أخوته المسمى فتح علي شاه، وظل هذا يحكم إيران أربعاً وأربعين سنة ولقب شاه إيران.

ولما وافته المنية، خلفه ولي عهده وحفيده محمد شاه، الذي حكم أربع عشرة سنة، ثم ورث العرش ابنه ناصر الدين شاه، وهو شاه إيران في الحال الحاضر.

كانت البلاد الإيرانية على عهد فتح علي شاه تنعم بالأمن والاستقرار، وكان الأمير ميرزا عباس الملقب نائب السلطنة تمكن بمختلف السبل من إقناع فتح علي شاه بضرورة إعلان الحرب على روسيا والمبادرة بمهاجمتها.

وقد جهز لهذه الحرب مائتي فوج من المشاة النظاميين، ومائة ألف من الخيالة. ولما كان كل هذه القوات أو معظمها من القبائل الذين يعوزهم التدريب على الفنون العسكرية، وينقصهم العتاد وبعض الأسلحة الضرورية كالمدافع فإنهم لم يستطيعوا الثبات أمام الجيوش الروسية المدربة تدريباً عصرياً، وخلال بضعة أشهر تخلوا عن إيروان ونخجوان، وتخلوا أيضاً عن بعض القلاع والحصون، وراحوا يتراجعون رويداً رويداً حتى غلبوا على أمرهم تماماً. وعندئذ وافقوا على قبول شروط الصلح.

إن فتح علي شاه، وإن لم يكن على جانب من الثقافة، إلا أنه تمكن من إدارة دفة الحكم أكثر من أربعين سنة بذكائه ودهائه ورجاحة عقله، وكان إذا هدد أنفذ تهديده، وكان لين الكلام بشوشاً، ومع قدرته في الحكم فإنه لم يفكر يوماً في تحسين الأحوال من النواحي الإدارية والمالية والعسكرية كما هو الحال في الممالك الأخرى، وكان مغرماً بالغيد الحسان والجواري والقيان، وسماع الألحان. فبين هذه الأمور كان يقضي معظم أوقاته. ولما توفي أخلف حوالي الثلاثمائة من الأولاد والأحفاد، ومثل هذا القدر من الزوجات، وأكثرهم قد ساءت أحوالهم وانحدرت بهم الدنيا وأمسوا في حالة يرثى لها.

بعد وفاة علي خان تولّى السلطنة القاجارية محمد شاه الذي افتتح عهد حكمه بتحسين وضع الجيش وتزويده بالمدافع والأسلحة الحديثة، وتدريب أفراده تدريباً عصرياً، غير أنه أصيب بداء النقرس، ذلك الداء

الذي حال دون قيام الشاه بإنجاز مشاريعه الجبارة الواسعة التي كان يمني نفسه بإنجازها، وظل يعاني الأمرين، من هذا المرض ويقضي أيامه في المعالجة حتى وافته المنية، وقد أخلفه في تولي العرش ابنه ناصر الدين شاه الوريث الوحيد للتاج الإيراني.

وبالنظر لحداثته ـ إذ كان في عنفوان شبابه ـ عهد بإدارة شؤون المملكة إلى وكلائه، وانصرف هو إلى ما ينصرف إليه الشباب من أمثاله، وبعد مضي حوالي العشر سنوات، انتبه إلى نفسه وإلى المسؤوليات الجسام الملقاة على عاتقه، وكان أول عمل قام به هو إلغاء بعض الوظائف، ومنها وظيفة مسند الصدارة، وتولى الأمور بنفسه، ولكن بدون جدوى لأن البلاد قبل توليه الحكم كانت تسير إلى الوراء، ثم ازدادت حالتها سوءاً حين تقلد زمام أمورها وهو شاب غرير، وانصرف إلى لهوه وعبثه كل هذه المدة وبذلك فقدت البلاد من يأخذ بها إلى التقدم والرقي، ولم ينفذ فيها أي مشروع إصلاحي.

إن البلاد الإيرانية بالنظر لخصوبة تربتها، ولموقعها الجغرافي الممتاز، وبعدها عن الدول الأوروبية المتطاحنة، وقرب مدنها بعضها من بعض، واعتناق سكانها مذهباً واحداً وهو المذهب الشيعي الذي أقام دعائمه الصفويون، فقد كان ينبغي أن تكون في مصاف الدول الكبرى إن لم تكن أرفعها قدراً وأن يتولى حكمها شاه على جانب كبير من الصفات المؤهلة للحكم، ومن الذين لهم اطلاع في مختلف المجالات العلمية والخلقية، وأن يكون له من ذوي المواهب والعقول النيرة أعوان يستعين بهم على إدارة دفة الحكم، لا سيما وأن الإيرانيين لهم من القابلية والكفاءات والاستعداد لتلقي مختلف العلوم والفنون ما يؤهلهم للترقي والتقدم على الشعوب الأخرى. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، وبقيت إيران على ما وصفناه من التردّي والضعف والانحلال.

نظرة شاملة على الأوضاع العراقية

يتبين للقارىء مما قدمناه أن القطر العراقي لم يذق طعم الراحة منذ انتهاء حكم خلفاء الدولة العباسية، وإن الذين أتوا من بعدهم قد زادوا في الطين بلة، وذاق السكان الأمرين على أيديهم، وقاسوا من أنواع المحن والمصائب ما لا مزيد عليه، لا سيما بعد ابتلائهم بالتسلط الإيراني. ولما لم يبق لهم من أمل سوى الالتجاء إلى الدولة العثمانية لإنقاذهم مما هم فيه، فقد اتفقوا مع ذي الفقار خان وعرضوا التماسهم على واسطة عقد سلاطين آل عثمان السلطان سليمان القانوني لكي يتولاهم برعايته، ويزيل عنهم الكابوس الإيراني، ويكشف عنهم العذاب والمحن التي يقاسونها. ولما بلغ ذلك مسامع شاه إيران، وهو الشاه طهاسب في ذلك الحين، جهز عليهم جيشاً كبيراً عزّز به احتلال بغداد وقواه، وتناول سكانها بمضاعفة تعذيبهم، وقد قتل الكثير منهم وخاصة أولئك الذين يتصفون بالوطنية، ونكل بهم وشدد الخناق عليهم، ولكن لم يمض وقت طويل على هذه الغمة حتى أدركهم السلطان سليمان وأنقذهم مما هم فيه من بلاء، وذلك سنة ٩٤١ وأعاد الأمن والاطمئنان إلى هذه الربوع، غير أن رجال الدولة المسؤولين انصرفوا بعد ذلك وخاصة في القرن الحادي عشر نحو منافعهم الذاتية، وتركوا المصالح العامة في زوايا الإهمال، الأمر الذي أدى إلى تسرّب الضعف والتسيب إلى مختلف المصالح، وقد تغاضى أولئك المسؤولون عن سوء أعمال مرؤوسيهم، فاندفع هؤلاء يمعنون في الانحدار بالبلاد نحو الهاوية والخراب والدمار، ويزيدون في بطشهم وقسوتهم تجاه السكان المواطنين حتى أصبح العراق الذي يتحسر على امتلاكه ملوك الدنيا نهباً مقسماً بأيدي الطامعين وميداناً فسيحاً لغارات الإيرانيين ثم تداركه السيف

الصارم السلطان مراد الرابع المشهور باسم مجدد الألف الثاني وأنقذه مرة أخرى من أيدي الإيرانيين وضمه نهائياً إلى بقية المماليك الإسلامية التي ترفرف عليها راية عثمان.

وبعد وفاة هذا السلطان أخلفه من بعده أخوه إبراهيم خان الذي كان خائر العزيمة وفاتر الهمة، ولم يقو على تحمل أعباء السلطنة ومسؤولياتها الجسام الملقاة على عاتقه أكثر من سبع سنوات. وأعقبه الأمير أوجي سلطان محمد خان، ولكن هذا كان شاباً يافعاً لم يحسن ممارسة شؤون الدولة وعاد بالبلاد القهقرى أكثر مما كانت عليه قبل عهد السلطان مراد الرابع. وإذا كان قد أعان ذلك السلطان على إدارة دفة الحكم رجال عظام، مثل الوزير كوبريلي باشا وإخوانه وأبنائه، فإن هذا السلطان لم يكن معه من يستعين به، وأناط أمور الدولة إلى أيدٍ غير قديرة وليست لها أهلية وقابلية، فانحدرت المصالح واعتورت مرافق الدولة العلل والأمراض. ومن جراء ذلك تدهورت الأحوال في العراق أيضاً، وراحت البلاد تتدانى يوماً بعد يوم، إلى أن هيأ الله لها ذلك الرجل العظيم حسن باشا، ومن بعده أحمد باشا. إذ بذلا في سبيل تقدم البلاد العراقية كل ما في وسعهما وسارا بها نحو التقدم والازدهار بعيداً. ثم أعقبهما الوزير الشجاع المكنّى بأبي ليلة سليمان باشا وهو من المماليك. وبقي العراق ينعم في زمن هؤلاء بالهدوء والأمن والرقي في مختلف المجالات، ولكن أخذ يساور رجال الدولة العثمانية من وساوس الريبة والشكوك من ناحية المماليك، وأخذوا ينظرون إليهم بحذر واهتمام بالغ،وليس أدلّ على ذلك من إيعازهم إلى رجل مثل الاسبيناقچي مصطفى باشا بأن يغتال ويغدر بوزير قدير مخلص لوطنه ودولته مثل عمر باشا، ويذيقه الموت ظلماً وعدواناً. ولما اكتشفت

الدولة العلية أن عمل هذا الأسبيناقچي كان في غير محله غضبت عليه عندئذ وأوقعت به القصاص.

ولكن ما فائدة يقظتها وانتباهها لما يفعله رجالها الذين بيدهم الحل والربط بعد فوات الأوان؟ وبعدما دبّ الانحلال والضعف والانخذال إلى كل زاوية من زوايا البلاد إلى درجة أن أقرب المدن إلى الأستانة، بل وحتى الأستانة نفسها لم تعد تراعي الأوامر الصادرة من المقامات العليا، ولا تعيرها أي اهتمام بحيث إن المسؤولين أخذوا ينكلون بتلاميذ أولئك الحكام العظام أمثال حسن باشا، وأحمد باشا، أولئك التلاميذ الذين خدموا بإخلاص وتقدموا بالبلاد نحو الرقي والازدهار فكان جزاؤهم أن يسمحوا لأحدهم بأن يفتك بمثل الوزير العظيم عمر باشا، لمجرد الشك في ميوله ونواياه، وكانوا سبباً للتفريط بلواء البصرة، ذلك اللواء الذي كان يدر الخيرات والمنافع والبركات على الدولة، ويسمحون للإيرانيين باحتلاله والاستيلاء عليه. وليس هذا فقط، بل كانت بغداد أيضاً هدفاً لسهام نقمتهم وإهمالهم حيث أوقعوها في مختلف المشاكل والأزمات، وجعلوا الفوضى تضرب أطنابها في الداخل والخارج إلى درجة لم يعد أحد يأمن على نفسه.

ولما تبين لرجال الدولة المسؤولين قصر إدراكهم وخطل رأيهم وسوء تدبيرهم والضرر البالغ الذي يتأتى من السير على سياستهم تلك، عندئذ فقد أدركوا فضل أحمد باشا وصهره سليمان باشا أبي ليلة والخطة الحكيمة التي كانا يسيران عليها هما ومن اتبعهما من المماليك الذين ربوا على أيديهم وبتوجيههم وعادوا مرة أخرى إلى أبناء وأحفاد أولئك الرجال يسندون إليهم المناصب الرفيعة ذات المسؤولية الكبرى وتقليدهم رتبة وزير لكي يتداركوا الأمر بعد فواته ومع ذلك فقد قام هؤلاء بما

يفرضه عليهم الواجب وخدموا الدولة والبلاد مدة أربع وعشرين سنة وكادوا يصلون بها إلى المستوى الذي كانت عليه في عهد سليمان باشا الكبير، بل وربما تجاوزوه وسار الذين أتوا من بعدهم على منهاجهم وبذلك هدأت الأحوال وسارت سيرها الاعتيادي.

ولقد كانت سياسة داود باشا في بداية الأمر على نسق سياسة سليمان باشا وغيره من الوزراء العظام الذين تقدموه، إلا أن الحرص والطمع قد حرفاه عن ذلك الطريق زمناً، ولكنه عاد إلى منهجه القديم، وراح يفكر فيما يتطلبه الواجب وسعى جاهداً في سبيل تقدم البلاد والمواطنين، وتحسنت على يديه مختلف النواحي الاقتصادية والسياسية والعسكرية وزاد في إيرادات الخزينة، ثم اتصل به قرناء السوء فزينوا له بعض المخالفات وبتحريض منهم ارتكب جريمة بشعة وهي قتل صادق بك. وبعمله هذا وغيره فلت من يده زمام الأمور، وانتشر الظلم والغدر، وأودع مصالح المواطنين إلى أيد غير أمينة فراحت تلك الأيدي تتعسف وتظلم الناس كيفما تشاء بلا خوف ولا وجل، الأمر الذي باعد الشقة بين الشعب وبين الحكومة وكثر التمرد على الأمراء وعلى القانون والنظام، ثم راح السكان يفكرون في الانفصال والاستقلال.

أما علي رضا باشا فمع كونه ذكياً ألمعياً ومقرباً من رجال الدولة، ومتصفاً بالحلم والكرم، إلا أنه بسبب تبذيره وإفراطه في صرف الأموال على غير وجهها قد أضعف مركزه من الناحية الاقتصادية، مضافاً إلى هذا أنه اختار لإدارة دفة الأمور رؤساء جهلاء لا علم لهم ولا مقدرة، فزاد بذلك من تعقيد الأمور.

وأن الأموال التي كانت تجبى من العراق وترسل إلى الأستانة على عهد المماليك، والتي تقدر بمائتي ألف بدرة من النقود، وبمثلها من

الهدايا، قد انقطعت في زمانه، ولم يتمكن من تقديم أي مبلغ إلى خزينة الدولة في الأستانة.

وما عدا هذا فإن الإعمار الذي كان يسير على قدم وساق منذ عهد سليمان باشا الكبير قد توقف أيضاً، وانعكست آثاره على بقية المدن، وآل الأمر بالمشاريع العمرانية والاقتصادية إلى الدمار والخراب ونعيب البوم والغراب.

وبذلك تدانت الحالة المعاشية بالمواطنين، وانتشر الفقر والعوز بينهم، وأصبح الأغنياء شيئاً فشيئاً كالفقراء لا يملكون الفلس الأحمر، واختفت آثار النعمة من البلاد، وحال لونها ولون أهلها.

وبعد عزل الوالي المذكور تولى منصب الولاية في بغداد والي الشام محمد نجيب باشا، فراح هذا يفرض أوامره بالقوة والتهديد، وأذاق أهل البلاد شتى أنواع الظلم، واضطرهم إلى رفع الشكوى ضده، وعم التذمر والاستياء من حكمه.

ولما علمت المقامات العليا بما وصلت إليه البلاد، وبعجز هذا الوالي وتقصيره وعدم الاستفادة من وجوده بهذا المنصب عزلوه وعينوا بمكانه عبدي باشا، ولما رأى هذا أن زمام الأمور قد عهدت به الدولة إلى نامق باشا، استقال كما استقال من قبله وجيهي باشا، وعلى أثر قبول الاستقالة تولى حكم العراق نامق باشا بالإضافة إلى وظيفته الأصلية وهي مشير الجيش العثماني.

وقد شمر الموما إليه عن ساعد الجد، وراح يسعى سعياً حثيثاً لإصلاح الأوضاع وتنسيق الأمور وتسويتها والأخذ بالأهم على المهم

غير أن جو العراق وكثرة الأعمال وقلة الراحة كل ذلك قد أثر في صحته واعترته العلل والأمراض وأعاقته عن مواصلة سعيه وعمله.

وبينما كان منصرفاً إلى التداوي نشبت الفتن والاضطرابات خارج بغداد، وانتشرت في ربوع هذه البلاد العصابات المتمردة تعيث في الأرض الفساد، حتى بلغت الحالة مسامع المقامات العليا فعزلته وعينت بدله مشير المدفعية رشيد باشا.

إن رشيد باشا كان قد قضى مدة طويلة في فرنسا للدراسة، وقد حصل على درجة عالية في علم الإدارة والسياسة، وصار من الرجال الذين يشار إليهم بالبنان، وقد اختار السير على سياسة اللين والصفح على عكس ما كان عليه نامق باشا، الذي أوصل البلاد إلى الدرك الأسفل بسبب شدته وقسوته.

وقد تمكن رشيد باشا خلال مدة قصيرة من سبر غور العراق والعراقيين، ومعرفة ميولهم وطبائعهم، وراح يعالج الأوضاع بحكمة وتعقل، ومع أنه قد تشدد في إظهار سطوته وقدرته على المتمردين والعصاة، إلا أنه قد استمال هؤلاء، وألف بينهم، ونشر العدل، ووسع المشاريع العمرانية، ووفر للخزينة الكثير من الأموال والإيرادات، واستطاع أن يدفع ما تراكم على الخزينة العراقية من ديون، وأن يدفع أيضاً رواتب الموظفين المدنيين والعسكريين المتأخرة التي لم تدفع منذ عهد علي رضا باشا.

وسعى سعياً حثيثاً في سبيل إعمار البلاد فانتعشت على يديه وأعاد إليها رونقها وازدهارها وبث في أفرادها روح الحركة والنشاط في مختلف المجالات وبقي دائباً على هذه الحركة يواصل ليله بنهاره مدة أربع سنين متوالية.

ولكن الأجل وافاه قبل أن يكمل مشاريعه وتوفي إلى رحمة الله.

وبعد وفاة رشيد باشا انتشر خبر تعيين السردار عمر باشا والياً بمكانه.

فكان لهذا الخبر وقع شديد على سكان العراق لما يتصف به الرجل من حزم وصلابة وصرامة.

وأخيراً وصل المومأ إليه إلى بغداد، وبعد مرور ثلاثة أيام من توليه الحكم قام بهدم القلاع المقامة بجوار الديوانية والهندية، وأعلن التجنيد العام في الجهات الأربع من البلاد، ولم يستثن حتى أفراد العشائر.

ومع أن الأهلين وأفراد العشائر على جانب عظيم من حب الوطن فإن الانخراط في سلك الجندية كان عندهم أصعب من الموت. ولكن الصرامة والصولة العمرية قد أرغمتهم على الطاعة والامتثال، وخلال بضعة أيام جند من بغداد نفسها حوالي الخمسمائة نفر. وكذلك الشأن في المدن والقرى المجاورة، وفيما هي في هذه الحركة أعلنت عشائر قائممقامية خراسان التمرد وشق عصا الطاعة، وتركت مزارعها وأراضيها وفرت هاربة من وجه الحكومة.

ولما علمت بقية العشائر والقبائل بهذه الحركة، قامت هي أيضاً بإعلان العصيان والتمرد على أوامر الحكومة في الأمكنة الأخرى. وبناء على هذا قام الوالي المذكور بتجهيز العساكر وإرسالها بالتدريج إلى هنا وهناك لإخماد الفتنة والقضاء على الثورة.

وقد حوصرت الحلة والنجف وكربلاء والقرى والمدن التابعة لها، وأرغم أهلها على الانخراط في الجندية ثم ساق جيشاً نحو عشائر الشامية والهندية، وتولى بنفسه قيادة الجيش المذكور، وتمكن بمقدرته

الفائقة من التغلب والسيطرة على الموقف، وتمكن أيضاً من تنفيذ الأوامر بحذافيرها. وبعدما استتب الأمن وعاد النظام، أعلن العفو عن الجميع، وبسط جناح رأفته ورحمته عليهم.

وأخيراً هجم حاكم إيران ناصر الدين شاه بجيش جرار قوامه عشرون ألف محارب مجهز بمختلف المعدات على المدن والأمكنة الواقعة على الحدود. ولما وصلت قواته مدينة(سنه) انتشر الرعب في قلوب السكان والعشائر، واستنجدوا بالوالي المذكور، فقام هذا على الأثر وسافر بنفسه نحو السليمانية على رأس مقدار من القوات العسكرية. ولما سمع الشاه بمقدم الوالي عاد تواً إلى مقر سلطنته.

وبعد عودة الشاه وجيشه تجول الوالي في تلك الربوع متفقداً شؤونها، ومتخذاً ما يلزم من الإجراءات في سبيل تنسيق الإدارة فيها، وتسوية مصالحها، ثم قضى على عصابات الهماوند التي كانت تعبث بالأمن في تلك الجهات، وتقلق راحة السكان والمسافرين، وجند العدد المطلوب من مدن لواء شهرزور، وأعاد تشييد وتقوية الحصون والقلاع على الحدود في (سنه) وفي (الدربند) وفيما هو في تجواله هناك يتفقد الأمكنة الأخرى، بلغه خبر عبور عشائر عنزة نهر الفرات، واقتراب تلك العشائر من بغداد، ولما كانت القوات العسكرية هناك تحت قيادة السر عسكر حافظ باشا، وهو أخو الوالي عاجز عن صد غارات هذه العشائر وليس بوسعه معالجة مثل هذه الأمور، وأنه لا يختلف عن أمثال علي باشا من حيث العجز والتقصير، فإن الوالي استصحب ما لديه من الجنود النظاميين، وسافر بهم كالبرق الخاطف بحيث وصل بهم إلى دللي عباس خلال ثلاثة أيام ومن هناك أخذ يتحرى عن مكان يصلح لعبور نهر دجلة.

ولقد كنت في ذلك الوقت قائممقاماً لقضاء خراسان وبما أن المكان الذي وصل إليه الوالي يقع ضمن حدود القضاء الذي تحت إدارتي فقد بادرت فوراً بالسفر نحوه واستقباله والترحيب به، ثم بشرته بأن أولئك العربان قد عبروا نحو جهة الشامية وعادوا من حيث أتوا.

فلما سمع ذلك مني اختلجت أساريره وشاهدت آثار التأسف قد بدت على وجهه لأنه كان مصمماً على التنكيل بتلك العشائر وتأديبها. وبعد عودته إلى بغداد بخمسة أيام وصل أمر عزله بواسطة البريد.

وهكذا فإنا لوالي المذكور أيضاً بعدما اكتسب معرفة واسعة بأحوال العراق وسكانه خلال مدة قصيرة من الزمن وعرف طبائع الأمور فيه وقام بأعمال باهرة للأخذ به إلى التقدم، تعرض للعزل لمجرد أنه ألقي القبض على بضعة أفراد من الأشقياء الهماوند وأعدمهم قبل الاستئذان من المقامات العليا، ولم تأخذ تلك المقامات بنظر الاعتبار خدماته الجليلة وإخلاصه وأحكامه التي كان يجتهد فيها ويتحرى بها وجه الحقيقة والصواب، وكثيراً ما كان يرجع عن أي عمل حالما يشعر بأنه مخطىء فيه.

وبعزله أرجعوا عجلة التقدم إلى الوراء، وليس هذا فقط بل عهدوا بالولاية إلى رجل لا يتمكن حتى من كتابة اسمه، بالرغم من أنه يحمل لقب رئيس الكتاب، ألا وهو مصطفى باشا. وبهذا التعيين أضروا الخزينة والشعب من حيث يدرون أو لا يدرون.

وبعد تولي السلطة من قبل الموما إليه انصرفت همته إلى الأكل والشرب، ولم يمارس شيئاً من الأعمال المفيدة، ومن الأضرار المادية التي أوقعها بالخزينة تبذير ما يقدر بثلاثين ألف بدرة من النقود بدون مبالغة وذلك خلال مدة حكمه التي امتدت إلى الأحد عشر شهراً،

وحصل عن طريق الرشوة، هو وكتخداه الميرميران محمد باشا، حوالي الألفي بدرة من المواد المجيدية البيضاء. وسار على هذا المنوال بقية أتباعه من الموظفين والمقربين حتى انتشرت هذه الروائح الكريهة في أرجاء البلاد، ووصلت إلى أوروبا وتشوهت بذلك سمعة الحكام، وصاروا حديث الأندية والمجالس إذ لا يخلو مجلس من التطرق إلى ذكر شيء من سوء أفعال الوالي وأتباعه، وأخيراً بلغ الأمر أن أذيعت هذه الأخبار وانتشرت هذه الروائح التي تزكم الأنوف في الصحف السيارة. وعندئذ أوفدت الأستانة سليمان بك أحد الأمراء العسكريين إلى بغداد للتحقيق في هذه الأمور، وبعد الانتهاء وثبوت الخيانة صدر الأمر بعزل الوالي وبتعيين أحمد توفيق باشا قائد القوات العثمانية خلفاً له.

إنني أنا سليمان فائق، الشخص العاجز الذي فتح عينيه وترعرع في بغداد، قد رافقت هذه التقلبات وتمرست بما يدنيني منها منذ طفولتي، واطلعت على العادات والأخلاق وتصرفات المسؤولين في العراق، أشهد أني قد رأيت رأي العين ما فعلته الدولة، وما أوقعته من أضرار في البلاد بسبب حركة التنقلات المستمرة، والتبدلات السريعة بين رجالها المسؤولين منذ عهد المماليك حتى الآن.

وقد تبين لي أن القطر العراقي مال طابعه نحو النحوس منذ أمد غير قصير. ولذلك فإن أعمال الذين تولوا الحكم فيه مهما كانت على جانب من الحكمة والاستقامة والخدمة الخالصة، فإنها تنعكس لدى المقامات العليا، وتبدو لهم على خلاف حقيقتها، وهذا من جملة أسباب حصول البلبلة والفوضى، مضافاً إلى تلك الأسباب أن المنية تعالج المصلحين منهم فلا تتركهم يكملون المشاريع النافعة التي عزموا على إنجازها.

وعلى هذا المنوال الذي سارت عليه الدولة من حيث العزل والنصب قد أضعفت الخزينة، ومهدت السبيل لبعض المسؤولين أن يقبضوا أو يغتصبوا الأموال التي تجبى من السكان الفقراء فتتسرب إلى جيوبهم، أو أنهم يبذرونها في غير صالح الدولة والشعب.

وقد بلغ الإسراف إلى درجة أن الولاة قد خصصوا لأنفسهم مبلغاً قدره ألفي بدرة أو أكثر باعتبار أن هذا المبلغ إنما هو مخصصات مقطوعة لأسفارهم وتنقلاتهم عدا الراتب الشهري.

غير أن الوالي أحمد توفيق باشا بدأ حكمه بإلغاء المخصصات المذكورة، وبعمله خفف عن كاهل الخزينة[١].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن جهل بعض الولاة لطبيعة أعمالهم، وعجزهم عن ممارسة الحكم بحيث إن الكثير منهم يجهلون حتى كتابة أسمائهم، كل ذلك قد أوجب عليهم أن يختبروا ويختاروا الأشخاص الذين يتولون الأعمال نيابة عنهم، وإلى أن يظفروا بذلك الذي يعتمدون عليه، ويثقون به من المواظفين يحتاجون إلى وقت طويل، ويحتاجون إلى وقت أطول للتعرف على بلاد العراق وطبيعتها، وأخلاق وميول مواطنيها، تلك البلاد التي تختلف عن غيرها في شتى الوجوه. وإلى أن يبلغ بعضهم هذه الدرجة من المعلومات والخبرة، يكونون قد مضى عليهم زمان غير قصير.

أما أحمد توفيق باشا فإنه في أول أمره كان قائممقاماً لبضعة أشهر، ثم تولى رئاسة القوات العسكرية، وأمضى في هذه الرئاسة مدة سنة

---

(١) لقد كان رؤساء بعض الدوائر يتقاضون مثل هذه المخصصات المقطوعة حتى في زماننا هذا.

واحدة اعتزل لخدمة بعدها، وظل يرقب الأوضاع الإدارية والسياسية عن كثب، ثم صدر أمر تعيينه لمنصب الولاية مباشرة.

وسأذكر إن شاء الله في مكان آخر ما كان قد فعله من إعطاء بعض الامتيازات التي وسعت على الخزينة، وأكثرت من إيراداتها، بحيث تمكن خلال شهرين من مضاعفة الدخل السنوي، وتوفير زيادة فيه قدرها خمس وعشرون ألف بدرة.

ولقد كان الواجب يقضي على المقامات العليا أن يشجعوه على ما يبذله من خدمات جليلة أعاد بها عهد أحمد باشا، غير أن الذي حصل كان على عكس المأمول، ذلك أن التهم التي كانت تنسب إلى الوالي السابق قد أظهر المحققون زيفها وبطلانها، ولم يثبت على مصطفى باشا ما يوجب مؤاخذته. وقد استطاع المحققون أن يجعلوا الحق باطلاً والباطل حقاً، واعتبروا الشكاوى المرفوعة إلى المقامات العليا إنما صدرت عن أناس مشاغبين مغرضين، أغفلوا غيرهم من الأهلين وأعضاء المجلس بالتوقيع على تلك الشكاوي دون علم بما تحويه.

وخلاصة القول إن العراق لم يتحسن وضعه ولم يتول أمره من يأخذ بيده بعد انقراض العباسيين، وبعدما كان من الأقطار المحسودة على خيراتها، قد أصبح في انحطاط مستمر.

وأستطيع أن أقول بمرارة وأسف وحزن بالغ إن الموجات العدائية التي طغت عليه، والظلم والاستبداد الذي حل في ربوعه، كل أولئك، قد غيره وغير أخلاق أهله وبدلها من الحسن إلى السيئ، وجعلته في حالة بداوة وجهل وفقر، وما يزال سائراً نحو الانحدار والتقهقر.

ولقد بذلت الدولة العثمانية الكثير من الجهود والأموال، وسفكت

الكثير من دماء أبنائها في سبيل إعمار هذه البلاد منذ أن استولت عليها، ولكن تلك الجهود قد ذهبت أدراج الرياح، وبدلاً مما كانت تتوقعه من محصول فقد نالها الكثير من الأضرار وحملها على صرف المبالغ الطائلة عليه من خالص إيراداتها.

إن عيب المؤرخين المتقدمين أنهم يسترسلون في ذكر تفاصيل الأشياء التي لا أهمية لها ولا لزوم. ويشيحون بوجوههم عن التطرق إلى ذكر الحوادث الضرورية سواء كان عن عمد أم عن نسيان، فإنهم مثلاً لم يتطرقوا إلى ذكر الخسائر المالية وسوء الحالة الاقتصادية التي مر بها العراق في الأزمان الغابرة، وهذه الأمور من أهم ما ينبغي ذكره لأنها تعد مقياساً على معرفة مدى ما فعله الحكام من إصلاح أو فساد وما بذلوه من جهود حسنة أم سيئة؛ نافعة أم ضارة لكي يسهل الحكم لهم أو عليهم.

وإني سأتطرق إلى بحث هذه الناحية جهد الإمكان، مبتدأ من عهد سليمان باشا الكبير إلى ما بعد انقراض المماليك، مستنداً على ما عثرت عليه من أدلة وسجلات.

ففي زمن الوالي سليمان باشا الكبير كان العراق يقدم إلى خزينة الدولة العثمانية ألف بدرة من النقود سنوياً ما عدا الهدايا العينية. وفي زمن داود باشا ألفي بدرة سنوياً أي ما يعادل الأربعة آلاف وأربعمائة غرش صاغ عدا الهدايا التي تقدر أثمانها بقدر المبلغ المذكور. ومنذ انقراض المماليك سنة سبع وأربعين حتى الآن، أي سنة ثمان وسبعين، أو على أقرب تقدير خلال اثنتين وثلاثين سنة فقدت الدولة مائتين وخمسين ألف بدرة من النقود، وليس هذا فقط بل إنها اضطرت إلى دفع ستين ألف بدرة إلى حكومة بغداد نقداً أو تحويلاً. وفي سنة ست

وستين حتى سنة ثمان وسبعين دفعت الدولة العثمانية مائة وعشرين ألف بدرة تقريباً، تعويضات لحكومة العراق عن رواتب الجنود وألبستهم العسكرية، عدا العتاد والمهمات الأخرى التي لا تقل عن المائة أو المائة وخمسين ألف بدرة.

وفي زمن نجيب باشا، وإن كان قد أرسل إلى خزينة الدولة عشرين ألف بدرة من النقود، ولكن البلاد خسرت في مقابلها ما يقرب من الخمسمائة ألف بدرة، وما يساوي إيرادات الاثنتين وثلاثين سنة المنصرمة من الأغنام والمواشي، وحوالي الستين ألف من المواطنين الذين اضطروا إلى الهجرة من العراق، وتخلوا عن الجنسية والتبعية واختار بعضهم الإقامة في البوادي بين العشائر بسبب الجور والظلم والاعتداءات، وهذا عدا الأضرار والخسائر التي حلت بالبلاد، وجعلتها قاعاً جرداء لا يمكن الانتفاع منها.

لقد كانت قوانين الدولة وأنظمتها عبارة عن حبر على ورق، ولا يطبق منها إلا ما وافق رغبة المتنفذين من رجالها الذين يسعون في سبيل مصالحهم الخاصة، ومنافعهم الذاتية. وكانوا لهذه الأسباب يعالجون القضايا معالجة سطحية. ومن جراء ذلك ترى الجهة التي تستحق المكافأة والتلطيف تنال العقاب والمعاكسات، والجهة التي تستحق العقاب تنال التقدير والإعجاب والتشجيع. وإن الملتفين حول أولئك الرجال هم الذين بيدهم الحل والربط وهم المتنعمون المتنفذون. أما غيرهم فالويل لهم من الإذلال والامتهان وغمط الحقوق. وقد أصبح الخائن ذا منزلة رفيعة وجاه وسطوة وسلطان في هذا الجو الذي غمره الإرهاب والجور.

أما سكان العراق فقد كانوا صنفين، صنف بدو وعشائر، وهؤلاء

يعيشون كل يوم في مكان متجولون في البراري، وصنف من المدنيين أي الذين سكنوا المدن، وهؤلاء معظمهم قد تعود على الخضوع والخنوع وورثوا معاناة الظلم والمذلة أباً عن جد منذ أعوام طويلة، وهم يكادون ينسون طعم الحرية ولذتها. وإذا نشأ في هذا المحيط فرد أو أفراد قد تربوا تربية جيدة وأدركوا بذكائهم ورجاحة عقلهم ما عليه قومهم من ذل وعبودية، وراحوا يحاولون تغيير الأوضاع، فإنهم سرعان ما يتعرضون إلى قالة السوء ومختلف التهم، وتوضع في طريقهم العراقيل، وتشوه سمعتهم بأنهم إنما يسعون في سبيل الوصول إلى منافع شخصية وأغراض خاصة. ويضيقون عليهم مجال عملهم فلا يستطيعون عندئذ القيام بأية حركة لتخليص أنفسهم وقومهم مما هم فيه.

لقد تولى العراق بعد انقراض المماليك رجال لا بأس بهم من حيث الخبرة والدراية، والغيرة الوطنية، ولكن نظام الاستبداد الذي سارت عليه الدولة لم يفسح لهم المجال للقيام بالإصلاحات المنشودة.

فقد عزل من هؤلاء جماعة طيبة مثل عبدي باشا، ونامق باشا، والسردار عمر باشا، وتعاون الموت مع المستبدين فاغتالت يده رشيد باشا، كما وأن خوف أحمد باشا من بطش رجال الدولة قد حمله على التخلي عن الحكم. وبذلك تدهورت الأوضاع واختلط الحابل بالنابل، وأصبح العراق عاجزاً عن تقديم فلس واحد لخزينة الدولة العثمانية. وما سوى هذا فقد أصبحت خزينة بغداد مدينة بما يزيد على المائة ألف بدرة من النقود لمجلس الدفاع الأعلى وأدى عجزها إلى تأخير دفع الرواتب ومخصصات الجنود لمدة ستة وعشرين شهراً.

ولما كان مجلس الدفاع الأعلى قد تشكل سنة أربع وستين فإلى سنة ثمان وسبعين أي خلال أربع عشر سنة لم تنظر جهة من الجهات في

ميزانية هذا المجلس من ناحية الصرف والقبض حتى الآن. ولا يعرف أحد شيئاً عن طبيعة أعمال هذا ليجلس وما فعله.

أما من ناحية التجارة والزراعة فحدث عنها ولا حرج، ذلك أنها تدهورت بشكل خطير. فلقد كان هناك جماعة من التجار وأصحاب الثراء النسبي، غير أن هؤلاء أصبحوا وهم لا يملكون الفلس الأحمر. وبذلك استولى الغرباء على الناحية الاقتصادية في البلاد.

إن انحدار الحالة الاقتصادية إلى هذه الهاوية، وفتور حركة التجارة في العراق بعد انقراض المماليك، ليس فقط ناشئاً من جراء سوء إدارة الحكم، بل ترجع بعض الأسباب الجوهرية إلى تغيير نظام فرقة الانكشارية، وإلى شراء المصانع والأدوات الاحتياطية الضرورية من أوروبا، وتأسيسها في الأستانة، وبعض المدن العثمانية، ورواج بعض منتجاتها، الأمر الذي أدى إلى ركود استيراد المنتجات الهندية وكسادها، وإلى المسافة الطويلة في إيصال بعض المعادن إلى أوروبا ومن ديار بكر إلى البصرة حيث يستغرق نقلها شهراً كاملاً، وعدم إتقان استخراج معدن النحاس الذي كان يصدر إلى الخارج بحراً عن طريق الهند، وتأخره الذي قد يمتد إلى السنة في الطريق مما أدى إلى فتور المتاجرة به.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن ارتفاع الضرائب الكمركية وزيادتها على عهد داود باشا، كان له تأثير كبير في عدم جلب المواد التجارية من الهند عن طريق البصرة وأدى إلى انقطاع الاستيراد انقطاعاً كلياً على وجه التقريب، وحمل التجار والمهربين على ممارسة هذه التجارة بواسطة البدو وغيرهم عن طريق المحمرة ومن هناك إلى أرضروم وطرابزون بواسطة إيران، وبذلك حرم العراق من مورد كان يدر عليه الكثير من الإيرادات من هذه المتاجرة.

يضاف إلى ما تقدم قيام الحكومة بتجزئة المدن الواقعة في (منطقة شهرزور) التي كانت مترابطة على عهد المماليك وتحت إدارة آل بابان مثل السليمانية، وكوى وحرير، إذ باعدوا بينها ومزقوها من ناحية التشكيلات الإدارية وجعلوا كلاً منها قضاء مستقلاً بعضها عن بعض، وتابعاً للحكومة المركزية في بغداد.

فإن هذه التبدلات الإدارية في الأمكنة المذكورة وغيرها قد حرمت خزينة بغداد مما كانت تدر عليها من الأموال، وجعلت حكام المدن بحالة من الضيق المالي بحيث لا تكاد واردات هذه المدن تكفي لسد نفقات حكامها.

كما وأن العشائر ونخص منهم العبيد والعزة قد أعفوا من دفع الضرائب لقاء تعهدهم بالمحافظة على الأمن، والاكتفاء بتأمين تقديم المعونة للجيوش في حالة مرورهم بأراضيهم عند وقوع حركات عسكرية.

أما عشائر المنتفق والخزاعل وبني لام ذات الشوكة والقوة فقد كانت تؤدي الضريبة على الإبل فقط. وهذه الضريبة لا تتجاوز القدر النقدي الذي يستوفي منها في بغداد وقد أضاف إليها داود باشا بعض الضرائب الأخرى التي تستوفي نقداً كما هو الحال في الخالص وخراسان وأضيفت هذه الضرائب إلى الواردات الكمركية النقدية التي تستوفيها البصرة وملحقاتها.

ومهما يكن فقد فرض على بعض المناطق ضرائب نقدية، وعلى بعضها الآخر ضرائب عينية. وقد كانت الضرائب العينية تخمن وتجبى في كل جهة من قبل لجان تنتخبهم الحكومة ممن لهم إلمام بشؤون المحصولات الزراعية.

وفي سنة ست وأربعين ومائتين وألف انتشر الوباء بشكل فظيع أدى إلى تلف سجلات الخزينة وأوراقها، مما تعذر معه معرفة الإيرادات والصرفيات التي كانت على عهد المماليك بصورة دقيقة. ومع ذلك فإن الوضع المالي منذ بداية ولاية داود باشا سنة اثنتين وثلاثين، هو أن الواردات الكمركية فقط كانت تقدر بعدة آلاف بدرة، وقد توصلت إلى معرفة ذلك من السجلات التي كانت بعهدة جدي، حيث كان في ذلك الوقت رئيس كتاب إدارة الكمرك.

وفي سنة إحدى وثلاثين خرج داود باشا من بغداد يسعى للحصول على منصب الولاية، وقد تبعه خلق كثير من المماليك، ثم عاد إلى بغداد بعدما ظفر ببغيته مضافاً إليها رتبة وزير، ثم اصطدم مع سعيد باشا لبضعة أشهر ولم يستقر له الوضع إلا سنة اثنتين وثلاثين، ولكنه خلال هذه السنة المنصرمة كانت قد عمت الفوضى في البلاد، وانقطعت السبل، وتوقفت التجارة مع الهند، مما أوجب تضاؤل الواردات الكمركية خلال السنتين المذكورتين. ولذلك لا يمكن القياس عليها، ولكن يمكن القول أن الواردات التي حصلت من كمرك البصرة وما حولها تقدر بما يزيد على ضعف إيرادات كمرك بغداد.

أما واردات بغداد، والبصرة، وشهرزور السنوية فقد كانت تقدر بما يتجاوز المائة والثلاثين ألف بدرة من الغروش الصاغ المتداولة في زماننا. أما الآن فإن الواردات التي تجبى من المنطقة الكردية ومن ديار ألبو محمد وبني لام والخزاعل والهندية والشامية والأمكنة الأخرى التابعة للولاية لم تبلغ حتى الآن المائة ألف بدرة.

وتخرج منها المصاريف التي تتكبدها الحكومة في سبيل إخماد

الثورات والحركات التمردية، وقطع الطرق وما إلى ذلك من الأمور التي تؤثر تأثيراً سيئاً على التجارة والتجار.

كما وأن المبالغ التي تصرفها الحكومة في سبيل المحافظة على مؤسسات البريد والخطوط البرقية من حدود الزابين إلى بغداد، ومن بغداد إلى الحلة وكربلاء والنجف، وإلى منتهى الحدود من جهة خانقين، وتأمين الطرق للسابلة، ومحافظتهم في تنقلاتهم وتلك المبالغ التي تصرف على ما لا يقل عن الألف وخمسمائة من الجنود الخيالة والموظفين، والتي تقدر بحوالي الخمسة آلاف ومائة وثمانين بدرة، كل هذه تصرف من الخزينة المركزية في بغداد. ناهيك عن الأضرار والخسائر التي تتكبدها من جراء الغارات التي تقع على المدن والسكان، وأعمال السلب والنهب والقتل وإتلاف الزرع وعدم كفاءة القوة المستعملة للمحافظة على خطوط البرق والبريد.

أما الترتيبات السابقة، فإن محافظة الطرق والمسالك وغير ذلك فإنها كانت ملقاة على عاتق العشائر في مقابلة إعفائهم من تأدية الضرائب التي لم تكن شيئاً مذكوراً لقلتها، ولعدم جدواها بالنسبة لما تقوم به العشائر من خدمات في سبيل المحافظة على سلامة الطرق وأبناء السبيل واستتباب الأمن في كل مكان بحيث كان الناس يتنقلون من مكان إلى مكان وهم مطمئنين آمنين.

غير أن هذه الترتيبات قد ألغيت بعد داود باشا، وبوشر بفرض الضرائب المختلفة واستحصالها من تلك العشائر طوعاً أو كرهاً، مما أدى إلى زوال الأمن في كل مكان.

ومع أن الواردات التي تؤخذ من العشائر لا تكاد تبلغ الخمسمائة بدرة، فإن الحكومة تخسر في مقابلها ما يزيد على الخمسة آلاف، ومع

عدم وجود مجلة لدى الولاة تدون فيها الحوادث، فإن المعلومات التي يتناقلها أبناء بلدنا المثقفين، الذين أفنوا أعمارهم في الدرس والتحصيل، تدل على مدى الأضرار التي يتعرض لها أهل القوافل في غدواتهم وروحاتهم، وأن الخسارة التي تصيب خزينة بغداد من جراء ذلك تتجاوز الخمسة آلاف بدرة سنوياً، وأن تبيان هذه الأحوال مما يحز في القلب ويبعث الأسى والأسف العميق.

إن المصارف التي تتكبدها الخزينة ـ حسيما ذكرناه آنفاً ـ ليست هي كل شيء، وإنما يوجد لدى الحكومة حوالي الألف وخمسمائة جندي خيال، وهي مضطرة إلى الصرف عليهم وتحمل تكاليفهم واحتياجاتهم، وتهيئتهم ليكونوا على استعداد للحركة في الوقت الذي تدعو الحاجة إليهم.

وعند توجيه نقد إلى الحكومة عن وجود هذه القوة، يكون دفاعها مقتصراً على أن هؤلاء المنتقدون إنما يكشفون عن السيئات فقط دون الالتفات إلى المحسنات والمنافع التي ترجى من هذه القوة العسكرية الدائمة وتصرف عليها الحكومة المبالغ الطائلة.

ومهما كان الأمر فإن دفاع الحكومة عن ضرورة بقاء هذه القوة سرعان ما ينهار إذا علمنا أن عشرين بالمائة من أفرادها غير موجودين، وعشرين بالمائة أيضاً يمارسون أعمالاً أخرى، مثل تربية الخيل والطبخ والخدمات الخاصة. أما الستون بالمائة الأخرى فإن أربعين بالمائة منهم لا سلاح لهم ولا بنادق بل ولا مسدسات، وما يحملون من سلاح لا عتاد له، وليس لدى بعضهم سوى السيف، ولا عمل لهم ولا واجب. ومجمل القول إن عدمهم خير من وجودهم.

وحتى إذا دعت الضرورة إليهم للمحافظة على خطوط البرق، فإن

نقلهم من مكان إلى مكان غير جائز أصلاً وبطبيعة الحال تضطر الحكومة ـ والحالة هذه ـ إلى تعيين أناس آخرين لهذه الأغراض.

وما عدا الأضرار التي ذكرناها فإن لهذه القوة مساوىء أخرى. تلك المساوىء التي يتعذر إزالتها بسهولة، وهي أنهم يلقون بأنفسهم كلاً على الفلاحين والعشائر، ويستضيفونهم بل ويجبرونهم على تقديم العلف لحيواناتهم مجاناً، عدا ما يكبدونهم بل ويجبرونهم على تقديم العلف لحيواناتهم مجاناً، عدا ما يكبدونهم به من الخسائر والمضايقات في سبيل تأمين الطعام لهم ما داموا مقيمين بينهم.

وقد حاولت الحكومة منعهم عن هذه التصرفات بشتى الطرق، ولكن جهودها في هذا السبيل ذهبت أدراج الرياح.

ومع أن إكرام الضيف من جملة الشيم العربية العالية، فإن هذه القوات لا تكتفي بما يقدمونه إليها من طعام وعلف وخدمات بل تضطرهم أحياناً وتجبرهم على القيام بأعمال أخرى، مثل تكليفهم بحراثة بعض الأراضي الأميرية وزراعتها مجاناً.

والحاصل فإن السلطنة العثمانية وإن كانت تنتخب الولاة والموظفين القديرين لتمشية مصالحهم، إلا أن تسرعها في أمر عزلهم وتبديلهم مما يفقد الفائدة منهم.

وقد كان بعض هؤلاء يسعى في سبيل مصالحه الخاصة، والإثراء السريع، بعدما يعلم ما ينتظره من سوء المصير على حين غفلة.

أما الأهلون فإنهم كما قلنا على جانب كبير من الجهل، وإن الذي يبرز من بينهم ويتعلم يتجه أول ما يتجه نحو إشباع مطامعه ورغباته ومنافعه الشخصية، لأن الناس على دين ملوكهم وأمرائهم.

وأما العوام منهم فقد حرموا من طعم الحرية، وأصبحوا مسخرين لهذا وذلك من الأقوياء، وتخاذلوا واستكانوا ولا يؤمل منهم نفع.

وبهذا تدهورت الأوضاع، وأخذت البلاد تسير نحو الخراب والدمار يوماً بعد يوم. وخسرت الدولة العثمانية تلك المنافع المادية والمعنوية التي كان ينبغي أن تحصل عليها فيما لو سارت الأمور في وجهتها الصحيحة.

ولو أن البلاد تولاها رجال مصلحون بعد انقراض المماليك، والتفتت الدولة إلى أبناء البلد واختارت منهم النخبة الصالحة لإدارة الشؤون وتمشية المصالح، واستعانت بذوي الخبرة والحكمة لكانت قد حصلت على أكثر مما تتصوره من المنافع، ولكانت قد استفادت أيضاً في حربها مع روسيا بجمع ما يقدر بثلاثين ألف جندي مدرب من أبناء هذه البلاد، وضمتهم إلى جيش الأناضول، ولكان التاريخ قد خط لها أروع الصفحات، ولأصبحت من الناحية العسكرية والمالية في وضع تحسدها عليه الدول المجاورة مثل الهند وإيران، وترهب جانبها بقية الدول، ولكن حسبنا الله ونعم الوكيل.

وقائع سنة سبع وأربعين ومائتين وألف وهي تحتوي على عدة فصول

الفصل الأول مخلفات المماليك:

كانت ولاية بغداد والبصرة وشهرزور قد عهد بها إلى علي رضا باشا وذلك سنة ست وأربعين بالإضافة إلى ولاية حلب.

وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية قدوم الباشا الموما إليه إلى بغداد، وكيف

أنه قضى على المماليك، ثم إنه بعد ذلك أناط منصب الكتخدا بالوكالة إلى أحد وجهاء حلب الذي كان قد رافقه من هناك، وهو الشريف الحاج يوسف آغا، وعين أحد أبناء أسرة السياف لمتسلمية البصرة، وعهد ببعض الوظائف إلى عدد من أبناء البلاد لكي يستميلهم إليه.

أما مخلفات المماليك فقد وقع معظمها بأيدي العسكريين ورجال الحكومة المتنفذين، ولم يكن ما ادخره المماليك وما جمعوه خلال ثمان وسبعين سنة شيئاً يذكر، ومع ذلك فإن ما بقي منها استولى عليه الوالي المومأ إليه، وباعه بالمزايدة، وأودعت أقيامه إلى خزينة الدولة.

الفصل الثاني: زواج الوالي علي رضا باشا

بالنظر للمدة الطويلة التي كان فيها منصب الولاية بعهدة المماليك، واندماج هؤلاء مع سائر الأهليين بحيث أصبحوا من جملتهم ولا يختلفون عن السكان المواطنين بأي حال من الأحوال، فإنهم خلال تلك الحقبة من الزمن قد خلقوا بطبيعة الحال الكثير من عقيلات النساء والبنات والجواري. ولما كان الوالي المذكور قد ترك عياله في حلب، وأن بقائه بدونهم يعتبر بنظر الأهالي من الأمور غير المألوفة، كذلك أشار عليه بعضهم باختيار زوجة له من بني بنات المماليك، ولا سيما وأن زوجته التي تركها في حلب، وهي كريمة المرحوم يوسف باشا الصدر الأعظم على عهد السلطان عبد الحميد خان، لم تنجب له ولداً ذكراً، فقد وقع الاختيار على سلمى خانم، وهي شقيقة والي بغداد السابق سليمان باشا الصغير، وخطبت له، وتم عقده عليها في أواسط شهر جمادى الأول من السنة المذكورة، وأجريت مراسيم الزواج المعتادة.

الفصل الثالث: هجوم عشيرة شمر الجربا على المنتفق

كان صفوق الفارس شيخ عشيرة شمر الجربا منذ أواخر حكم داود باشا من المطرودين الذين غضبت عليهم الحكومة في الوقت الذي كان الشيخ عجيل السعدون شيخ عشائر المنتفق من المقربين إليها، وقد كانت الحكومة تستعين به في مطاردة الشيخ صفوق.

وفي الوقت الذي أعلنت فيه الحكومة تجديد بقاء الشيخ عجيل في المشيخة، فإن صفوق الفارس قد التحق بخدمة علي رضا باشا، وسار في ركابه من مدينة حلب، وقام له بمختلف الخدمات التي قربته منه.

وقد انتهز هذه الفرصة للانتقام من خصمه وراح يجمع جموعه ويهيئها لغزو عشائر المنتفق التي لم تدعه يذوق طعم الراحة خلال المدة التي قضاها مشرداً مطروداً. وقد تمكن بدسائسه من حمل الوالي على جلب الشيخ عجيل إلى بغداد، وإلقائه في السجن، هو وأفراد آل شبيب الكرام، ولكن الشيخ المذكور تمكن من الفرار سنة ست وأربعين على أثر وقوع الوباء الذي حصد الأرواح في بغداد.

أما العشائر الذين حرضها صفوق لأخذ الثأر من المنتفق فقد انضوت تحت راية الشيخ المذكور، والتحقت به أيضاً العشائر المقيمة بجوار الحلة وما يليها مثل البعيج والأسلم. بينما نجد عشائر المنتفق قد فتك الوباء بها فتكاً ذريعاً، وأضعفها، وقلل عديدها، ونجد أيضاً أن قسماً غير قليل من آل شبيب قد انحاز إلى جانب الشيخ صفوق.

أما الشيخ عجيل فإن هذه الأحداث لم تؤثر في نخوته وبسالته وشجاعته، وتمكن من جمع عدد من رجاله يقدر بألف وخمسمائة

مقاتل ما بين فارس وراجل، وعزم على مقابلة أعدائه بهذه القلة من رجاله.

وبما أن خصمه يتفوق عليه أضعافاً مضاعفة، فقد انخذل الشيخ عجيل بعد حرب ضروس، وفر رجاله من الميدان، واضطر هو إلى الانسحاب من أمام أعدائه واتجه نحو الحسكة.

الفصل الرابع: عزل الدفتردار عبد الرحمن أفندي الأورفه لي وتعيين محمد أسعد النائب بمكانه

إن عبد الرحمن أفندي الذي كان قد خالف وعده، ونكث عهده، وخان أبناء بلدته، وفر نحو جيش علي رضا أيام الحصار، قد عين من قبل الوالي المذكور بوظيفة دفتردار يوم دخول الوالي إلى بغداد. ثم لما ظهرت خيانة الأفندي وسوء تصرفه بأموال الدولة وبمخلفات وأموال المماليك عزل من منصبه، وعين محمد أسعد أفندي آل النائب الذي سبق أن تناولناه بالذكر فيما تقدم، خلفاً له وذلك في أواخر ربيع الثاني من السنة المذكورة.

الفصل الخامس: ثورة العشائر في الشامية والهندية وتجهيز قوة عسكرية لقمعها

نظراً لشبوب ثورة عارمة من قبل عشائر الشامية والخزاعل وغيرها، وإعلانهم العصيان والتمرد، فقد جهزت الحكومة عليهم قوة عسكرية تقدر بحوالي الأربعة آلاف جندي تحت قيادة الكتخدا السابق الحاج أبو بكر آغا وعثمان بك آل إبراهيم باشا، من أبناء الشيوخ، وبعض القواد الآخرين، واتجهت القوة المذكورة نحو تلك الديار في أوائل شهر جمادى الآخر.

وعند وصولهم الحلة اختلف القواد فيما بينهم على الخطة الواجب اتباعها، وقد حال اختلافهم دون مواصلة السفر. وخلال هذه المدة تمرد أيضاً أهالي الهندية وامتنعوا عن تأدية ما بذمتهم من الضرائب الأميرية التي تقدر بثلاثين ألف شامي.

وعلى هذا فقد أوفد الدفتردار محمد أسعد أفندي للتوفيق بين المختلفين، ولما وصل الموما إليه ألحق القوات الشبانة بقيادة عثمان بك، وأعاد الحاج أبي بكر وعشرين من أتباعه إلى بغداد، وكان هذا قد تعهد باستيفاء الضرائب من أهالي الهندية منفرداً وبدون قوة عسكرية.

أما محمد أسعد أفندي فقد استصحب معه حوالي الخمسة وأربعين جندياً، وذهب إلى الهندية، وقد تمكن ليس من استحصال ما عليهم من ضرائب فقط، بل زاد عليها عشرة آلاف شامي وذلك خلال بضعة أيام، وعاد بهذه المبالغ إلى بغداد.

وفي غضون هذه الأيام ورد خبر قدوم أحد رجال الدولة العظام، ووصوله إلى الأعظمية، وهو الدفتردار السابق عارف أفندي، لغرض قبض ثروة الوالي داود باشا ومخلفاته.

وعلى جاري العادة استقبل بحفاوة بالغة، وجيء به إلى بغداد حيث أقيم في الدار الخاصة المتخذة لضيافة أمثاله، وقد رحب به الوالي أجمل ترحيب، وبالغ في إكرامه.

ولما كانت مخلفات داود باشا وثروته وما يمتلكه قد نهبت كلها، وصارت إلى يد هذا وذاك، وما تبقى منها قد اختلط مع مخلفات المماليك، حيث بيعت وسجلت أثمانها إيراداً للخزينة، فإن الدولة العلية

لم تستفد شيئاً من إيفاد هذا الأفندي الذي كل عمله أنه استنسخ السجلات الموجودة في الخزينة، تلك السجلات التي تبين بعض تفاصيل المبالغ التي أودعت إليها من أثمان ممتلكات المماليك ومخلفاتهم.

أما المنهوب من الأموال الأميرية، وما كانت تدخره خزينة بغداد من إيراد المقاطعات، وما كان فيها من أشياء ثمينة، فقد أسدل عليها ستار النسيان، وأصبحت في خبر كان. وقد عجزت الحكومة عن دفع مخصصات جنودها ورواتب موظفيها، واضطرت إلى مصادرة أموال هذا وذاك لسد العجز.

وبالإضافة إلى كل هذا فقد انبرى كاتب مقاطعة الخالص المدعو ملا علي ورفيقه محمد ليلان وبعض الرعاع من أمثالهما بمختلف المظالم والاعتداءات وبلغوا الغاية في الأعمال الإجرامية والخلقية التي ارتكبوها تقرباً إلى الوالي الجديد وحكومته. ولم يكتفوا بما فعلوه من نهب وسلب، وضرب وتعذيب، بل سرى اعتداؤهم إلى عقيلات النساء المخدرات حتى أنهم هجموا على دار رضوان آغا الذي قتل في حادثة إبادة المماليك، وأخرجوا نسائه وبناته وجمعوهن في مكان وربطوا أرجلهن وراحوا يجلدوهن بالمطارق ويذيقوهن أنواع الأذى من ضرب بالعصي وكيّ أجسامهن بالسفود المحمى بالنار، وغير ذلك من العذاب الذي تقشعر منه النفوس، وكل ذلك جرى بتحريض من الكاتب المومأ إليه.

الفصل السادس: تقلد الدفتردار محمد أسعد منصب الكتخدا

إن وظيفة الكتخدا من الوظائف الحساسة الرفيعة في الدولة لأن

متقلدها يكون المرجع الوحيد للخاص والعام بعد الوالي، كما وأن رؤية المصالح الحكومية على اختلافها منوطة بالكتخدا، تلك الوظيفة التي كان يشغلها بالوكالة الحاج يوسف آغا بمعاونة الموظفين المقربين من الوالي، وبالنظر لعجز المومأ إليه عن إدارة هذا المنصب الخطير، وعدم وجود من يليق له من الأهلين، وأن الدفتردار الحاج محمد أسعد أفندي من الذين اكتسبوا خبرة في الشؤون الداخلية والخارجية، وأنه من الذين نالوا التقدير والإعجاب منذ زمن داود باشا، فقد أسندت إليه الوظيفة المذكورة بعد عودته موفقاً من الحلة، وذلك في أواسط شهر شعبان من السنة المذكورة.

الفصل السابع: مقتل الكتخدا محمد أسعد أفندي

بعدما تقلد الحاج محمد أسعد أفندي منصب الكتخدا راح يبذل قصارى جهده في سبيل إدارة الأعمال والمصالح على الوجه الأكمل، وأخذ يتظاهر أمام سيده الوالي بحرصه وإخلاصه في تمشية واجبات وظيفته، واستطاع رويداً رويداً أن يحصر الأمور كلها تحت حدود صلاحياته الواسعة، ولم يترك منها شيئاً للوالي الذي صار وجوده كعدمه، ثم أخذ يتشدد مع المراجعين ويعاملهم بقسوة وخشونة، وقد حملهم على التذمر من سوء معاملاته، وراحوا يترقبون اليوم الذي يتخلصون من شره.

وقد رفعوا ضده عدة شكاوى، غير أن الوالي كان يسنده ويدافع عنه ويكون سبباً في خيبة مساعيهم وآمالهم.

أما هو فقد شجعه هذا الوضع وازداد جبروتاً وطغياناً وتمكن بدهائه

من البطش بمن يناوئه. وأخيراً اتفق الأهالي على اغتياله للتخلص منه، واغتيال الوالي أيضاً معه إذا اضطرهم الأمر إلى ذلك.

لقد تمكن الموما إليه بعد تقلده منصب الكتخدا من السعي لجعل الموظفين في الداخل والخارج تحت إدارته، واستطاع أن يستميل أمراء العراق ومشايخه إلى جانبه. وبالإضافة إلى ذلك جمع حوالي الأربعمائة من الجنود العثمانيين الذين يقيمون في العراق منذ أمد طويل، وضمهم إلى أتباعه لكي يتخذ منهم درعاً لصد هجمات أعدائه وخصومه.

وظهر بمظهر من يريد احتلال بغداد، وفرض سيطرته عليها. وقد تمكن بعض الناس من إيغار صدر الوالي عليه، وتحذيره منه عن هذا الطريق، وزينوا له القيام بعمل حاسم ضده على قاعدة درء المفسدة خير من جلب المصلحة، غير أن الوالي مع كل تلك التحذيرات والنصائح ظل متردداً فيما يجب عمله.

الأمر الذي لم يصبر على احتماله الناس. وقد نهض العلماء، وعلى رأسهم القاضي الرسمي تقي أفندي الجلبي، وجمع غفير من أمثالهم الذين لم يكونوا فيما مضى قد تداخلوا أو تعرضوا لسياسة الحكومة وقرروا بالاتفاق القيام بمظاهرة احتجاجية، وخرج كل جماعة منهم من جهة، وذلك لغرض تخويف الوالي وحمله على إجابة مطلبهم في إقصاء الكتخدا المذكور، وإعادة الحق والعدل إلى نصابهما.

وفي ليلة الجمعة الموافقة للسابع والعشرين من شهر رمضان المبارك من السنة المذكورة. وبعد الفراغ من تأدية صلاة التراويح، انبرى أحدهم وهجم على الكتخدا الموما إليه أثناء ذهابه إلى مجلس الوالي على العادة الجارية وأذاقه الموت بمسدسه، وقد بقيت جثته مطروحة في ساحة

الميدان المعلومة مدة أربع وعشرين ساعة ثم نقل ودفن في مدرسة علي باشا.

وبعد مقتله تلاشى نفوذ الحكومة، وأصبح كل واحد يقول أنا وغيري لا، ولم يمض وقت طويل حتى وقع الوالي علي باشا فيما كان يخشى منه.

الفصل الثامن: تعيين أحمد آغا بمنصب الكتخدا

لقد شغر منصب الكتخدا بعد مقتل الحاج أسعد أفندي آل النائب، ولا بد من تعيين واحد من المواطنين لهذا المنصب، ولما كان أحمد آغا من الذين مارسوا الأعمال، واشتهروا بالإخلاص في تأدية الواجبات منذ زمن الوالي داود باشا أيضاً، واكتسب خلال هذه المدة خبرة واقتداراً فقد جرى تعيينه بمنصب الكتخدا، وراح يمارس الأعمال بإتقان وحذر، ولم يفرض سلطته كما كان يفعل الكتخدا السابق، أو يضع يده على المصالح والأعمال ويحتكرها لنفسه، بل قسمها على الموظفين المسؤولين، وترك الأمور تجري في مجاريها الاعتيادية، متخذاً مصير سلفه عظة وعبرة، وسار بحسب مقتضيات الأحوال وعلى قدر ما تتطلبه المصالح والواجبات.

الفصل التاسع: تقليص عدد القوات المسلحة

إن الطاعون الذي حدث في أواخر سنة ست وأربعين قد سبب نقصاً وقلة في محاصيل المقاطعات الزراعية بالجملة وذلك لأن البدء قد أغاروا عليها وانتهبوها، ولم يتركوا منها شيئاً، كما وأن السنة التي تلتها كانت سنة ضيق بسبب قلة البذور وانصراف الفلاحين عن الزراعة خلافاً للعادة. وقد تبع ذلك نقص في الواردات الكمركية.

أما واردات البصرة فقد صارت نهباً بيد العشائر والقبائل. وعلى هذا فإن إعاشة حوالي العشرة آلاف جندي من الخيالة، أصبحت من المشاكل الخطيرة التي تعذر على الحكومة معالجتها بعد انقراض المماليك، وبعدما انقرض معهم أولئك الرجال المقتدرون على معالجة مثل هذه الأوضاع قبل استفحالها. وأخيراً لم ير المسؤولون بدا من تقليص هذا العدد الجسيم من الجنود بستريحهم، عدا مقدار يسير يبلغ حوالي الثلاثة آلاف جندي. وقد عاد أولئك المسرحون إلى الأناضول بالتدريج. ومما يدعو إلى العجب أن مدن بغداد والبصرة وشهرزور وحدها كانت تمون احتياج ما يزيد على الألفي جندي بينما نرى الحكومة تعجز الآن عن إعاشة جنودها بالرغم من توسع رقعتها الإدارية إذ صارت تضم ولايات ديار بكر والرقة وحلب إلى ولاياتها القديمة.

الفصل العاشر: خروج عزيز آغا ومحمد مصرف

إن عزيز آغا كان من مماليك الوالي السابق داود باشا، وقد تسنم منصب متسلم البصرة لمدة تبلغ الخمس سنوات، ثم فر من بعد ذلك إلى المحمرة، ومنها إلى إيران. وقد سبق أن بينا أن المصرف محمد أفندي هو الآخر فر نحو الحدود الإيرانية، ومن هناك اتصل الاثنان، مع بعضهما، وكاتب أحدهما الآخر واتفقا على إثارة العشائر القوية ضد الحكومة مثل عشيرة بني لام وما جاورها ثم اتصلا بالجنود العثمانيين والمماليك المقيمين في بغداد من بقية السيوف الذين كانوا قد فروا واندمجوا بالقبائل البدوية العراقية.

* * *

وإلى هنا نقف مع آخر صفحة ولم نعثر مع الأسف الشديد على ما بقي من هذا الكتاب الجليل لأن النار قد أتت عليه وعلى الكتب التي كانت في خزانة المؤلف رحمه الله كما بينا ذلك في مكان آخر.

المترجم

الفهرس



Street in Bagdad.



Bagdad

Panorama et le pont.

91079 Alex. J. Svoboda, Bagdad.